زكريا ويحيى (عليهما السلام)

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾

سورة الأنبياء: ٨٩

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

زكريا ويحيى (عليهم السلام)

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

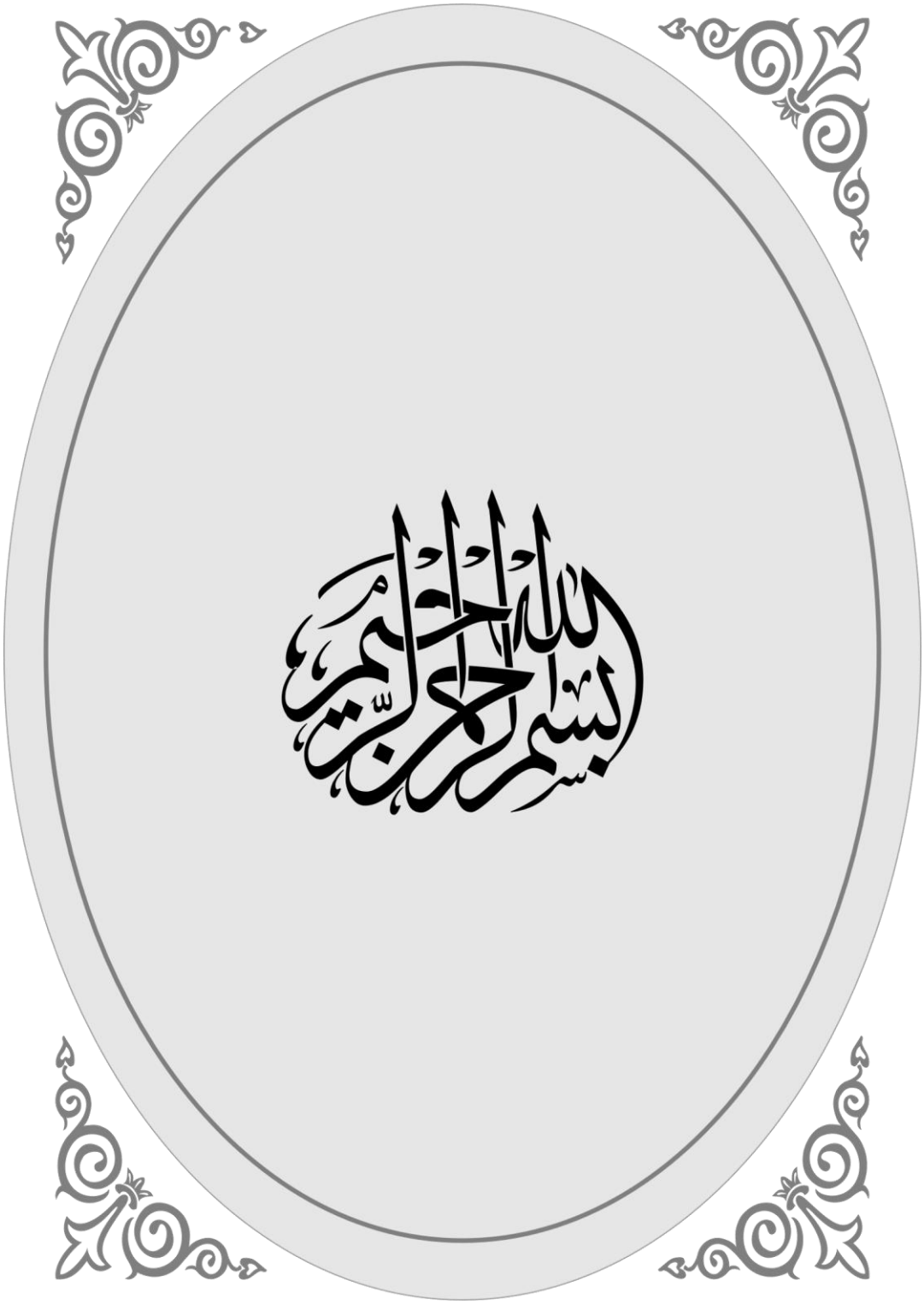
بسم الله الرحمن الرحيم

إلى المتلهّفين والمتعطّشين لمعرفة زكريّا ويحيى (عليهم السلام).

إلى الباحثين عن الحقيقة

إلى العقول النيّرة وأصحاب الفطرة السليمة، والأفئدة الصافية من بني الإنسان.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: 1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70 . 71].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

هذا الكتاب (زكريّا ويحيى عليهم السلام ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾)، وهو من ضمن سلسلة الأنبياء والمرسلين، والتي صدر منها:

- النبيّ الوزير يوسف الصدّيق (عليه السلام) من الابتلاء إلى التمكين.
- الأنبياء الملوك داود وسليمان (عليهما السلام) وهيكل سليمان المزعوم.

- لوط (عليه السلام) ودعوته لقومه الظالمين وعقاب الله لهم.
- هود (عليه السلام) وزوال حضارة عاد.
- نبي الله صالح (عليه السلام) وأسباب هلاك قوم ثمود.
- أيّوب (عليه السلام) طريق الشفاء ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.
- يونس (عليه السلام) وطريق الخروج من المحن والكربات ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

إن قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) من القصص الخالدة في التاريخ الإنساني، وحُفظتْ في القرآن الكريم لكي تستفيد الإنسانيّة من تاريخها المليء بالدروس والعبر والعظات والقوانين والسنن والنواميس والابتلاءات، وأهميّة الدعاء للسميع العليم في تحقيق المقاصد والمطالب. وقد حفظ ربّ العالمين للبشريّة في كتابه الكريم أهمّ محطات تاريخها الممتد في أعماق الزمن، ومن بينها هذه القصّة العظيمة.

وقد حرصتُ في هذا الكتاب على تقسيمه إلى مباحث:

المبحث الأوّل: الجذور التاريخيّة للبلاد التي عاش فيها زكريّا ويحيى (عليهما السلام)، وحديث القرآن عنهم، وتضمن الحديث عن تاريخ فلسطين، وعهود بني إسرائيل؛ كعهد القضاة، والمدّة بين موسى وداود (عليهم السلام)، وعهد الملوك، وعهد الانقسام (زوال ملك بني إسرائيل)، وتداول الإمبراطوريات الكبرى على فلسطين:

1. الحكم العراقي.
2. الحكم الفارسي.
3. الحكم الإغريقي.
4. الحكم الروماني.

كما تحدّثت عن الحالة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة، والطوائف اليهوديّة في عهد زكريّا (عليه السلام)، وقبل ظهور عيسى (عليه السلام)، كالسامريين، والصدوقيين، والفريسيين، والقمرانيين، والأسانييين، وعن الهيكل المزعوم، وعن حديث القرآن الكريم عن زكريّا ويحيى (عليهم السلام).

وفي المبحث الثاني: عن قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة آل عمران.

وقدّمت شرح الآيات الكريمة معتمداً على الله (عزّ وجل) وكتب علماء التفسير كالطبريّ، وابن كثير، والقرطبي وغيرهم من المراجع القديمة، واستفدت من علماء التفسير كالشعراوي وأبي زهرة ومحمّد رشيد رضا وطهماز، ورجعت إلى الكثير من المصادر القديمة والحديثة وكتب التاريخ، والكتب التي اختصّت بالأنبياء والمرسلين، وغيرها من الكتب، واعتمدت هذه الطريقة في تفسير كل الآيات التي تحدّثت عن زكريا ويحيى، وجمعت بين التفسير الموضوعي والتحليلي في تناول الآيات، ووقفت عند المسائل العقديّة والفقهيّة والأخلاقيّة، والروحيّة والسننيّة، والتاريخيّة، وأسماء الله الحسنى التي ذكرت في الآيات الكريمة.

وفي المبحث الثالث: قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة مريم.

وفي المبحث الرابع: قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة الأنبياء، وعن زكريا ويحيى في موكب الأنبياء والمرسلين، وعن طرق الوحي، والفرق بين النبيّ والرسول، وأهم صفات الرسل والأنبياء، وأهميّة الإيمان بهم، وحكمة إرسالهم، ووظائفهم وما تفرّدوا به، وعن أصول الإيمان والشرائع والأخلاق والفضائل في دعوتهم، وأهمّ صفات زكريّا (عليه السلام) ووفاته، وعن يحيى (عليه السلام) في الأحاديث النبويّة الصحيحة، وعن وصيّة الله ليحيى بن زكريّا التي ذكرها نبيّنا محمّد ﷺ عن وفاته وما قيل فيها، ثمّ الخلاصة؟

إنّ القصص القرآني مدرسة عظيمة في تعليم الأفراد والأُسر والمجتمعات والشعوب والأمم حقائق الوجود، واستلهام السنن والدروس والعبر، كما أنّ الأنبياء والمرسلين مرجعيّة روحيّة وأخلاقيّة، وعقائديّة ودينيّة لمعرفة الصراط المستقيم والإجابة على كلّ الأسئلة التي تشغل بني الإنسان فيما يسمّى بالأسئلة الوجوديّة، كما أنّ الوقوف مع أقوال الأنبياء ودعواتهم ومواقفهم والتأمّل فيها تزيد الإيمان والاقتداء بهم في حياتنا، وتكسبنا قواعد وأصول عقلانيّة ومنطقيّة ووجدانيّة في الحوار، ودعوة الناس لدين الله، والتضييق على منافذ الشيطان

والنفس الأمّارة بالسوء، وتعلّمنا عبادة الإخلاص والاستعانة والدعاء والإخلاص والاعتماد والتوكّل على ربّ العالمين وتحقيق توحيده وإفراده بالعبادة ومحاربة الشرك بكافّة أشكاله وأنواعه.

إنّ القرآن الكريم قدّم لنا قصّة زكريّا ويحيى في أبهى صورة وكيفيّة الاستفادة منها، وطرق أبواب رحمته التي وسعت كلّ شيء وكأنّ القارئ لقصّته يشاهد زكريّا (عليه السلام) في محرابه وهو يناجي ربّه بلا واسطة وقد تقدّمت به السنّ ووهن عظمه واشتعل رأسه بالشيب، ويبثّ همومه وشكواه إلى خالقه السميع البصير العليم سبحانه وتعالى، وكان على ثقة من استجابة الله ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

وما أروع هذا الدعاء ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، وما أعظم هذه الاستجابة ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

وأخيراً: لا يسعني في نهاية الكتاب إلّا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرّئاً من حولي وقوّتي، ملتجئاً إليه في كلّ حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي.

فالله العزيز الحكيم الخلّاق العليم الرؤوف الرحيم، هو المتفضّل وربّي الكريم وإلهي العظيم هو الموفّق، فلو تخلّى عنّي ووكلني إلى عقلي ونفسي لتبلّد منّي العقل، وغابت الذاكرة، ويبست الأصابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشاعر، وعجز القلم عن البيان.

اللهم يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك وعلى طاعتك.

اللهم إنّي أعوذ بك من سوء الأخلاق والأعمال والأهواء وطريق الغواية.

اللهم بصّرني بما يُرضيك واشرح صدري، وجنبني اللهم مالا يُرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري.

وأسألك اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العُلا أن تُثبّتني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد.

اللهم اجعل هذا العمل لوجهك خالصاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقبول والنفع العميم.

ربّ اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين والمؤمنات، ونرجو من كلّ من يطّلع على هذا الكتاب ألّا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضاه من دعائه ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: 19]

الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورضوانه

د. علي محمّد محمّد الصّلّابي

هذا وقد تمّ هذا الكتاب بفضل الله ومنّه ورحمته وتوفيقه وتسديده يوم الاثنين الساعة الثانية ظهراً بتوقيت الدوحة حفظها الله وسائر بلاد المسلمين، بتاريخ

1/ جمادى الثاني/ 1446هـ.

2/ ديسمبر/ 2024م.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المبحث الأوّل:

الجذور التاريخيّة للبلاد التي عاش فيها زكريّا ويحيى (عليهما السلام) وحديث القرآن عنهم

وُلد زكريّا (عليه السلام) في فلسطين من أرض الشام، وعاش بأرض الجليل في شمالها، وهي منطقة عُرفت بجمال طبيعتها وخصوبة أرضها، وتنوع شعوبها وأعراقها. وقد كانت فلسطين آنذاك إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقيّة والغربيّة، تمرّ عبرها القوافل التجارية، وتتلاقى فيها الثقافات والحضارات، وتشهد حركة دائمة من التبادل الفكري والديني. ومن المهم قبل تناول سيرة زكريّا (عليه السلام) وأحداث زمانه، أن نُلقي الضوء على الجغرافيا التاريخية لهذه الأرض المباركة، وما مرّت به من تحولات سياسية واجتماعية، منذ عهد إبراهيم الخليل (عليه السلام) الذي هاجر إليها، مروراً بذرية الأنبياء من إسماعيل وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام)، وصولاً إلى المرحلة التي سبقت مولد زكريّا ويحيى وعيسى (عليهم السلام)، حيث كانت فلسطين مركزاً لرسالات السماء، وميداناً للصراع بين الحق والباطل، ومهداً لآخر أنبياء بني إسرائيل.

أوّلاً: تاريخ فلسطين:

تاريخ فلسطين تاريخ حافل، ففي الألف الثالثة قبل الميلاد هاجر إلى هذه المنطقة – والتي سمّيت فلسطين فيما بعد – أفواج من القبائل العربيّة، وكان الفينيقيّون أسبق الجماعات هجرة إلى هذه المنطقة، وقد وجدوا على شاطئ البحر المتوسّط شمال غرب فلسطين مكاناً جيّداً للاستقرار، فأقاموا، وأنشأوا أهمّ مدنهم: صيدا وصور.

وإلى الجنوب من الفينيقيّين نزلت قبائل عربيّة، واستقرّت على ضفّة الأردن الغربيّة نحو البحر المتوسّط من المنطقة الوسطى من فلسطين، وسُمّيت هذه المنطقة باسمهم، فأصبحت تُدعى (أرض كنعان)، وقد شملت

أرض كنعان مُدناً عدّة أهمّها السامرة والتي أصبحت فيما بعد حوالي عام 880 ق.م عاصمة مملكة بني إسرائيل[1].

وفي سنة 1200 ق.م نزلت بالساحل المُطلّ على البحر المتوسّط جماعات من جزيرة (كريت)، وكانت تُسمّى قبائل (فلستين)، نزلت بيت يافا و(غزة) واختلط الكنعانيّون بهم، وأطلقوا عليهم اسم فلسطين، وأصبحت المنطقة كلّها تُعرف باسم فلسطين[2].

وفلسطين في المنطقة التي يذكر أهل الكتاب أنّ إبراهيم الخليل (عليه السلام) هاجر إليها، مع العلم أنّهم لم يذكروا أنّه هاجر بسبب أذى قومه له، ومحاولتهم قتله بعد أن دعاهم إلى عبادة الله، وفي فلسطين رُزق بإسماعيل ثمّ إسحاق (عليهما السلام)، وهو إسرائيل الذي يُنسب إليه بنو إسرائيل[3].

وظلّ بنو إسرائيل أبناء يعقوب بن إسحاق (عليه السلام) في أرض فلسطين يتنقلون في جنباتها على عادة الرعاة، ويعيشون فيها حياة البداوة كما قال (عزّ وجل) حكاية عن يوسف (عليه السلام): ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: 100].

واستمرّ بهم هذا الحال إلى أن انتقلوا إلى مصر، فاستوطنوها زمن يوسف (عليه السلام) حتّى خرجوا منها بعد ذلك بزمن طويل مع موسى (عليه السلام)، بعد أن أوحى الله تعالى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: 52].

فخرج بهم وكان أن حكم الله عليهم بالتيه بعد ذلك، وذلك جزاء تخاذلهم عن قتال أهل الأرض المقدّسة[4].

وخلف موسى (عليه السلام) يسوع –كما يسميّه أهل الكتاب – (يوشع بن نون) الذي اختاره موسى قبل موته لقيادة بني إسرائيل، وهو الذي عبر بهم إلى أرض كنعان – فلسطين – بعد انقضاء التيه المحكوم به على بني إسرائيل، ذلك في حدود القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وكان هذا أوّل استقرار لنبي إسرائيل واستيطان لفلسطين[5].

---

[1] معجم الحضارات السامية، هنري عبود، لبنان، ط2، 1411م، ص454.

[2] تحريف رسالة المسيح، بسمة أحمد، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م، ص22.

[3] المسيح عيسى ابن مريم، الحقيقة كاملة، علي محمّد الصلابي، دار ابن كثير، ط1، 2019م، ص27.

[4] دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، د. سعود عبد العزيز، أصول السلف، 2006م، ص33.

[5] تحريف رسالة اليهود، ص24.

ثانياً: عهود بني إسرائيل:

مرّت حياة بني إسرائيل في فلسطين بثلاثة عهود متميّزة:

1- عهد القضاة:

كان حكّام اليهود فيه في هذه الفترة قضاة من الكهنة، ولم يكن في بني إسرائيل ملوك في تلك الأيام، وقد دُوّن تاريخ هذه الحقبة في سفر القضاة.

وفي تلك الفترة انتهت حياة البداوة والخشونة والترحال إلى شبه حياة حضاريّة مستقرّة، فسكنوا المدن والقصور بعد الخيام في الصحراء، وكانوا مع ذلك في حروب دائمة مع من جاورهم من الفلسطينيين، وحروب داخليّة مع أسباطهم الاثني عشر، كما كانت تسودهم الفوضى والانتكاس في العبادة أيضاً[1].

ويبدأ عصر القضاة بموت يوشع بن نون، وينتهي بقيام الملكيّة على يد طالوت (شاؤول في التوراة) وهناك نوعان من القضاة:

أ_ النوع الأوّل:

وهم الذين يفصلون في الدعوى بين المتخاصمين، فقد كان موسى (عليه السلام) يقضي للشعب وحده من الصباح إلى المساء، فنصحه (يثرون) بأن يُعلّم الشعب الفرائض والشرائع، ثم يختار من ذوي القدرة والخوف من الله والمبغضين للرشاوي، ليقيمهم على الشعب رؤساء ألوف ومئات وعشرات فيقضوا في الدعاوى الصغيرة، أمّا الدعاوى الكبيرة فيأتون بها إلى موسى (عليه السلام) ليقول فيها القول الفصل.

والقضاة من هذا النوع كان عددهم كبيراً جداً، وهم متواجدون منذ بداية التيه مع موسى (عليه السلام) وبعده.

ب_ النوع الثاني:

هو بمعنى المخلص، وهو ما ورد في سفر القضاة (وأقام لهم الربّ قضاة، فخلّصوهم من يد ناهبيهن) وهذا النوع بمعنى المخلّص هم الذين ورد ذكرهم في فترة القضاة.

وهي عهد القضاة تذكر كتب التاريخ، التي اعتمدت على سفر القضاة وغيرها من الكتب، بأنّ بني إسرائيل ارتدّوا عن عبادة الله سبع مرات، وعبدوا الأصنام وهو ما كان سبباً في تسليط الأعداء عليهم، وكان من

[1] داود في الأسفار اليهودية، مي مدهون، 2018م، ص615.

قضاتهم ممن يُلمُّ شعث المتفرّقين ويجمع شملهم، وكان منهم من يقوم بردِّ غارة أو دفع عدوّ عنهم، ومنهم من تولّى الحكم طول حياته، ومنهم من فسد في حكمه، وولّى أولاده في القضاء، ولقد سطّر سفر القضاة سيرتهم وأحوالهم، وما أصابهم من نكبات وقعت بهم وأقضّت مضجعهم، ومن قراءة عهد القضاة من خلال سفر القضاة، ستخلص أنّ عهد القضاة أسوأ عهود بني إسرائيل ففيه انتشرت الرذائل والمنكرات بينهم، وعبدوا الأصنام، وقتلوا الصالحين، وفشا بينهم الزنا وترتّب على ذلك أنّهم تعرّضوا خلال عهد القضاة لنكبات وغارات كان لها وقع عظيم.

وقد تحدثت كتب كثيرة عن أسماء القضاة، وسيرهم وعهدهم وسماته ومدّته، واختلفوا في ذلك اختلافاً بيّناً، ومن أهم هذه الكتب:

- بنو إسرائيل منذ دخولهم فلسطين وحتّى الشتات الروماني في عام (135م)، للدكتور محمد بيومي مهران.
- المدخل لدراسة التوراة والعهد القديم، لمؤلفه محمد علي الباز.
- دراسات في الأديان في اليهودية والمسيحيّة في أديان الهند، للدكتور محمد ضياء الأعظمي
- دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد الشام، للدكتور محمد بيومي مهران.
- التاريخ العسكري لبني إسرائيل من خلال كتبهم، قراءة جديدة للعهد القديم، للواء الركن المتقاعد الدكتور ياسين سويد.

وأمّا أرجح الأقوال، فيما يتعلّق بمدّة عهد القضاة، فيُمكننا أن نستعين بما ذكره ابن خلدون في مقدّمته حين قال: إنّ للدولة أعماراً طبيعية كالأشخاص، وذكر قياس عمود النسب قائلاً: يجري على ألسنة الناس في المشهور أنّ عمر الدولة مئة سنة، فاعتبره قانوناً يصحّح لك عدد الآباء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة السنين الماضية، إذا كنت قد اقتربت من معرفة عددهم، وكانت السنون الماضية منذ أوّلهم محصّلة لديك، فعدّ لكلّ مئة من السنين ثلاثة من الآباء، فإن نفّضت هذا القياس مع نفوذ عددهم فهو صحيح، وإن أنقصت عنه بجيل، فقد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب، وإن زادت بمثله فقط

سقط واحد، وكذلك تأخّر عدد السنين من عددهم، إذا كان مُحصّلاً لديك فتأمّله تجده صحيحاً، والله يقدر[1]. وعليه فتكون مدّة عهد القضاة (120- 130) عاماً والله أعلم[2].

ولا شكّ أن كتب العهد القديم المتعلّقة بسعر يشوع وسفر القضاة، تعرّضت لمبالغات وأكاذيب بعيدة عن الدقّة والحقيقة والمصداقيّة، كما أنّها تعرّضت للتحريف والتبديل بسبب الأهواء، فقد حاولوا إقناع الناس من خلال تزوير حقائق التاريخ، أنّ جذورهم التاريخيّة في الأرض المقدّسة استمرّت قروناً عدّة، مضى معظمها في حروب وتناوش مع سكان الأرض الأصليين – الفلسطينيين – وإن شيّدوا فيها أعظم مملكة لهم، ولكنّها ككانت قائمة على التوحيد الخالص لله، ومع ذلك لم تصمد أكثر من قرن من الزمان – ملك سليمان وداوود عليهما السلام – لرِدّتهم وتمرّدهن، وعصيانهم، فأشركوا بالله، وعبدوا الأصنام والأوثان، فسلّط عليهم من مزّق مُلكهم بما كسبت أيديهم، والله عزيز ذو انتقام[3].

2- المدّة الزمنيّة بين موسى وداود (عليهما السلام):

تُوفي موسى (عليه السلام) بعد أن ربّى جيلاً جديداً من بني إسرائيل، ويساعد في ذلك فتاه يوشع بن نون، ونجح نجاحاً عظيماً في تربية ذلك الجيل، وتوفّي موسى (عليه السلام) في التيه، وأجمع العلماء على أنّ فترة التيه كانت (40 سنة) استنتاجاً أنّ مدّة عهد القضاة (120) سنة، وذكرت كتب العهد القديم أنّ زمن حكم شاؤول استمر سنتين، وبعدها تولّى الملك داود (عليه السلام)، فتكون الفترة الزمنيّة بين وفاة موسى (عليه السلام) وتولّي داود (عليه السلام) الملك كما يأتي (40) عاماً التيه، و(120) عاماً عهد القضاة، وسنتان ملك شاؤول، ما تعادل (162) عاماً، أي أكثر من قرن ونصف القرن تقريباً، والله أعلم، وهو مخالف لما ذكره العلّامة المفسّر ابن كثير – رحمه الله – من أنّ المدّة بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة[4].

---

[1] مقدّمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، 2006م، ص 171- 172.

[2] داود وسليمان في الأسفار اليهودية، ص160.

[3] داود وسليمان في الأسفار اليهودية، المصدر السابق، ص160.

[4] داود وسليمان في الأسفار اليهودية، المصدر السابق، ص162.

3- عهد الملوك:

هو العهد الذي بدأ فيه الحكم ملكيّاً، وقد تحدّثت الآيات القرآنيّة على بني إسرائيل مع ملكهن طالوت، وهذه القصة مثال للذين غَلبوا على أمرهم، ومن ثمّ بُدِّلوا من الذلّة عزّة، وهي قصّة تكشف عن سنن الاجتماع والحروب، وأمثل طرق الحكم وإدارة البلاد.

وقد بدأت دولة بني إسرائيل على يد الملك طالوت ثمّ قويت، وتمكّنت على عهد داود (عليه السلام)، ومن ثمّ تمدّدت وتوسّعت وترسّخت واستقرّت على يد النبيّ الملك سليمان. وقد أثبت القرآن الكريم بنوّة داود وسليمان (عليهما السلام).

ووصف القرآن الكريم داود (عليه السلام) بالإيمان بالله، وشرّفه الله (عزّ وجل) بالعبادة، واتّصف بالصبر والشجاعة، والحكمة، والحكم بالحق، والاستغراق الكبير في تسبيح الله وحمده والثناء عليه، وذكره الله في موكب الأنبياء والمرسلين وآتاه الله الزبور، وشدّ ملكه الذي كان في طاعة الله، واشتهر بالصيام والقيام والشكر لله (عزّ وجل) بالجوارح واللسان والقلب، وغير ذلك من الصفات النبيلة والأخلاق الكريمة والمثل الحميدة.

وقد كان داود (عليه السلام) ملكاً نبيّاً، وعلّمه الله (جلّ جلاله) صناعة الزّرد وعدّة الحرب، وكان أوّل من جمع بين الملك والنبوّة، وكان من أسمى أهدافه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان ينهج مع الظلمة والعصاة منهجاً جديداً شديداً، تظهر فيه معالم القوّة والردع وإعلاء كلمة الحقّ، وترك داود (عليه السلام) منهجاً ربانيّاً ملتزماً بشرع الله (عزّ وجل) في سياسة الملك، وقيادة الناس، والتعامل مع النفوس، وإعمار البلدان، وتطوير الصناعات والمرافق، والاهتمام بالمستضعفين ورفع الظلم عن المظلومين، وإقامة العدل بين الرعيّة.

وكان على اطلاع بأحوال الحاكمين السابقين والهداة المهتدين المرشدين، وأوتى من علم التوراة والأخبار الصحاح عن النبيّين السابقين، كلّ ذلك رفع مقامه وهيّأ له الأسباب ليحكم بالحق، وكان ملكه عظيماً، فقد أمدّه الله بوسائل القوّة المعنويّة والماديّة من المال والرجال والعتاد والسلاح والدروع والتشريع وإصابة الحقّ والعدل.

وكان داود (عليه السلام) عاملاً ماهراً في صنع الدروع، وإليه نُسبت، فقيل: دروع داوديّة.

وكان داود (عليه السلام) في شبابه قبل النبوّة راعياً للغنم، وكان يعمل، ويكسب بالصناعة، ويأكل من عمل يده، ويستغني عن غيره.

إنّ مملكة داود وسليمان (عليهما السلام) كانت قائمة على العدل والحق، وكان باب الاجتهاد مفتوحاً للوصول للحكم العادل، وقد نُقل عن داود وسليمان (عليهما السلام) أحكام كثيرة في القضاء وفصل الخصومات، فكانوا ملوكاً وقضاة وأنبياء وحُكاماً حقيقيّن، وقد كتب الله لداود (عليه السلام) نجاحاً بعيد المدى في أن يخلّص قومه الإسرائيليّين من جالوت وجنوده، وفي أن يحقق لهم الاستقلال التام وأن يوجد لنفسه نفوذاً في بلاد الشام.

تولّى الحكم بعد وفاة داود (عليه السلام) ابنه سليمان (عليهم السلا)، ويمثّل حكمهما فترة رخاء وازدهار على المستوى الإنسانيّ في تاريخ الإنسانية، وقد سادت قيم الحق والعدل والرحمة والإحسان في حكمهما (عليهم السلام)، ذكر الله تعالى قصّة سليمان (عليه السلام) في القرآن الكريم وقد تضمّنت كثيراً من معجزاته، كما حوَت الكثير من قيم الحكم الرشيد، ومعايير العدل والقضاء والحسبة والتربية والأخلاق، كما اشتملت على مناهج الدعوة وأساليبها وأهدافها، وقد ورث سليمان (عليه السلام) داود (عليه السلام) خلافة إيمانيّة ومملكة متكاملة، فحافظ عليها، وقوّاها، ووسّع حدودها، وضمّ إليها بقاعاً أخرى، وطبّق فيها شرع الله على الناس في زمانه، وسار بهم في طريق مرضاة الله، وكان سليمان (عليه السلام) نموذجاً لقادة البناء والنهوض الحضاريّ، وتجسّدت في شخصيّته صفات إداريّة عظيمة من اليقظة والمتابعة، والقوانين الضابطة لحركة الجيوش ومؤسّسات الدول، وفهم سنّة الأخذ بالأسباب والسير على النهج المستقيم في إدارة الشؤون العامّة والخاصّة، وأبرز سليمان (عليه السلام) في حُكمه أهميّة العلم الربّاني المستمد من الله سبحانه وتعالى في بناء الحضارات، وترسيخ مقوّمات الحكم الرشيد في الدولة، وضبط مسار القيادة والشعوب والمؤسسات وفق قيم الشريعة الربانيّة، التي جعلها الله بصائر للناس وهدايات لهم في حياتهم الدينيّة والدنيويّة وكيفيّة التعامل مع العلوم المتنوّعة في إسعاد الناس، وفق المنهج الربّاني.

ومن المقوّمات الأساسيّة للحكم الرشيد الاهتمام بالأمور التنظيميّة، والإصلاحات الإداريّة والماليّة في المجتمع. وسليمان (عليه السلام) قدّم درساً في القيادة الحكيمة؛ وفق رؤية إداريّة، واقتصاديّة رشيدة، فحقّق التنمية الشاملة في دولته.

_ خاضت بعض كتب التفسير والتاريخ في القصص التي وردت في القرآن الكريم عن داود وسليمان (عليهما السلام)، بسبب التأثّر بالإسرائيليّات، ونسبوا إليهما ما يتنافى مع عصمة الأنبياء، ولكنّ علماء أهل السنّة يُجمعون على أنّ الأنبياء معصومون من الكبائر.

_ استخدم سليمان (عليه السلام) معدن النحاس في العمارة والبناء، وشيّد العديد من المباني والقلاع والمساجد، والقصاع والقدور، وقد استفاد من معدّات الحديد كذلك، ومعادن أخرى في الصناعات الحربيّة والمدنيّة لتقوية دولته وازدهار حضارتها، والقيام بواجب الحضارة في الأرض، وفق مفهوم الخلافة الربّانيّة فيها.

_ إنّ القرآن الكريم بيّن أكثر الحقائق الدامغة عن سيرة داود وسليمان (عليها السلام)، فردّ على التشويه اليهوديّ لهذين النبيين العظيمَين، ولقد شوّهوا صورة سليمان (عليه السلام) واتهموه بالكفر بالله، وأنّه انحاز وراء الأصنام، وقالوا: إنّ سليمان ما حكم مُلكه إلّا بالسحر والاستعانة بالشياطين، وكذلك شوّهوا أباه داود (عليه السلام) وقالوا إنّه استعبدهن، وجعل النيِّر فوق رقابهم وتناسوا أنّه نبيّ مرسل، وحفيد أنبياء مرسلين، وقالوا عنه استدان الأموال، وأرهق الناس بالضرائب، ليبني هيكلهم المزعوم.

وانتهت بوفاة سليمان (عليه السلام) مرحلة العصر الذهبيّ لنبي إسرائيل والمتمثّل في دولتهم الفتيّة وخلافتهم الربّانيّة[1].

4- عهد الانقسام (زوال ملك بني إسرائيل):

اِنقسمت مملكة سليمان بعد وفاته إلى مملكتين: يهوذا في الجنوب، وعاصمتها القدس، ومملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها نابلس في الجليل، وكان بين الدولتين عداء وقتال، وكان يحدث في بعض الأحيان توافق وتفاوت، وكانت تُشنّ على الدولتين غزوات من قِبل جيرانهم، كما أنّ الدولتين وقع حكمهما وشعبهما في عبادة الأصنام في كثير من فترات تاريخهما، وارتكبوا الكبائر، وقد امتلأ عصر المملكتين الذي دام قريباً من ثلاثة قرون ونصف -كما ذكر بعض المؤرخين – بمختلف ألوان الفساد، وتردّى أكثر المجتمع الإسرائيلي في الشمال والجنوب في درك الانحطاط حتّى فقد هذا المجتمع أهليّة بقائه وحلّ عليه غضب الله ولعنته، ووقعت عليه نقمته وعقوباته، وكان أبرز معالم انحطاطه شيوع الوثنيّة في كل جنباته، حيث ترك الكثير من

[1] الأنبياء الملوك داود وسليمان عليهما السلام وهيكل سليمان المزعوم، علي الصلابي، دار ابن كثير، ط1، 2024، ص627.

بني إسرائيل عبادة الله الواحد الأحد وعظّموا أوثان الأقوام والشعوب المحيطة بهم، فعبدوا الشمس والقمر والكواكب، واتخذوا أوثاناً مختلفة من الخشب والشجر والحجر، وارتكبوا المعاصي والكبائر لم ينجُ مجتمع الشمال والجنوب في المملكتين الشماليّة والجنوبيّة وحكامها من الوقوع في الوثنيّة وتردّي المجتمع الإسرائيلي في الفحش والرذيلة، فشاع فيها الزنى واللواط، بل وصل الأمر إلى الإباحيّة القذرة، فكان الأب وابنه يذهبان إلى بيت الصبيّة الواحدة ويضاجعانها بالحرام[1].

وانتشرت المظالم في ذلك المجتمع، وشارك فيها الملوك والكهنة والقضاة، فظلموا الفقير واليتيم والأرملة. واعتدوا على النُّزلاء المقيمين في مجتمعهم من غير بني إسرائيل، وسلب بعضهم أموال بعض، وأخذوا الحقوق من أهلها، وكثر المال في أيدي فئة فاجرة من الناس، وانتشر الرفاه والترف، وشغل الناس بشرب الخمور والملهيات وبناء البيوت الفاخرة، وكانت بيوت الفقراء الحقيرة إلى جانبها[2].

فسدت نساء كثر في المجتمع الإسرائيلي، وقام في تلك الفترات، وفي كلا المملكتين أنبياء كرام (عليهم السلام)، من أمثال: إلياس، واليسع، فأرشدوا الناس، وحذروهم ممّا وقعوا فيه من الشرك والآثام وقبائح الأعمال، والمظالم، وترك العمل بشريعة الله، وخوّفوهم من نقمة الله (عزّ وجل)، ومن تسليط الشعوب عليهم، وخوّفوهم أيضاً ممّا وقعوا فيه من الفساد الذي حذرتهم منه نبوءة التوراة، التي نزلت في عهد موسى (عليه السلام)، ولكنّهم صَمُّوا آذانهم عن صيحات الأنبياء واستمرّوا في غيّهم حتّى وقع بهم قضاء الله الذي لا يُردُّ عن القوم الظالمين، سقط مُلك بني إسرائيل في الأرض المقدّسة، وانتهى حكمهم فيها، وسيقوا أذلالاً خارجها، وخضعوا للإمبراطوريّات الكبرى البابليّة، والفارسيّة، والإغريقيّة، والرومانيّة من سنة (586 ق.م حتّى سنة 135م)[3].

[1] كلام في اليهود، محمد علي دولة، دار القلم، دمشق، ط1، 2013م، (2/ 7).

[2] سفر موسى، (6/ 4-7)، كلام في اليهود، ص52.

[3] كلام في اليهود، ص54.

ثانياً: تداول الإمبراطوريات الكبرى على فلسطين:

1- الحكم العراقي:

جاء الآشوريون من العراق، واحتلّوا فلسطين عام (740 ق.م)، وأخذ اليهود يدفعن الجزية للآشوريّين، وأنشأوا مملكة خضع فيها اليهود لحكم هؤلاء، ولكن ملكة الآشوريّين لم تدُم سوى ثماني سنوات، وانتهى حكمهم بعدما هاجمهم من داخل العراق أقوام هم (البابليّون) أو الكلدانيّون، وسيطروا على أرض العراق كاملة، واحتلّوا عاصمة الآشوريّين (نينوى)، وبطبيعة الحال امتدّت سيطرتهم حتّى احتلّوا مملكات الآشوريين، ومن ضمنها فلسطين[1].

وأسقط الإمبراطور (بختنصر) مملكة يهوذا، وساق أهلها إلى بابل، وهناك عاشوا قريباً من خمسين سنة في لوعة وأسى تحت حكم البابليّين، الذين أتاحوا لهم أن ينشطوا في الأعمال والتجارة وتثمير الأموال[2].

كانت هذه الحقبة التاريخية تُعرف باسم السّبي البابلي، وهي مرحلة خطيرة في تاريخ اليهود، لأنّها شكّلت مرحلة فاصلة بين مرحلتين في ذلك التاريخ خاصّة من ناحية العقيدة، فالديانة اليهوديّة قبل السبي شيء مختلف ومُغاير لنا بعد السّبي، فخلال السّبي صيغت ودُوّنت كل ملامح تاريخهم الذي تلا السبي حتّى يومنا هذا.

فقد أسهم السبي البابلي في صنع الأسفار الجديدة لليهود، التي يظهر فيها تأثّرهم بالثقافات وحضارات الشعوب الأخرى، فالسبي البابلي نقطة بداية لتاريخ جديد لليهود، وكذلك صياغة الأسفار الأساسيّة الخاصة بحقبة السبي، التي منها سفر عزرا، وهو من أخطر وأهم الأسفار التي تناولت المشروع الجديد، فقد وضعوا ثالوثهم المتمثّل في (يهوه، الشعب المختار، الأرض الموعودة)، وهذا الثالوث يقابله (الوثنيّة، العنصرية، الاستعمار، الهمجية) والأسفار صيغت في تلك الحقبة سواء عزرا أو نحميا أو غيرها، والذين عادوا اندمجوا واختلطوا بالشعوب الأخرى في أرض كنعان، وهذا كان بمنزلة الفشل لفكرة الثالوث، أمّا عن الثالوث، فما زال القوم يحاولون تحقيقه، ومشروعهم لم يتغير حتّى يومنا هذا، فلم يرون كل شعوب الكرة الأرضيّة وثنيّين، ويرون في دينهم الدين الأوحد، كما في الجانب الثاني من الثالوث – العنصرية – أي نقاء القوم في العرق

---

[1] فلسطين التاريخ المصور، طارق سويدان، شركة الإبداع الفكري، 2012م، ص46.

[2] كلام في اليهود، ص54.

والجنس، وأنّ باقي سكان الكرة الأرضيّة هم الغويم الذين ليسوا أكثر من خدم لليهود، والجانب الثالث من الثالوث – وهو أخطر جانب – (الهيمنة) والتي ترتكز على احتلال واستعمار الأرض من النيل إلى الفرات، ويكون القلب فلسطين، ثمّ الهيمنة السياسيّة والاقتصاديّة على العالم[1].

إنّ القرآن الكريم لم يُشر إلى السّبي البابلي، إلّا أنّه تضمّن ما يُشير إلى التقطيع والتمزيق والشتات بالنسبة لليهود: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: 168][2].

وإن من الثابت أنّ القوم في السبي لم ينسوا أنشطتهم التجاريّة والزراعيّة والسياسيّة، فكان للكثير منهم مزارع ومناجم وثروات كبيرة، كما كان لهم أصابع في سياسة الدولة البابليّة[3]. وممّا ساعد في ذلك طبيعة معاملة البابليّين لهم، وهذا ساعد على كيانهم الاجتماعي وتمسّكهم بمصالحهم الاقتصاديّة، وأمّا على صعيد العبادة والطقوس الدينيّة فكان القوم قد ضحّوا بالكثير منها، وراودتهم فكرة جديدة وهي: إنشاء معبد في هذه الأرض الدّنسة لتوحيد كلمتهم، ومن هنا نشأ (الكنيس)، وتطوّرت الطقوس فيه من تراتيل فيّاضة، وأدعية، وتطبيق لمبدأ التنبّؤ على الحياة اليوميّة، وهكذا أصبحوا نواة فعليّة للمذهب الإسرائيلي الموضوع[4].

وهذه من أهم التحوّل في الديانة اليهوديّة، بل هي نقطة فارقة في تاريخ اليهود الدينيّ، حيث أنّ التوراة أو جزءاً كبيراً منها أخذت صورتها التي نراها اليوم في هذه المرحلة[5].

2- الحكم الفارسي:

أغارت إمبراطوريّة الفُرس على مملكة بابل، وأسقطتها في سنة (539 ق.م) وسمح (قورش) إمبراطور الفُرس لبني إسرائيل بالعودة إلى مدينتهم، وقد كان اليهود بعد مضي عشرات السنين على إقامتهم في بابل قد تكاثروا وازدادوا أضعاف عددهم، فلمم يعد منهم إلى فلسطين إلّا العدد القليل، وكانوا بحدود اثنين وأربعين ألفاً، أمّا الغالبيّة العظمى فلم تهاجر، لأنّ بابل وقتها كانت عاصمة الثروة والرفاهية والاقتصادية، وكانت مكاناً للحضارة والترف، ولذلك آثر اليهود البقاء فيها لرعاية مصالحهم وثرواتهم، وهنا تجدر بنا وقفة

---

[1] بنو إسرائيل منذ وفاة سليمان، عبد الرحمن الخطيب، 2007م، ص154.

[2] بنو إسرائيل منذ وفاة سليمان، المصدر السابق، ص158.

[3] بنو إسرائيل منذ وفاة سليمان، المصدر السابق، ص166.

[4] بنو إسرائيل منذ وفاة سليمان، المصدر السابق، ص170.

[5] بنو إسرائيل منذ وفاة سليمان، المصدر السابق، ص171.

لملاحظة هذه الظاهرة المثيرة للانتباه، في شأن اليهود، فهم يدّعون أنّهم شعب الله المختار، ويزعمون أن أرض الله المباركة (فلسطين) أرضهم، ولكنّهم عندما تُتاح لهم الفرصة بالعودة إليها فهم لا يعودون.

وفي وقتنا الحالي ورغم كلّ الذي يصنعه الكيان الصهيوني من تهيئة السبل، وبناء المستوطنات، وكلّ ما يُقدم من مغريات وتسهيلات لليهود اليوم فغالبهم لا يعيشون في فلسطين، فهناك أعداد ضخمة منهم يعيشون في أمريكا، وآخرون كثر أيضاً في روسيا، وأعدادهم تفوق أعداد اليهود في فلسطين.

رجع بعض اليهود المحافظين الذين كانت تشدّهم إلى القدس أيّام عهدهم القديم زمن سليمان (عليه السلام)، وعمل هؤلاء فوراً على مسألة مهمّة بالنسبة إليهم، وهو بناء الهيكل (المزعوم) الذي دمّره (بختنصر) فبنوا المعبد مرّة أخرى كما يدّعون، ويسمّى هذا المعبد الثاني وهو مشهور في التاريخ، وموجود في الكتب المقدّسة عندهم، وكذلك هو مدوّن في التاريخ الغربي، وفي ظلّ تسامح الفُرس مع اليهود سمحوا لهم ببناء الهيكل مرّة أخرى، فجعلوا بناء المعبد بناءً كبيراً، ووسّعوه توسعة عظيمة، وأرجعوا قدس الأقداس (المحراب)، وأعادوا المقدّسات التي استطاعوا أن يُحافظوا عليها مرّة أخرى[1].

وعاش اليهود جماعة دينيّة لا أمّة لها مُلك نظام، لقد انتهى الملوك في أسباط بني إسرائيل، واستمرّوا في أورشليم وما حولها، يعيشون في ظلّ الأمم القويّة من البابليّين والفُرس إلى اليونان إلى الرومان[2].

وبعد عودة القوم إلى أورشليم غلب عليهم الاسم الجديد (اليهود)، لأنّ العائدين كانوا في ذرّية يهوذا السبط الذي ملك في أورشليم فصار الناس يدعونهم بهذا الاسم[3].

إنّ كلمة يهود و(يهوديّة) في الإشارة إلى ديانة معيّنة، لم تظهر إلى الوجود إلّا بعد الاحتلال الفارسي لبابل، وحتى الأسفار التوراتيّة الأولى لم تتضمّن هذه الكلمة، وفي هذا الصدد يقول المرحوم عبد الحميد همو: إنّ الأسفار خلت من ذكر اليهوديّة، حتّى إذا خلت الدولة الفارسية الأخمينيّة تلاحظ أنّه في عهدها صار ذكر اليهوديّة في سفرَي عزرا ونحميا وفي سفر أستير، وفيما عدا ذلك فلا ذكر لليهوديّة في أسفار التوراة الخمسة، ولا في أسفار أشيعا ولا إرميا ولا مراثي إرميا وباروخ وحزقيال، وهوشع ويوئيل وعاموس، وعويديا، ويونان،

[1] فلسطين التاريخ المصور، ص52.

[2] كلام في اليهود، ص55.

[3] كلام في اليهود، المصدر السابق، ص56.

وميخيا، وناجوم، وحبقوق وصيفينيا وحجي، وزكريا وملاحي ودانيال، مع العلم بأنّ السِّفر الأخير كُتب في القرن الثاني قبل الميلاد.

وجمع لهم (عزرا)[1] من محفوظاته أسفاراً خمسة أطلقوا عليها اسم (التوراة) أو (توراة موسى) وفّت به اليهود على الرغم ممّا أدخله على الكتب من تحريفات وأضاف إليها من إضافات، وما ضاع منها من نصوص ذات أهميّة، وقالوا عنه: إنّه الله، تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً.

لقد أعرض اليهود بعد العودة من السبي عن عبادة الأوثان، واعتقدوا بالله وحده، لكنّ اعتقادهم بالله كان ولا يزال تشوبه الشوائب، فصفات الله (عزّ وجل) – الذي ليس كمثله شيء – هي عندهم أقرب ما تكون لصفات البشر و(التوراة) التي وضعها لهم (عزرا) والتي ما تزال بين أيديهم، قد أجرت على الله ما يجري على الإنسان من أعضاء ظاهرة وباطنة وانفعالات نفسيّة، وجعلته يتصل باليهود مباشرة فرأوه وسمعوا كلامه، وسار أمامهم[2]. ونصوص التوراة المحرّفة تسيء الأدب مع الله ولا تُقدّره حقّ قدره[3].

لقد احتوت التوراة المحرّفة التي كتبها بعض اليهود بعد عهد النبيّ موسى وعهد يوشع بن نون وطالوت وداود وسليمان (عليهم السلام) على الكثير من المفاهيم الخاطئة، التي شاعب بمرور الزمن إلى أن نزل القرآن الكريم فنبّهنا إليها دون لبس أو غموض[4].

إنّ القرآن الكريم قد بيّن أنّ موسى (عليه السلام) أنزل الله عليه التوراة وحكم قومه بها، وأمر أحبارهم بحفظ التوراة والمحافظة عليها، لكنّهم لم يُنفّذوا هذا الأمر ولم يحفظوها، بل ضيّعوها بعد ذلك بفترة من الزمن.

إنّ القرآن الكريم فرّق بين التوراة التي نزلت على موسى (عليه السلام)، وهي التوراة الربّانيّة، وما يتداوله اليهود من نصوص محرّفة.

فالتوراة الربّانيّة أثنى عليها القرآن ووصفها بصفات طيّبة، فهي نور وضياء وهدى وفرقان وذكر ورحمة وإمام وبركة، وتبيان لكلّ شيء، وهي دستور حياة لني إسرائيل، شرّعت لهم الأحكام، ووضّحت لهم الحلال والحرام، وحكم بها أنبياؤهم وصالِحوهم، هذه التوراة الربّانية الهادية أمرنا الله أن نؤمن بها، لأنّ ذلك من

---

[1] كاهن في زمن السبي وعاد إلى أورشليم.

[2] دراسات في التوراة، عطية الشوادفي، مطبعة الشروق، 1936م، ص97.

[3] كلام في اليهود، ص56.

[4] بنو إسرائيل منذ وفاة سليمان، ص155.

الإيمان بالكتب التي أنزلها، وهذا ركن من أركان الإيمان، ومن كفر بالتوراة كافر مخلّد في النار، ولو آمن بالإسلام والقرآن ونبوّة محمّد ﷺ، ولذلك تقرّر هنا: أن نؤمن بأنّ التوراة كتاب الله الذي أنزله على موسى (عليه السلام)، وأنّها طيّبة عظيمة مباركة صادقة، وأحكامها وتشريعاتها صحيحة عبد بها بنو إسرائيل ربّهم. لكنّنا نؤمن أنّ الأجيال اللاحقة من اليهود (ضيّعوا) تلك التوراة الربّانية المباركة، وخلطوها بكلام أحبارهم وبذلك أتلفوها وطمسوا أنوارها، وغيّروا أحكامها، ولم يُحافظوا عليها كما أمرهم الله، ونؤمن أنّ الله (نسخ) تلك التوراة التي أنزلها على موسى (عليه السلام)، وحرّفها وضيّعها أحبار اليهود، نسخها القرآن الذي جعله الله الرسالة الخاتمة، وحفظه من التغيير والتحريف حتّى قيام الساعة، وهذا معناه أنّه لا يجوز العمل بالتوراة بعد إنزال القرآن الكريم، والقرآن لا يعترف بالتوراة اليهوديّة المحرّفة، وجاء في هذا آيات صريحة عديدة منها:

- قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ٧٥﴾ [البقرة: 75].
- وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ٧٩﴾ [البقرة: 79].

ولقد تتبع مجموعة من العلماء قصّة تحريف التوراة من الزمن ومرور أجيال بين الناس، وبيّنوا في دراستهم ما قام به بعض الأحبار من تحريف وتبديل وزيادة ونقص واسترشدوا بالقرآن الكريم والتحقيق العلمي التاريخي الدقيق، ومن بين هؤلاء العلماء:

- الدكتور صلاح الخالدي، فقد قدّم دراسات قيّمة في هذه المواضيع منها:
  - حديث القرآن عن التوراة.
  - جذور الإرهاب اليهودي في أسفار العهد القديم.
  - سفر التكوين في ميزان القرآن الكريم[1].
- الدكتور عبد الرزاق عبد المجيد، في كتابه (مصادر النصرانيّة دراسة ونقد).

[1] من أراد التوسع فليراجع كتب الخالدي حديث القرآن عن التوراة، جذور الإرهاب اليهودي في أسفار العقد القديم، سفر التكوين في ميزان القرآن الكريم.

فقد أفاد وأجاد فيما يتعلّق بالتعريف بالعهد القديم وبيان أقسامه وأسفاره عند البروتستانت، والتوراة وأسفار موسى الخمسة: التكوين، والخروج، واللويين، والعدد، والتثنية، وكذلك تقسيمها عند الكاثوليك وعند الأرثوذكس وعن طبيعة ارتباط النصارى بالعهد القديم.

وقام الدكتور عبد الرزّاق بدراسة نقديّة في تاريخ العهد القديم، فدرس النصوص ونسبتها إلى كُتّابها ووضع الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى (عليه السلام) في ميزان الدراسة النقديّة العلميّة، وذكر في كتابه شهادات غير المسلمين، من اليهود والنصارى الذي بيّنوا أنّ موسى (عليه السلام) ليس مؤلّف الأسفار الخمسة المنسوبة إليه، وبعد بحث معمّق طويل قال الدكتور عبد الرزّاق عبد المجيد: وعلى ضوء ما تقدّم من اعترافات يهوديّة ونصرانيّة تستنتج ما يلي:

_ أنّ الأسفار الخمسة المنسوبة إلى نبيّ الله موسى لم يكتبها هو ولا أمر بكتابتها، ولك تُكتب في حياته، وإنّما كُتبت بعده بزمن طويل جدّاً، يترجّح أن يكون ذلك بعد عودة اليهود من السبي البابلي[1].

ومن أراد التوسّع فليراجع كتاب (الأسفار المقدّسة قبل الإسلام، صابر طعمة)[2] وكتاب (نقد التوراة، أحمد حجازي)[3].

إنّ القرآن الكريم يُكذّب التوراة المحرّفة، وفصّل القول في المسائل العديدة، والتي كان اليهود يختلفون فيها

_ قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾﴾ [النمل: 76-78]؛ وتقرّ هذه الآيات أنّ اليهود اختلفوا كثيراً في مسائل كثيرة، وكانوا فرقاً متقاتلة متنازعة يحارب بعضها بعضاً، ويُكفّر بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: 64].

إنّهم ظلّوا تابعين للسلوقيّين ثمّ سمح لهم بحكم بعض المناطق، وبدأت مملكة سيموت تكبر وتتوسّع، واستمرّت مملكة (سيموت) بالتوسّع والامتداد حتّى عام (76 ق.م) حيث وصلت إلى البحر، ولكنّها بالرغم من ذلك ظلّت تتبع الإغريق رسميّاً وقانونيّاً وسياسيّاً[4].

---

[1] مصادر النصرانيّة دراسة ونقد، عبد الرزاق بن عبد المجيد، دار التوحيد للنشر، الرياض، ط1، 2007م، (2/ 170).

[2] الأسفار المقدسة قبل الإسلام، صابر طعيمة، دار الكتب، لبنان، 2013م، ص62-63.

[3] نقد التوراة، أحمد حجازي السقا، مكتبة النافذة، 2008م، ص94.

[4] حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، الخالدي، ص65.

3- الحكم الإغريقي:

استطاع الإغريق والذين انطلقوا من اليونان أن يتوسّعوا في حوض البحر الأبيض المتوسط وما بين النهرين (أي دجلة والفرات) وبلاد الإغريق والرومان تمكنوا من بناء حضارة مادة وثنيّة فلسفيّة لها ركائزها، واشتهرت في كتاب التاريخ بالحضارة الإغريقيّة، وأصحاب هذه الحضارة هم اليونانيّون الذين كانوا يمثّلون أمّة عظيمة القدر بين الأمم، وسُمّوا بذلك أي (الإغريق) لتغلغل حضارتهم وتأثيرها في منطقة الشرق الأوسط فلسطين وبلاد الشام وما وصلت إليه من حكم.

ومن الثابت أنّ الحضارة الإغريقيّة قد بدأت متأخّرة عن حضارات حوض البحر المتوسط الأخرى، إلّا أنّه كان لموقعها الاستراتيجي في منطقة البحر الأبيض المتوسط أثره البارز في الاتصال بالبلاد ذات الحضارات القديمة في هذا البحر (في شمال فلسطين) تماماً، كما اتصلوا بالحضارات الشرقيّة والجنوبيّة لحوض البحر واكتسبوا من هذه الحضارات التي استفادوا منها الحضارة المصريّة القديمة[1].

وقد أخذوا منها الكثير من معارفهم الدينية والفلسفية والعلمية، كالفلك والطب والزراعة والهندسة والفنون الجميلة، وفنون العمارة والنحت والتصوير، وما يتجاوز الفن الرفيع إلى أشياء أخرى تسمّى الفنون التطبيقيّة وتسمّى الحياة اليوميّة، وقد تسمّى السياسة أيضاً[2].

وكان كثير من فلاسفة الإغريق المشهورين، قد تلقّوا تعليمهم في مصر ف(أفلاطون) مثلاً درس في جامعات مصر، وقد زار مصر كثيرون من عظماء اليونان المشهورين أمثال (فيثاغورس) و(ديمقريطوس)، ومع ذلك فقد استطاعت بلاد اليونان أن تسبق غيرها من البلاد التي أخذت حضارتها عنها، خاصّة في مجال الفلسفة، وذلك لأنّ هذه البلاد لم تحكمها دولة عريقة، ولم تكن فيها إلى جانب الدول الحاكمة دولة الكهنة تتأصّل في البلاد، وتتوازن فيها أسوار المعرفة والبحث في أصول الخلق والحياة، أو في المسائل الإلهيّة التي يتأثّر بها الكهّان ورؤساء الدين[3].

---

[1] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد إبراهيم الجيوشي، 2006م، ص365.

[2] المسيح عيسى بن مريم، ص491.

[3] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد عبد العاطي، ص336.

وانتشرت الديانة الوثنيّة، وتعدّدت الآلهة، وكانت قوانين اليونان ترى الامتناع عن عبادة الآلة اليونانيّة جريمة كبرى يُعاقب عليها بالإعدام، وهذا هو القانون الذي حُكم به على سقراط بالموت[1].

إنّ الحياة في بلاد اليونان لم تكن دنيويّة كما يصفها المؤرّخون فقط، بل كان للدّين فيها شأن كبير في كلّ مكان، إلّا أنّه كان ذا طابع فردي لا طابع (قومي) عام، بمعنى أنّه لم يكن للدولة دين رسمي يتمسّك به الجميع، أو عقائد ثابتة مقرّرة، ولم يكن قوام الدين الإقرار بعقائد معيّنة، بل كان قوامه الاشتراك في الطقوس الرسميّة، وكان في وسع أيّ إنسان أن يؤمن بما يشاء من العقائد على شريطة ألّا بكفر بآلهة المدينة أو يسبّها[2].

ولقد كانت هذه الفرديّة الدينيّة وما تبعها من فوضى دينيّة نتيجة احتكاك الإغريق بالشرق، وتأثّر بعضهم بالمفاهيم الدينيّة السائدة فيه، فكان سبباً عجّل تفكيك المجتمع اليوناني، ثمّ بسقوطه سريعاً تحت ضربات الرومان، ومع ذلك فقد خلّف الإغريق ما كان ذا أثر فعّال في صياغة شكل الحياة في الإمبراطوريّة الرومانيّة ذاتها وما كان ذا أثر فعّال في الدين المسيحيّ نفسه[3].

كان الحكم الإغريق حكماً قوميّاً وطنيّاً، وكانوا استعماريّين ممن الطراز الأوّل، وقد ساعدهن على ذلك تجارتهم الدوليّة التي أدّت إلى ظهورهن وظهور حضارتهم التي شهد بها التاريخ[4].

وقد ظهر مَيل الإغريق إلى تجسيد المجرّدات برغم الاشتغال بالفلسفة، ومن ثمّ ساد عندهم التفسير الماديّ للوجود والإنسان، وانعكست هذه النزعة الماديّة الوثنيّة على فكرة الألوهيّة عند الإغريق، فإنّه ليس ثمّة دين يقرّب آلهته من الآدميّين قرب آلهة اليونان[5].

فكان اليونانيّون يؤمنون بأنّ آلهتهم يأكلون ويشربون ويلعبون ويهون ويخوضون المعارك، فيتغلّبون ويُغلبون، ويتأمّلون ويفرحون ويحزنون، والويل لمن تعرّض لهم أو أغضبهم، فإنّ غضبهم شديد، لذلك حُكم على

---

[1] قصة الحضارة، ول ديورانت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دار الجيل للطباعة والنشر، 2012م، (91/5).

[2] مظاهر الوثنية، ص368.

[3] مظاهر الوثنية، المصدر السابق، ص368.

[4] قصة الحضارة، (68/2).

[5] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص19.

سقراط أن يشرب السمّ، ومات شهيد الجهر بالحقيقة، لأنّه أفشى أسرار الوحدانيّة وخلود الروح، واعتبروه كافراً بالآلهة اليونانيّة[1].

ولذلك عبدوا آلهة شتّى، فهناك آلهة للحِرف والمهن المختلفة، وآلهة للحرب، وآلهة مستمدّة من الطبيعة، كما عبدوا رمزَي الإخصاب الرئيسيّين في الرجل والمرأة وعبدوا بعض الحيوانات، كما عبدوا الموتى[2].

4- الحكم الروماني:

قرّر الرومان وهم من أصل إيطالي التوسّع، فبدأوا يأخذون ممالك الإغريق مملكة مملكة حتّى وصلوا إلى بلاد الشام فاحتلّوها أيضاً وذلك سنة (63 ق.م)، وعيّنوا عليها كاهناً اسمه (ريسونك) ثمّ أصبح هذا الكاهن كبيراً لليهود، ودام الحكم فيهم على هذه الصورة (23) سنة.

أ_ مَلك اليهود هيرودس:

عيّن الرومان ملكاً لليهود اسمه (هيرودس) مشهور في التاريخ باسم (هيردس) وفي التاريخ العربي باسم (هيرود): لم يكن هذا الملك من الأسرة المكابية الحاكمة، بل تمّ اختياره على أيدي الرومان فكان موالياً لهم، وطاغية شديداً على اليهود، ولكي يُثبت مكانته بين اليهود ويجعلهم يتّبعونه أعاد تجديد الهيكل، وضاعف مساحته، وأصبحت هذه المنطقة (الأردن وفلسطين) في عهده منطقة صراع بين الرومان والفرس، فتارة تكون بأيدي الفرس وتارة بأيدي الروم، وفي عام (34 ق.م) استطاع (هيرود) أن يجمع قوّة يطرد بها الفرس، ثمّ أحكم سيطرته على تلك المناطق، وكانت فترة حكمه فترة ازدهار لها، وظلّت الأمور مستقرّة بيده فترة طويلة، وفي هذه الفترة زارت كيلوبترا حاكمة مصر الفرعونيّة القدس، في طريق عودتها من زيارتها للعراق والفرات، فكان لهذا الحادث وقع عظيم جداً في تلك المناطق، لما كان لكيلوبترا من شهرة عظيمة[3].

ثالثاً: الحالة السياسيّة والاجتماعيّة:

خضعت فلسطين للسياسة الرومانيّة منذ سنة 13 ق.م، فانتهجت في أول الأمر نظام الحماية، وأوكلت ظاهر السلطة إلى ملك محلّي من اليهود لضمان ولاءه.

---

[1] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، المصدر السابق، ص370.

[2] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، المصدر السابق، ص370.

[3] فلسطين التاريخ المصور، ص58.

وتجدر الإشارة إلى أنّ من اليهود من استقبل حكم الرومان بصدر رحب، وتعاونوا معهم في حكم البلاد، ومنهم من اعتبروا وجودهم أمراً يجب محاربته، ومن هذه الجماعة ظهرت أحزاب ساهمت في تطوير النصرانيّة، وفي عهد أغسطس إمبراطور روما (ت: 14م).

أحاطت الإمبراطوريّة الرومانيّة في تلك الفترة بالبحر المتوسّط كلّه وببلاد أوربا الواقعة غرب نهر الراين إلى البحر الأسود، وحكمت الأناضول (تركيا) وبلاد الرافدين والشام ومصر والشمال الإفريقي كلّه، أي أنّ المجتمع النصراني وُلد في مكان التقى فيه عالمان: الشرق والغرب، والساميّون والرومان، والإغريق واليهود وغير اليهود[1].

وقد تولّى الحكم في منطقة فلسطين رجل متهوّر هو (هيرودوس الأكبر) بين سنتي (4-37م) ثمّ ما لبثت روما من سنة 6م أن أخضعت المنطقة كلّها لحكمها المباشر، فضمّت مقاطعتَي اليهوديّة في الجنوب والسامرة في الوسط في ولاية واحدة[2].

وبعد موت هيرودوس الأكبر خلفه أبناؤه الثلاثة من قبل الحكومة الرومانيّة، فاحتفظ أنتيباس (4 ق.م – 39م) أحد أبناء هيرودوس الأكبر بمقاطعته المشتملة على منطقة الخليل في شمال فلسطين، والتي عاصمتها طبريّة على مقرُبة من الناصرة، حيث نشأ عيسى (عليه السلام) ووقعت مشارف الشام في حصّة فيليب (4 ق.م- 34م)، وقد حكم أرخيلاوس منطقة اليهوديّة والسامرة (4 ق.م- 6م)، والتي تشمل منطقة بيت المقدس، وتولّى الإمبراطوريّة الرومانيّة من بعد أغسطس الروماني طيباريوس، ودام ملكه سنتين وعشرين يوماً، وقد خضعت منطقة فلسطين وما حولها تحت حكم هؤلاء لكثير من الاضطرابات، أمّا هيرودوس الأب فلم يكن محبوباً من الشعب نظراً لخضوعه للرومان من جهة ولطغيانه من جهة أخرى، وظلّ رجال الدين اليهودي يرون فيه الوثنيّ المحبَّ للهلنستية، وفي عهدهم هُدم الهيكل الذي بناه اليهود من عزرا، ثمّ جدّد بناءه على الأسس التي كانت له زمن سليمان[3]، على حدّ زعمهم.

[1] تاريخ الكنيسة في العهود الأولى، جون وليمر، دار الثقافة، 2019م، ص3.

[2] تحريف رسالة المسيح، ص26.

[3] المسيح عيسى بن مريم، ص31.

إنّ بناء سليمان (عليه السلام) للهيكل هو مجرّد أكذوبة من أكاذيب اليهود، والدليل على ذلك: أنّه لا يوجد مصدر موثوق يُثبت بناء سليمان (عليه السلام) لهذا الهيكل[1].

وقد عُرف هيرودوس بالعنف والشراسة، وكان لا يتردّد في قتل أي شخص تحوم حوله الشبهة أو يُهدّد بقلب نظام الحكيم، وكان يضطهد أعضاء السنهدرين (طائفة يهوديّة) بطريقة بشعة لمجرّد شعوره بشيء من النفوذ والسلطة منهم[2].

وعندما مات هيرودوس ترك مملكته منهارة اجتماعيّاً واقتصاديّاً، ومقسّمة بين أبنائه الثلاثة، وهذا ساهم في إشعال الثورات والاضطرابات بعد موته، وقامت في البلاد تحالفات وتيّارات وطوائف مختلفة من اليهود ما بين مغالية ومعتدلة، وقد أسهم ذلك كلّه في تدمير أورشليم سنة 70م.

وأمّا عهد أرخيلاوس الذي حكم اليهوديّة، فكان من السود بحيث كثرت شكوى اليهود ضدّه للإمبراطور الروماني الذي عزله وولّى مكانه بيلاطس البيزنطي الروماني الأصل والياً على اليهود سنة 26م، واستمرّت ولايته عشر سنوات ثمّ عُزل عنها، وكان على الجليل وقتها أنتيباس الذي كان أشدّ من أخيه، وهو الذب قتل يحيى بن زكريّا (عليه السلام)[3]، بسبب فتواه بتحريم زواجه من امرأة لا تحلّ له، ونقل صاحب العهد الجديد أنّ عيسى (عليه السلام) سمّاه بالثعلب لذكائه[4]، وفي تلك الفترة ترك كثير من الشعب اليهودي تمسّكه بالناموس وتأثروا باليهود الذين اندمجوا في الأمم الخاضعة للإمبراطوريّة والذين يفِدون إلى فلسطين والقدس للحج، حتّى قادة الدين أنفسهم تخلّوا عن مراكزهم وتمسّكهم بالناموس، وهو ما دعا الفرنسيين إلى المناداة بالعودة إلى الشريعة، وزاد من ترقّب الأسينيين للمسيح الموعود[5].

وحدثت اشتباكات عدّة بين الرومان ووفود الحجيج القادمة من القدس، وامتدّت الاشتباكات إلى أماكن كثيرة لاسيما بين السلطتين وبين جماعة سمُّوا ب(العيورين) تميّزوا بتعصّب وطني في رفض الوافد (المستعمر) الأجنبيّ ودفع الجزية، وتعصّب دينيّ في محاولة تطهير الهيكل من غير اليهود[6].

---

[1] الهيكل المزعوم بين الوهم والحقيقة، د. عبد الناصر قاسم الفرا، 2001م، ص60.

[2] المسيح عيسى ابن مريم، ص32.

[3] تاريخ مختصر الدول، غريغوريوس المطلي، دار الرائد اللبناني، بيروت، ط2، 2007م، ص26.

[4] المدخل إلى تاريخ العهد الجديد، القس فهيم عزيز، دار الجيل للطباعة، 2007، ص27.

[5] تاريخ الفكر المسيحي، القس حنا الخضري، دار الثقافة، دار الطباعة القومية، 2007م، ص101-110.

[6] تاريخ الفكر المسيحي، المصدر السابق، ص110 -112- 216.

وكانت منطقة فلسطين في حالة هيجان وثورة ضدّ السلطان الرومانيّة، كما ذهب إلى هذا أكثر الدارسين، لاسيما في عهد صيباريوس في حين يرى بعض الدارسين خلاف ذلك، وباستثناء الصّدوقيّين المتعاونين مع الإمبراطوريّة الرومانيّة (الاستعمار الروماني) كانت الأحزاب الأخرى ضدّ الرومان في نزاع مستمرّ عنيف[1].

ونتيجة لكلّ هذه الاضطرابات تعمّقت فكرة انتظار المخلّص الموعود، وهو ما صعد من حدّة الاضطهاد بينهم وبين الرومان[2].

وقد وُلد المسيح عيسى (عليه السلام) في أواخر عهد هيرودوس الأكبر، وعاصر فترة حكم أبنائه فيما بعد بكلّ ما في تلك الفترة من الأحداث.

كانت الحالة السياسيّ في فلسطين في عصر المسيح – ويحيى وزكريا (عليهم السلام) – من أسوأ ما يكون، وأبلغ منها في السوء الحالة الاجتماعيّة، وذلك بسبب السلطة المعلّقة التي كانت بيد الحكّام؛ حيث ضاع النظام مع القانون، فحدث تفاوت كبير بين الحكّام والمحكومين، فكانت الثروة والترف، والطغيان من ناحية، والفقر والهوان من ناحية أخرى، إضافة إلى الضرائب التي كانت تُجبى لحساب روما، وانحصر هدف رجال الدين في جمع الأموال، وخلا المجتمع من الترابط والتآلف، وانتشرت العصبيّة بين الناس، وظهرت الفوارق الطبقيّة[3].

رابعاً: الحالة الفكريّة:

كانت التعاليم الإلهيّة التي جاء بها عيسى (عليه السلام) مناسبة لهذه البيئة، وجاءت علاجاً لمشكلاتها، فبينما كانت تسيطر الأجواء الماديّة في ذلك المجتمع جاءت تعاليم عيسى (عليه السلام) روحيّة سامية لتعالج ذلك الاستغراق الماديّ[4].

كان عصر عيسى (عليه السلام) هو العصر الذي عاش فيه يحيى وزكريّا (عليهم السلام)، كما أنّ الأفكار والمعتقدات السائدة في تلك البيئة وما حولها، كان لها أثر كبير على العقيدة المسيحيّة بعد عيسى (عليه السلام)، وقد بيّنتُ ذلك في كتابي (المسيح عيسى ابن مريم الحقيقة الكاملة).

---

[1] تاريخ الفكر المسيحي، المصدر السابق، ص213- 215.

[2] تحريف رسالة المسيح، ص28.

[3] تحريف رسالة المسيح، المصدر السابق، ص28.

[4] النصرانية من التوحيد إلى التثليث، محمد أحمد الحاج، دار القلم، ط1، 1992م، ص35.

ومن هنا كانت ضرورة دراسة العصر أو البيئة التي ظهر فيها المسيح (عليه السلام)، لأنّها غذّت المسيحيّة بأفكار وفلسفات جديدة كان لها أثر في تلويث المسيحيّة بألوان مختلفة، وهذا العصر أو تلك البيئة كانت تنازعها عوامل ثلاثة، وهي: (الحضارة الإغريقيّة) التي شكّلت عقل الإنسان، (والدولة الرومانيّة) التي حددت له مؤسّساته التي يعيش بينها، وأُطُر الحياة في هذه المؤسّسات، ثمّ (الدين اليهوديّ) الذي جاءت به المسيحيّة أساساً لإصلاحه بعد أن صار عامل تخريب في العقل وفي أُطُر الحياة معاً[1].

خامساً: الطوائف اليهوديّة في عهد زكريّا (عليه السلام)، وعند ظهور المسيح (عليه السلام):

أهمّ فرق اليهود في هذه الفترة – مبعث المسيح (عليه السلام) – لدى الباحثين المعاصرين: السامريّون، والصدوقيّون، والفريسيّون، والقمرانيّون، والأسانيّون[2]، وكلّها ظهرت باستثناء السامريّين فرق ظهرت في الفترة الوسطيّة بعد الأسر البابلي، ويرى بعض الكتّاب أنّ معظم فرق اليهود التي ظهرت قديماً في الفترات المتأخّرة انقرضت دون أن تترك آثاراً مكتوبة كثيرة حتّى يعرفها المتأخّرون معرفة دقيقة، وأنّ أكثر فرقتين عُرف عنها شيء من التفاصيل هما: الفريسيّون والقمرانيون.

أمّا الفريسيون، فالمعرفة لهم جاءت عن طريق الحاخامات الذين حافظوا على كثير من أخبارها، وخاصّة في دواوين كتب التلمود، وأمّا المعرفة بجماعة القمرانيين، فتعود إلى اكتشاف مخطوطات البحر الميت، فصارت بهذا الاكتشاف من فرق اليهود المعروفة بعد أن ظلّت لحوالي ألف سنة لا يكان يُعرف عنها شيء.

ولكلّ فرقة من الفرق اليهوديّة السابقة مذهبها حول الاعتراف بأسفار العهد القديم، والأحاديث الشفويّة التي يزعمون نسبتها إلى موسى (عليه السلام) المتضمّنة في التلمود، أو إنكار بعض هذه الأصول، ورفض الأخذ بما فيها من أحكام وتعاليم، ولكلّ منها مذهبه في انتظار المسيح الموعود[3].

---

[1] مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، ص365.

[2] تاريخ الديانة اليهودية، محمد خليفة بن حسن أحمد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1998م، ص264- 286.

[3] البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، أبو الفضل السكسكي، دار الكتب العلمية، 2004م، ص90.

وفيما يلي عرض لهذه الفرق[1]، بما يُعرف بها وبمعتقداتها بشكل عامّ في الفترة التي بُعث فيها المسيح (عليه السلام).

1- السامريّون:

سُمّوا السامريّين نسبة إلى منظمّة السامرة في فلسطين، وكانت السامرة مدينة تمثّل عاصمة مملكة إسرائيل، ثمّ غلب اسم السامرة على شعب تلك الدولة، فصار يُطلق عليها اسم (سامريّون) وهي أقدم الفرق المذكورة آنفاً، ويُقال لها: الفرقة الشماليّة، لأنّ أتباعها كانوا في شمال فلسطين، وهم خليط من اليهود والآشوريّين كانوا يسكنون مملكة إسرائيل القديمة.

وكان يهود دولة يهوذا يعتبرون السامريّين فرقة خارجة عن اليهوديّة[2].

ومن أهمّ ما يتميّز به السامريّون في عقيدهم:

- إيمانهم بموسى (عليه السلام) وإنكارهم نبوّة من عداة من أنبياء بني إسرائيل.
- اعترافهم بالتوراة فقط ويضيفون إليها سفر يوشع بن نون (عليه السلام)، وينكرون ما عدا ذلك من الأسفار والكتب التي يعزوها اليهود إلى الأنبياء وغيرهم، كما لا يعترفون بالتلمود ولا يقبلونه.
- اعتقادهم أنّ الجبل المقدّس هو جبل (جرزيم)، وهذه كانت من أهم نقاط الاختلاف بين اليهود والسامريّين.

ويقال أيضاً أنّ السامريّين اعتقدوا بعض الاعتقادات الباطنيّة التي حرّموا إفشاءها لغيرهم، وهذه ملاحظة مهمّة، لأنّ أخبار النصارى تقول بأنّ الفرق النصرانيّة الباطنيّة التي يُقال لها الفرق: الغنوصية جاءت من قبل السامريين الذين ادّعوا اتّباع المسيح (عليه السلام)، على حدّ تعبير الأستاذة بسمة جستينة[3]، وهم يؤمنون بالخلاص الروحانيّ على يد المسيح المنتظر أو الرسول الموعود، ويعتقدون أنّهم وجدوهم جديرون

---

[1] اليهودية، أحمد شلبي، دار العلوم، القاهرة، ط3، 1988م، ص215 إلى 218، الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد الشرفي، دار المنار الإسلامي، 2007م، ص25- 28.

[2] النصرانية، محمد شاهين، ص35.

[3] تحريف رسالة المسيح، ص35.

باسم الإسرائيليّين، إذ هم الذين ينتسبون إلى يعقوب (عليه السلام)، وقد استمرّت السامريّة إلى يومنا هذا، وإن كانوا فرقة صغيرة في أرض فلسطين[1].

2- الصدوقيّون:

هم أتباع صدوق الذي يقول أهل الكتاب: إنّه كان يتولى الكهنة في عهد سليمان (عليه السلام)، وهم أقوى فئات اليهود بعد الأسر البابلي اقتصاديّاً وسياسيّاً بسبب نفوذهم في الهيكل.

وكانت علاقتهم مع الدول الأجنبيّة الحاكمة الفارسيّة، ثمّ الرومانيّة من أحسن العلاقات، وكانت تراعي مصالح الحكّام الأجانب في كثير من الأمور، وهم من أكثر يهود فلسطين تأثّراً بالفلسفة الهيلينيّة[2].

بل إنّ الكاهن الصدوقي جاسون (175 ق.م- 172 ق.م) الذي كان كاهناً أيّام المملكة السلوقيّة أراد أن يُحوّل بيت المقدس إلى مدينة هيلينيّة بتغيير اسمها إلى أنطاكية القدس، ويؤسس فيه معاهد ومدارس هيلينيّة، وكانت الصدوقيّة فرقة صغيرة من حيث عدد أتباعها، ولكنّها كبيرة من حيث ثرواتهم ونفوذهم في الاقتصاد والسياسة.

وأمّا عن عقائدهن فقد لاحظ بعض الباحثين أنّ هناك تشابهاً بين اعتقادات الصدوقيّين واعتقادات السامريّين، إلّا أنّ الصدوقيّين اهتموا كثيراً بالهيكل والعبادات التي تُقام فيه، لأنّهم كانوا مُشرفين عليه، ومن وجوه التشابه بينهم وبين السامريّين أنّ الصدوقيّين رفضوا كتب الأنبياء الذين جاؤوا من بعد موسى (عليه السلام)، وقالوا: إنّ التوراة وحدها مصدر اليهود، ولم يعترفوا بالتلمود، ولا بالروايات الشفويّة التي يرويها غيرهم، وهم لا يؤمنون بالبعث والآخر والثواب والجزاء فيها، وعرّفوا بالتساهل في الشرائع، ومع أنّهم رفضوا روايات اليهود الشفويّة وكتب الأنبياء، إلّا أنّهم كان لهم كتاب خاص دوّنوا فيه فتاواهم وقضاياهم وأحكامهم، وأظهروا الارتياب في أخبار آخر الزمان، وما يتعلّق بمبعث المسيح (عليه السلام)، وتجاهلوها ولم يُعجبهم اهتمام الطوائف بهذه الأمور، وعندما أرسل الله المسيح (عليه السلام) بادر الصدوقيّون إلى تكذيبه، وكانوا أشدّ أعداء المسيح ومنهم حنانيا وقياف[3].

---

[1] النصرانية، محمد شاهين، ص19.

[2] الهيلينية والهلنستينية: هي الفكر الناتج عن الثقافة والحضارة اليونية القديمة.

[3] مدخل إلى تاريخ المسيحية والعهد الجديد، محمد شاهين، مدونة التاعب، 2012م، ص13- 14.

3- الفريسيّون:

من أهمّ الفرق اليهوديّة، لأنّها تنتسب إلى اليهوديّة المتأخّرة – يهودية الحاخامات – التي يدين بها جلّ اليهود بعد مبعث المسيح (عليه السلام).

والفريسيّون كلمة آراميّة تعني المعتزلة، لأنّهم فارقوا الجماعة ولم يكونوا على رأس جمهور الأحبار، وقيل غير ذلك.

ويرى بعض الباحثين أنّ الفريسيّين كانوا جزءاً من الطائفة الحاصديّة[1]، ثمّ اعتزلوها[2].

وقد ملكوا مناصب نفوذ في مجلس السبعين الذي ترأس شؤون اليهود واليهوديّة منذ الأسر البابلي إلى تدمير الهيكل سنة 70م، وهذا ما يُفسّر قوّة تأثيرهم قبل مبعث المسيح (عليه السلام) بسبب المناصب القويّة التي تولّوها.

واستمرّ نفوذهم ولم ينقطع، ولمّا وُلد المسيح (عليه السلام) كان الفريسيّون من أقوى فئات مجلس السبعين، وزاد نفوذهم كثيراً أيّام الحكم الروماني عندما لم يشتركوا في الثورة الكبرى ضدّ الرومان من سنة 70 -66م، وبعد فشل اليهود وتدمير الهيكل اقتربوا من الرومان واستأذنوهم في تأسيس معه

فريسي لتعليم اليهوديّة في جنوب فلسطين، وأصبح هذا المعهد من أهمّ مراكز اليهوديّة بعد تدمير الهيكل، ومن أهمّ المجامع العلميّة، وذهب البعض إلى أنّ الفريسيّين كانوا هم الزعماء المفكّرين للشعب اليهودي زمن عيسى (عليه السلام)، وإن كان بعض الباحثين يرى أنّه لم يكن بين أفرادها من هم في رتبة الرؤساء والوجهاء[3].

وهم يؤمنون بالأنبياء والرسل المتأخّرين الذين جاؤوا بعد سيّدنا موسى وهارون (عليهما السلام)، ويؤمنون بالملائكة والشياطين والبعث والحساب والجزاء[4].

---

[1] الطائفة الحاصدية: أصحاب مذهب في الباطنية اليهودية وهو غنوص لا شك فيه، وقيل صحيح الاسم الحسدية بمعنة التقوية، لكننا نرى أنّ الحصدية مشتق من الحصيد بالآرامية والعربية، وهو أسافل الزرع الذي تبقى ولا يتمكن منها المنجل، والحصيديون هم البقية التي لم تتمكن منها ديانات ولا عادات الأغراب، انظر: الموسوعة النقدية للفلسفة، عبد المنعم حنفي، ص94- 95.

[2] الموسوعة التنفيذية للفلسفة اليهودية، عبد المنعم حنفي، مكتبة مدبولي، ط1، 1980م، ص95.

[3] النصرانية، محمد شاهين، ص 13- 14.

[4] قاموس الكتاب المقدس، بطرس وآخرون، مكتبة المشعل الإنجيلية، بيروت، 1964م، ص15.

واختلفوا في مسائل القضاء والقدر، ووقفوا منها موقفا شبيهاّ بموقف المعتزلة عند المسلمين[1].

وقد آمنوا بروايات شفويّة ينسبونها إلى سيدنا موسى (عليه السلام) تقابل التوراة وتفسيرها، وهي التلمود، لكنّهم مع إيمانهم هذا اعتقدوا أنّ رواية الفريسيّين هي الرواية الصحيحة، وهي التي يجب على اليهود الأخذ بها، واستوجبوا تقليد عامّة اليهود للحاخامات مراجع الدين، وأقاموها مقاماً أعلى من الكهنة، وقد كانوا في ذلك ينتظرون المسيح المخلّص في عالم الروح، أي مسيحاً ليس له سلطة الدولة[2].

ولم يرفض الفريسيّون الهيكل، وإنّما جعلوه أمراً ثانويّاً في دين اليهود من غير الضروريّات، ولم يكن ذلك تقليلاً لشأنه عندهم، ولكنّهم رأوا أنّ التمهيد لمجيء المسيح الذي ينظرونه لا يكون إلّا بالدراسة والعبادة وتطبيق الشرع في حياتهم اليوميّة، وكذلك رفضوا قبول بعض الفرق لضرورة الجهاد كأساس للاستعداد لمجيء المسيح.

وكانوا في عصر الميلاد ينقسمون إلى فريقين، فريق يتّبع الحكيم (هلل) الذي قدم إلى فلسطين من بابل، والفريق الآخر يتّبع الحكيم (شماي) وهو أقرب إلى التحرّج لدرجة رفض الراغبين في دخول الدين في غير اليهود، وقد رفضوا الهيلينية وعلى العكس من ذلك تشرّبوا قدراً كبيراً من مذهب الثنائية الفارسي ومذهب مناجاة الأرواح أو اتصال أزواج الأحياء بأرواح الأموات والعلم الأخروي[3].

ولعلّنا نلاحظ تأثير هذا على بولس فيما بعد حيث كان منهم.

وكانت العداوة بين الفريسيّين والنصارى الأوّلين عداوة شديدة، وكانوا من أهم الفرق اليهوديّة التي أعلنت محاربة المسيح (عليه السلام) بكلّ ما لديها[4].

4- القمرانيّون (جماعة وادي قمران):

وُجدت هذه الجماعة في وادي قمران على الشاطئ الشمالي الغربي من البحر الميّت، وهو ليس بعيداً عن بيت المقدس، بل هو أقرب مناطق البحر الميّت إلى فلسطين (القدس الشريف).

---

[1] المسيح عيسى ابن مريم، الصلابي، ص46.

[2] النصرانية، ص15.

[3] تحريف رسالة المسيح، ص39.

[4] المسيح عيسى ابن مريم، ص47.

وتتحدّث هذه الجماعة عن نفسها أحياناً بأنّها تُمثل جند الله المرابطين أو كتيبة الله، ويعتقدون القمرانيّون بموسى ويوشع بن نون (عليهما السلام)، ويبيتون على الاستعداد الدائم بالجهاد في سبيل الله، وكانوا يستفتحون برسول آخر الأيام الذين ينتصرون به على جميع الأمم، وأحياناً يُسمّون أنفسهم بالفقراء، ولذا زعم بعض الباحثين أنّ جماعة وادي قمران هي الجماعة الأبيونيّة[1].

وممّا يدعو إلى التحفّظ في هذه الأمور أنّ طوائف اليهود منذ القرن الثاني قبل الميلاد حتّى تدمير الهيكل الثاني سنة70م كانت كثيرة ومتنوّعة ومتنازعة، الأمر الذي يجعلنا لا نستطيع التأكيد على انتسابها للفرق التي يذكرها العلماء لاسيما والآسانيّون لم تُكشف لهم كتب حتّى تتمّ المقارنة، وكانت حرمة الشرع الموسوي لدى القمرانيّين عظيمة ولقد أوجبوا على جميع أتباعهم دراسة الشرع دراسة دقيقة وصحيحة على أيدي أئمّتهم، وهم يؤمنون بالملائكة والقضاء والقدر والبعث والحساب، ويوافقون في كلّ هذه الأصول الصحيحة التي دعا إليها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام، وهو خير دليل على أفضليّتهم على طوائف اليهود الآخرين وأمثالها في غير وادي قمران، ويبدو من خلال نصوصهم أنّه كان لهم أتباع كثيرون في بيت المقدس، وفي سائر مدن اليهود في فلسطين في ذلك الوقت.

وذهب بعض الباحثين أنّ جماعة النصارى الأولى التي كانت في بيت المقدس تحت رئاسة يعقوب العدل وبطرس ويوحنّا الحواري منذ رفع المسيح (عليه السلام) كانوا على صلة وثيقة بجماعة وادي قمران، والتشابه بين جماعة وادي قمران والجماعة النصرانيّة الأولى في بيت المقدس والشام كبير.

وأشار بعض الباحثين إلى التشابه بين يعقوب العدل – أمام النصارى الأول – بعد رفع المسيح والمعلم أو الهادي العدل المذكور في مخطوطاتهم، ومن المهم أن نذكر أنّ جماعة وادي قمران اعتبرت وجودها في البداية، وذلك كما يُصرّحون عملاً منهم يقول النبي أشيعاء[2].

---

[1] الجماعة الأبيونية: فرقة من اليهود المنتصرين، تواجدت في العصور الأولى للمسيحية، عرفوا بهذه التسمية العبرانية الأصل التي ربما تعني الأعمار لأنهم كانوا في نكرات اليهود وربما قيل هذا الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم بمعنى الفقراء إلى الله وكان يوصفهم يهوذا كانت الشريعة تلزمهم، انظر الموسوعة النفدية للفلسفة اليهودية، ص43.

[2] الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، حسن ظاظا، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، 1971م، ص221.

5- الأسانيون:

يرى بعض الباحثين أنّ هذه الفرقة كانت أيّام ظهور المسيح (عليه السلام) من أهمّ فرق اليهود وأكثرها نشاطاً، حتّى من يكتب الفكر الديني الإسرائيلي إبان ظهور النصرانيّة لا يخلو من ذكر الفرقة بين الفرق. ولكنّ المعلومات عن هذه الفرقة يكتنفها الغموض من البداية، لندرة من كتب عنهم من القدماء، فهي لا تتجاوز عشرين فقرة لدى المؤرّخ يوسيفوس، كذا الحال بالنسبة للكتابات النصرانيّة القديمة[1].

والشائع بين العلماء أنّ الكلمة (الآسينيّون) معناها الأطباء، وأنّ أصلها آراميّ هو كلمة (آسيا) بمعنى الطبيب المداوي، وكما يقول العرب (الآسي)، وهناك أقوال أخرى[2].

ويميل أكثر الباحثين إلى الربط بين كون الآسينيّين أطبّاء وبين المسيح ومعجزاته، ويبدو أنّهم ما كانوا يُبيحون للعالم الخارجي أن يعرف عنهم الكثير، والظاهر أنّه كانت لهم فلسفة دينيّة وأخلاقيّ' عملت فيها تيّارات أجنبيّة غير يهوديّ' منها الفلسفة الفيثاغورية، ومنها التنظيم الديني المجوسي الفارسي القائم على تقديس النور وربطه بالخير، ومنها رواسب وبقايا من العقائد المصريّة الفرعونيّة، لاسيما ما يتّصل منها بتقديس الشمس إلى جانب المعتقدات النابعة من كتب اليهود المقدّسة بطبيعة الحال[3].

وقد أشارت الدكتورة بسمة أحمد حستينة إلى أنّ النذريّين أو المنذورين الذين وهبوا أنفسهم ونذروها لحياة القداسة وخدمة الله لم يكونوا طائفة منظمّة مثل أصحاب النحل[4]، بل كانوا آحاداً متفرّقين وهؤلاء تكاثروا قبل مولد المسيح، لأنّه وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حسب التقويم العبري وهو الموعود الذي كان منتظراً لبعثة المسيح الموعود، وكان النبيّ يحيى (عليه السلام) يُعدّ علماً على أعلامهم[5].

وهؤلاء النذريّون كانوا أهل صلاح، فكانوا قوّة ذات بال في عصر الميلاد، وخاصّة أنّهم يؤمنون بأنّهم روّاد الدعوة إلى المسيح (عليه السلام)، ويترقّبون ظهوره دون أن تُحيط بهم طائفة معيّنة أو مذهب محدود[6].

فهذه أهمّ الفرق الرئيسيّة لليهود في عهد زكريّا ويحيى وظهور المسيح (عليه السلام).

---

[1] الفكر الديني أطواره ومذاهبه، حسن ظاظا، ص221.

[2] الفكر الديني أطواره ومذاهبه، ص221.

[3] الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، ص221- 235.

[4] أصحاب الديانات والمناهج العقدية لأمة خاصة سواء كانت حقاً أو باطلاً.

[5] تحريف رسالة المسيح، ص42.

[6] تحريف رسالة المسيح، المصدر السابق، ص43.

سادساً: الهيكل المزعوم:

قال الدكتور عبد الناصر قاسم: إنّ بناء سليمان (عليه السلام) للهيكل هو مجرّد أكذوبة من أكاذيب اليهود، والدليل على ذلك: أنّه لا يوجد مصدر موثوق به يثبت بناء سليمان (عليه السلام) لهذا الهيكل، فالقرآن الكريم قصّ علينا قصّة سليمان مع بلقيس والهدهد والنملة والجن، وبعض هذه الأحداث تبدو أقلّ أهميّة من الهيكل. فلماذا لم يتكلّم القرآن عن الهيكل إذا كان بهذه القدسيّة والجلالة التي يذكرها اليهود؟

ونبيّن معنى الهيكل فهي: كلمة هيكل في اللغة العبرية: تعني: (بيت همقداش) أي بيت المقدس، وتعني (هيخال) أي البيت الكبير، وتعني (هرهابيت) أي: جبل البيت، وتعني (بيت يهو) بيت الإله يهوه، ويهوه هو إله اليهود، وهذا يعني أنّ الهيكل هو بيت الإله، وحسب الرواية اليهوديّة وحسب آراء بعض المؤرّخين قام سليمان (عليه السلام) ببناء الهيكل فوق جبل موريا أو فوق هضبة الحرم، وللهيكل منزلة خاصّة في قلوب وعقول اليهود وحسب ما يزعمون يُعدّ الهيكل أهمّ مكان للعبادة، ويدّعون أنّ سليمان (عليه السلام) بناه لهم لديانتهم التي يدعونها، وسليمان (عليه السلام) يبرأ منهم وممّا يفترون عليه وعلى الله[1].

إنّ موضوع الهيكل قمتُ بدراسة مفصّلة حوله وحول جذوره التاريخيّة في كتابي (الأنبياء الملوك داود وسليمان عليهما السلام وهيكل سليمان المزعوم)، فهناك تناقض واضح في روايات الأسفار التي تحدّثت عن الهيكل وعن تحديد مكان بيت الله، ممّا يؤكّد أنّ قصّة الهيكل من أوّلها إلى آخرها لا يُمكن تصديقها، كما أنّ كثيراً من المؤرّخين يُشكّك في صحّة ما رُوي عن الهيكل، لأنّ الكتب المقدّسة لم تُكتب إلّا بعد عهد موسى (عليه السلام) بمئات السنين، حيث تعرّضت خلالها لكثير من التحريف والتبديل باعتراف الكثير من رجال الدين اليهوديّ أنفسهم[2].

وكان وضع اليهود الديني، وسلطان الكهنة في هذا العصر ينتظم انتظاماً طبقيّاً، حيث يتكوّن من طبقة عليا هم رجال الدين، وطبقة دنيا، وهم الكتبة وفقهاء الشريعة، أمّا عن طبقة رجال الدين فكانت تعمل على انتظام العبادة في المعبد، وتُشرف على تقديم الذبائح، وإن كانت لا تعتني بدراسة الشريعة أو تعاليمها، بل توجّه كلّ ثمارها إلى حفظ النصوص وممارسة الطقوس وخاصة في الحفلات السنويّة التي تفِدُ فيها على

---

[1] الهيكل المزعوم بين الوهم والحقيقة، ص60.

[2] الأنبياء الملوك، الصلابي، ص629.

القدس أفواجاً من الحجيج، وكانوا حريصين على تأثيرهم في الشعب، إلّا أنّهم كانوا في نفس الوقت تابعين للرومان خاضعين لحكمهم[1].

وأمّا لكتبة أو فقهاء الشريعة فكانوا يُسجّلون الأشعار الدينيّة لطالبيها، وانكبّوا على شرح الكتاب المقدّس أحياناً، وهم في عملهم هذا – شرح الكتاب المقدّس – لم يسلموا من التأثّر بالمذاهب الثنويّة[2]، والنظريات اليونانيّة في الإله والكون والإنسان[3].

بل إنّ بعض الكتّاب ذهبوا إلى أنّهم كانوا مسؤولين عن التفسيرات الدقيقة للتوراة، ولم يكن لهؤلاء الكتَبَة نصيب من وظائف الهيكل – أي المعبد –، وكانوا جميعاً من الفريسيّين إذ هم الذين يعترفون بالأسفار الحديثة ويعتمدون عليها في العبادات والمعاملات، ولما وُلد المسيح كانت وظائف الهيكل محصورة في مجلس (السنهدرين)[4]، وقد سُلب هذا المجلس في عصر المسيح حقّ الحكم في الجرائم الكبرى، وكانت أحكامه في تلك الأيّام معلّقة على إقرار الحاكم الروماني يُقرّها أو ينقضها، وكان موقفهم ممّا يُشاع في ذلك الوقت عن قرب المسيح المنظر هو عدم الترحيب بذلك لما في ذلك من الاعتراف بفساد الزمن كلّه، وفي هذا اتهام لهم بالفساد[5].

سابعاً: حديث القرآن الكريم عن زكريّا ويحيى (عليهم السلام):

إنّ زكريّا ويحيى (عليهم السلام) من آخر أنبياء بني إسرائيل، ولم يأت بعدهما إلّا عيسى (عليه السلام)، وتتداخل قصّة زكريّا ويحيى في القرآن، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، كما تشترك قصّتهما مع قصّة مريم وابنها عيسى (عليه السلام)، لما بين الجميع من القرابة العائلين، والاشتراك في وقوع الأحداث، وسنتكلّم هنا عن زكريّا ويحيى وعلاقة زكريّا (عليه السلام) بمريم (عليها السلام).

---

[1] النصرانية، محمد شاهين، ص20– 21.

[2] المذاهب الثنوية: الثنوية هم الذين يقولون بأصلين للوجود، مختلفين تمام الاختلاف، كل منهما له وجود مستقل في ذاته، ودون هذين الأصلين لا يمكن فهم طبيعة الكون الذي تتصارع فيه القوى المتضاربة، التي ينتمي بعضها إلى أحد المبدأين، وينتمي سائرها إلى المبدأ الآخر، مما يعني أن حقيقة الوجود تنطوي على المبدأ الآخر، مما يعني أن حقيقة الوجود تنطوي على انقسام داخلي وتقابل ضروري دائم بين أصلين، لكل منهما قوانينه وأطواره الزمنية الخاصة به، وقد ظهر هذا المذهب منذ القديم لدى الإغريق فأثّر على أعظم فلاسفتهم كأفلاطون وأرسطو.

[3] تحريف رسالة المسيح، ص43.

[4] السنهدرين: كلمة من أصل إغريقي معناها الاجتماع أو المحكمة وأُطلقت على محكمة اليهود.

[5] تحريف رسالة اليهود، ص44.

ورد اسم زكريّا (عليه السلام) سبع مرّات في القرآن، ورد في سورة الأنعام ضمن أسماء مجموعة من الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام)، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنعام: 85].

وأشارت سورة الأنبياء إلى دعاء زكريّا أن يرزقه الله ولداً، واستجاب الله له، حيث أصلح له زوجه، ورزقه يحيى في الآيتين: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 89-90].

وذكر في سورة مريم في بداية السورة حيث أشارت إلى دعائه لربّه أنّه يرزقه الولد، وقد بشّرته الملائكة بيحيى وذكرت له الآية على ذلك وفي الآية (1-11).

وذكر في سورة آل عمران المدينة ثلاث مرّات، وذلك أثناء الحديث عن حمل أمّ مريم بها، ثمّ ولادتها، وكفالة زكريّا لها، ولمّا رأى زكريّا كرامات الفتاة مريم (رضي الله عنها) طلب من الله أن يُكرمه بالولد واستجاب الله له، وبشّرته الملائكة بيحيى وهو قائم يصلّي في المحراب، وأزالت استغرابه، وقدّمت له الآية على ذلك[1]، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى. وورد اسم يحيى (عليه السلام) خمس مرّات في القرآن، في نفس السور الأربعة التي ورد فيها ايم أبيه زكريّا: الأنعام، والأنبياء، ومريم وآل عمران.

إنّ ما عرضه القرآن من قصّة زكريّا ويحيى (عليهما السلام)، هو تأثّر زكريّا لما رأى من الكرامات عند مريم البتول، حيث دعا ربّه، وذكر له شيخوخته وحاجته للولد، واستجاب الله له، وأرسل الملائكة تبشّره بيحيى، وهو يصلّي في المحراب، وأزالت استغرابه بالإشارة إلى قدرة الله المطلقة على فعل ما يريد، وقدّمت له آية معجزة يقدّمه لقومه، ولمّا وُلد يحيى وصار شابّاً أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوّة[2]، وسيأتي الحديث مفصّلاً عن زكريّا ويحيى كما جاء ذلك في القرآن الكريم.

[1] القصص القرآني، الخالدي، دار القلم، 2009م، (4/ 109).

[2] القصص القرآني، المصدر نفسه، (4/ 110).

المبحث الثاني:

قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة آل عمران:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران: 33-44].

سورة آل عمران ثاني سور السبع الطِّوال، وهي تشترك مع سورة البقرة في الفضل كما في صحيح مسلم، قال ﷺ: اقرؤوا القرآن، فإنّه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، واقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنّهما تأتيان يوم القيامة كأنّهما غمامتان، أو غيايتان[1]، أو كأنّهما فِرقان[2] من طير صواف[3].

[1] غيايتان: أي تظل الإنسان.

[2] كأنهما فرقان: قطيعان أو جماعتان.

[3] من طير صواف: جمع صافّة، أي: باسطة أجنحتها.

وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على أمور مهمّة في حياة الناس، منها:

ـ ركن العقيدة وإقامة الأدلّة والبراهين على وحدانيّة الله (عزّ وجل).

ـ ومنها التشريع فيما يتعلّق بالجهاد والمغازي وفريضة الحج وأمور الربا وحكم مانع الزكاة[1].

ـ وإذا كانت سورة البقرة قد تحدّثت عن حياة اليهود، فبيّنت حالهم ليحذّرهم المسلمون فهذه السورة تتحدّث عن النصارى، للتعرّف على الحقّ من الباطل، فساقت أسرة آل عمرن وتحدّثت عنهم وعن مريم (عليها السلام)، وزكريّا الذي كفلها، وعن أحداث ووقائع تاريخيّة وعقائديّة لا يوجد في القرآن الكريم بهذا الصفا والدّة والحقيقة التي يبحث عنها الناس.

وتوسّعت السورة في مجادلة النصارى، وإبطال مذهبهم ونفي الشبهات التي تضمّنتها معتقداتهم ببيان فضل التفرقة بين عقيدة التوحيد الخافنة وبين عقائدهم[2].

والسورة مرتبطة بحديثَين في السيرة النبويّ:

ـ قدوم وفد نجران على رسول الله ﷺ.

ـ غزوة أحد[3]، وهي من الغزوات الخالدة التي خلّدها الله في القرآن الكريم.

إنّ الآيات الكريمة المتعلّقة بقصّة زكريّا وكفالته لمريم (عليها السلام) تحدّثت عن بيان حال المؤمنين بربّهم سواء في حديثها عن امرأة عمران مع ربّها ومناجاته في شأن وليدتها، وفي حديث مريم مع زكريّا (عليه السلام، وفي دعاء زكريا ونجواه لربّه، وإليك تفصيل الآيات الكريمة:

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 33-34].

تفسير الآيات الكريمة:

---

[1] انظر: الخارطة القرآنية، د. مشعل الفلاحي، ص31، مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، ص32.

[2] مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، 2021م، ص33.

[3] الخارطة القرآنية، د. مشعل الفلاحي، دار القلم، ط1، 2022م، ص31.

1- قال ابن كثير رحمه الله:

يُخبر تعالى أنّه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض، فاصطفى آدم (عليه السلام)، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة، وعلّمه أسماء كلّ شيء، وأسكنه الجنّة، ثمّ أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة، واصطفى نوحاً (عليه السلام)، وجعله أوّل رسله إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان، وأشركوا في دين الله ممّا ينزل به سلطاناً، وانتقم له لما طالت مدّته بين ظهراني قومه يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلّا فراراً، فدعا عليهم، فأغرقهم الله في آخرهم، ولم ينجُ منهم إلّا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به، واصطفى آل إبراهيم، ومنهم سيّد البشر وخاتم النبيين على الإطلاق محمّد ﷺ، وآل عمران، والمراد هنا: هو والد مريم بنت عمران أمّ عيسى ابن مريم (عليه السلام)[1].

2- وقال محمّد رشيد رضا رحمه الله:

اختارهم وجعلهم صفوة العالمين، وخيارهم يجعل النبوّة والرسالة فيهم، فآدم أوّل البشر ارتقاءً إلى هذه المرتبة، فإنّه بعدما تنقل في الأطوار إلى مرتبة التوبة والإنابة اصطفاه الله تعالى واجتباه، قال في سورة طه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: 122]، فكان هادياً مهديّاً، وكان في ذرّيته من النبيّين والمرسلين من شاء الله تعالى، وأمّا نوح (عليه السلام) فقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم، فانقرض من السلائل البشريّة من انقرض، ونجا هو وأهله في الفلك، فكان بذلك أباً ثانياً للجمّ الغفير من البشر، وكان هو نبيّاً مرسلاً، وجاء في ذرّيته كثير من النبيّين والمرسلين، ثمّ تفرّقت ذريّته، وانتشرت، وفشت فيهم الوثنيّة حتّى ظهر فيهم إبراهيم (عليه الصلاة والسلام)، نبيّاً مرسلاً، وخليلاً مصطفى، وتتابع النبيّون والمرسلون من آله وذرّيته، وكان أرفعهم قدراً وأنبههم ذكراً آل عمران قبل أن تُختم النبوّة بولد إسماعيل (عليه الصلاة والسلام)[2].

3- قال السعدي رحمه الله:

لله تعالى من عباده أصفياء يصطفيهم ويختارهم، ويمنّ عليهم بالفضائل العالية والنعوت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة والخصائص المتنوّعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوى عليه من كمال

---

[1] تفسير ابن كثير، ابن كثير، دار ابن حزم، ط1، 2000م، (2/ 26).

[2] تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار النوادر للنشر والتوزيع، 2013م، (3/ 288).

الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأنّ الفضل والخير تسلسل في ذراريهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا من أجل منّته وأفضل مواقع جوده وكرمه[1].

4- من هم آل عمران؟

مريم هي ابنة عمران بنصّ آيات القرآن: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12].

وورد اسم عمران ثلاث مرّات في القرآن الكريم، مرّتين في آل عمران، ومرّة في سورة التحريم، وهناك شخصان من بني إسرائيل، كلّ منهما اسمه (عمران) وبينهما فترة زمنيّة طويلة تمتدّ عدّة قرون. وهو أكثر من اسم:

- عمران الأوّل: هو والد نبيّ الله موسى ونبي الله هارون (عليهما السلام)[2].

والدليل على أنّ والد موسى اسمه عمران ما أخرجه الحاكم عن أنس بن مالك (رضي الله عنه)، عن النبيّ ﷺ قال: موسى بن عمران صفيُّ الله[3].

وما أخرجه مسلم عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما)، قال رسول الله ﷺ: مررت ليلة أُسريَ بي على موسى بن عمران (عليه السلام)[4].

فنسب رسولنا ﷺ موسى (عليه السلام) إلى أبيه عمران.

وقد أشار القرآن إلى أسرة عمران الأوّل: امرأته وتصرّفها عند ما أنجبت ابنها موسى، وهارون شقيق، فهؤلاء الخمسة الصالحون هم أفراد أسرة عمران، ولا يدري هل كان لعمران أولاد غير المذكورين في القرآن أم لا؟

- عمران الثاني: هو والد مريم (رضي الله عنها)، حيث أشار القرآن إلى حمل امرأته بمريم، ونذرها لله، كما أشار إلى شقيق لمريم اسمه (هارون) وهو غير هارون النبي شقيق موسى (عليه السلام) وذكر رسول الله ﷺ أنّ عيسى ويحيى (عليهما السلام) هما أبناء الخالة، وهذا معناه أنّ زكريّا (عليه السلام) كان متزوّج من أخت مريم، وهذا معناه أنّ أسرة عمران الثاني المذكورة في القرآن والحديث مكوّنة من خمسة

---

[1] تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، 2007م، ص142.

[2] المسيح عيسى ابن مريم، ص70.

[3] أخرجه الحاكم في مستدرك الحاكم على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، (576/2).

[4] صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م، رقم 165، الأحاديث الصحيحة رقم 182.

أشخاص أيضاً، عرفنا أسماء ثلاثة منهم وهم عمران الأب، وهارون الابن، ومريم الابنة، أمّا اسم امرأة عمران وابنته الأخرى فهذا ممّا لم يُصرّح به القرآن.

وإذا كان عمران الأوّل قد عاش في مصر في زمن الفراعنة في بداية تاريخ بني إسرائيل، فإنّ عمران الثاني قد عاش في بيت المقدس في آخر تاريخ بني إسرائيل وبينهما عدّة قرون[1].

أمّا من هم آل عمران الذين اصطفاهم الله على العالمين؟

هل عم آل عمران الأوّل والد موسى أم هم آل عمران الثاني والد مريم؟

ذهب بعض العلماء إلى أنّ (آل عمران) هم ذريّة موسى وهارون ابنَي عمران الأوّل (عليهما السلام)، اللذين ظهر منهما معظم أنبياء بني إسرائيل.

وذهب آخرون إلى أنّ (آل عمران) هم مريم وابنها (عليه السلام) وأمّها وأخوها (رضي الله عنهم).

إنّ الآية الكريمة بيّن الله سبحانه وتعالى فيها:

وحدة الإنسانيّة التي ما كان يسوه معها خلاف إلّا ممّن ضلّ سبيل الهداية، ووحدة النبوّة والرسالة الإلهيّة التي وُجدت بها شريعته تعالى، وما كان يسوع بعد هداية الله تعالى خلاف إلّا إذا كان الضلال، ثمّ بيّن سبحانه من يجتبيهم ومن يصطفي ويحب عباده وكيف يحبّونه هم ويُخلصون لذاته العليّة بأن يُسلموا وجوههم له سبحانه وتعالى ويُحرّرون أولادهم لعبادة الله تعالى[2].

وآل عمران اصطفاهم الله وهم من آل إبراهيم، ولكنّهم خُصُّوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام، تشريفاً وتكريماً، ولأنّ السياق سوف ينتقل إلى الحديث عنهم شيء من التفصيل[3].

كان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمنه، وكان رجلاً صالحاً وكانت له زوجته صالحة طيّبة طاهرة خيّرة نقيّة وفيّة مطيعة لزوجها ومطيعة لربّها، وكان من نتائج هذا الزواج المبارك، إكرام المولى (عزّ وجل) لهم من مريم (عليها السلام)[4].

---

[1] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 168).

[2] زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 1987م، (4/ 597).

[3] المرأة في القصص القرآني، د. أحمد الشرقاوي، دار السلام، 2021م، (2/ 597).

[4] المرأة في القصص القرآني، المصدر السابق، (2/ 597).

5- ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

أي عالم زمانهم، أي: اصطفى كلّ واحد منهم على عالمي زمانه، وقد فضّلهم بما آتاهم الله من النبوّة والكتاب في معظمهم وفي مريم بحملها وولادتها ممن غير ممارسة بشر، مع طهارتها وانقطاعها لعبادة ربّها، وإمدادها في مُصلّاها برزق الله في غير أوانه، واختيارها أن تكون أمّاً لعيسى الذي شاء الله أن يكون بغير أب[1].

6- ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾:

أي: ذرّية يشبه بعضها بعضاً في الخير والفضيلة والنيّة الصالحة والعمل الصالح والإخلاص والتوحيد التي كانت سبباً في اصطفائهم، وهذه الذريّة التي ذكرها الله في سياق الكلام عن إبراهيم بقوله تعالى﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: 84-87].

7- ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

أي: سميع لأقوال العباد، عليم بضمائرهم وأفعالهم، يصطفي من خلقه من يعلم استقامته قولاً وفعلاً، وسميع لكلّ قول مجيب لصالح الدعاء وخالص الرجاء، عليم بأحوال العباد، مطّلع على مكنون الفؤاد، وفي الآيتين توجيه وإرشاد إلى وجوب اتّباع الأنبياء والاقتداء بهم، والسير في طريقهم ففيه الصلاح والفلاح[2].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35].

ذكر الله نشأة عيسى ببيان نشأة أمّه، بياناً لبطلان ما يعتقده النصارى فيه من أنّه ابن الله تعالى عن ذلك، وأسلوب القرآن عند ردّ وإبطال عقيدة، أنّ يبيّن أصلها فينقضه لتُنتقض هي تبعاً، فالجدال في فروع أصولها

---

[1] تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاتة، دار غريب، القاهرة، ط2، 2000م، (2/ 1557).

[2] المرأة في القصص القرآني، (2/ 599).

خاطئة لا يُوصل إلى حق، فيزعمون أنّ عيسى ابن الله تعالى، وعيسى له أمّ وأمّه مريم، ومريم لها أب، ولهما أمّها وآباء إلى آدم، فمن أين أتت نُبوّته لله؟ ولذا ذكر الله الزوجيّة بين امرأة عمرا وعمران، فقال.

1- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾:

إشارة إلى الأبوّة والأمومة لمريم، وذكر الله اسم مريم، ولم يذكر اسم أمّها، لأنّ نسب عيسى يرجع إلى مريم ثمّ أبيها، لا يرجع إلى أمّها، والناس تُنسب إلى آبائهم، واسم أمّ مريم: حنّة، مريم بنت حنّة، وإنّها ذكرت مريم، لأنّ عيسى نُسب إليها لعدم الأب، ولما كان لمريم أب تُركت الأمّ حنّة وذُكر الأب عمران، ولما كانت أمّ مريم لا أثر لها في نسب عيسى قال ﴿امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾[1].

وقد ذكر الله الأحوال التي اكتنفت الحمل بالبتول مريم وولادتها وتربيتها، ويُلاحظ القارئ أنّ العبادة والنسك أظلّاها وهي جنين في بطن أمّها إلى أن بلغت مبلغ النساء، واصطفاها الله لأمر جليل خطير فأمّها وهي حامل بها نذرت ما في بطنها لمّا تحرّك الحمل في أحشائها أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، منقطعاً لعبادته وخدمة بيت المقدس، والمحرّر: هو الخالص لله (عزّ وجل) لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، ولا يشغله شاغل عن عبادة الله تعالى[2].

فقد أرادت امرأة عمران أن يكون ما في بطنها منذوراً لله، موقوفاً لعبادة الله خالصاً لدين الله، محرّراً من كلّ قيد يُقيّده في هذه الحياة، وأرادت لمولودها أن يُحقّق الحريّة الحقيقيّة، وذلك بتحريره من قيود الذل والاستعباد المعنويّ وألّا يتقيّد بالأهواء والشهوات والملذّات، وألّا تستعيده الدنيا وما فيها، وألّا ينشغل شاغل عن عبادة الله تعالى[3].

فقد أرادت امرأة عمران أن يكون ما في بطنها منذوراً لله، موقوفاً على عبادة الله خالصاً لدين الله، محرّراً من كلّ قيد يقيّده في هذه الحياة، وأرادت لمولودها أن يعرف الحريّة الحقيقيّة، وذلك بتحريره من قيود الذلّ والاستعباد المعنويّ وألّا يتقيّد بالأهواء والشهوات والملذّات، وألّا ينشغل بما فيها عمّا أوجبه الله عليه وكلّفه

---

[1] التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز الطريفي، مكتبة دار المباهج، ط1، 1438هـ، (2/ 582).

[2] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مؤسسة الرسالة، ط1، 2006م، (4/ 66).

[3] المسيح عيسى ابن مريم، الصلابي، ص74.

به، وأن يستعلى على كلّ القيود التي تقيّده وتُعيق عبادته فإن كان المؤمن هكذا فهو الحرّ المُحرّر الخالص لله، وإن لم يكن كذلك فهو عبد الدنيا والشهوة وأسير الهوى والضرورة[1].

وهذه القصّة عن جدّة عيسى (عليه السلام) من أمّه تكشف لنا عن قلب (امرأة عمرن) أمّ مريم، وما يعمُره من إيمان ومن توجّه إليها ربّها بأعزّ مما تملك، وهو الجنين الذي تحمله في بطنها خالصاً لربّها، محرّراً من كلّ قيد ومن كلّ شرك ومن كلّ حقّ لأحد غير الله سبحانه، والتعبير عن الخلوص المطلق بأنّه تحرر تعبير موحٍ، فما يتحرّر لاحقاً إلّا من يُخلص لله ويفرّ إلى الله بحملته وينجو من العبوديّة لكلّ أحد ولكلّ شيء ولكلّ قيمة، فلا تكون عبوديّته إلّا لله وحده فهذا هو التحرّر إذن، وما عداه عبوديّة وإن تراءت في صورة الحريّة. فما يتحرّر إنسان وهو يدين لأحد غير الله بشيء ما في ذات نفسه أو في مجريات حياته أو في الأوضاع والقيم والقوانين والشرائع التي تصرف هذه الحياة، لا تحرر وفي قلب الإنسان تعلّق أو تطلّع أو عبوديّة لغير الله، فالصورة الوحيدة للتحرّر هي تحقيق التوحيد والعبادة الخالصة لله، كما بيّنت جدة عيسى (عليه السلام) في مناجاته ودعائها للسميع العليم.

2- ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾:

وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران، بأن يتقبّل منها نذرها – وهو فلذة كبدها – ينمّ عن التوجّه الخالص لله تعالى والتحرّر من كلّ قيد، والتجرّد إلّا ابتغاء قبوله ورضاه[2] ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

- ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾؛ السميع لكلّ قول، المجيب لصالح الدعاء، والعليم بكلّ قصد وفعل[3].
- ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾؛ لتضرّعي ودعائي وندائي.
- ﴿الْعَلِيمُ﴾؛ بما في ضميري وقلبي ونيّتي.
- ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾؛ لجميع المسموعات التي من جملتها تضرّعي ودعائي.

﴿الْعَلِيمُ﴾؛ لكلّ المعلومات التي من زمرتها ما في ضميري لا غير[4].

---

[1] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 174).

[2] في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط32، 2003م، (1/ 392).

[3] المرأة في القصص القرآني، (2/ 601).

[4] المرأة في القصص القرآني، (2/ 601).

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36].

كانت تنتظر ولداً ذكراً، فالنذر للمعابد لم يكن معرفاً إلّا للصبيان، ليخدموا المعبد وينقطعوا للعبادة والتبتّل.

1- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾:

فها هي تتّجه بدعاء حزين إلى ربّها وكأنّها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمّة.

وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة مناجاة من يشعر أنّه منفرد بربّه ويحدّثه بما في نفسه وبما بين يديه ويقدّم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً، وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربّهم، حال الودّ والقرب والمباشرة والمناجاة البسيطة، العبارة التي لا تَكلّف فيها ولا تعقيد، مناجاة من يحسّ أنّه يُحدّث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً[1].

- ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ والهدف من هذه الجملة التأكيد على علم الله بما وضعت، وعلم الله بما في بطنها عندما نذرت نذرها، وعلم الله بما ستحمل وتضع قبل أن تحمل وتضع.

إن الله هو الذي قدّر أن يرزقها أنثى، لحكمة يريدها، وهو العالم بذلك، وعلم الله شامل لكلّ شيء محيط بكلّ شيء، يعلم الأشياء قبل وقوعها، ويوجدها وفق علمه بها، فمعنى الجملة ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾؛ الله أعلم بالمولود الذي وضعته، وأنّه أنثى، وأنّه جاء على غير ما توقعته وأرادته[2].

2- ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾:

وهي أيضاً ليست من كلام امرأة عمران، وإنّما هي تقرير لحقيقة قاطعة أراد الله بيانها في هذا الموضوع، وهذه الجملة خاصة بالسياق الذي وردت فيه، وهو نذر ما في بطن امرأة عمران للعبادة والخدمة والوقف، والمعنى: ليس الذكر كالأنثى في هذا المجال، لأنّ خدمة بيت الله، والتضرّع لعبادة الله في بيت الله لا يتساوى فيه الذكر والأنثى، فهو يحتاج إلى مزيد من الجهد، والقوّة والجلد والتحمّل والصبر، يبذل فيه صاحبه كثيراً من

---

[1] في ظلال القرآن، (1/ 393).

[2] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 1176).

الطاقة البدنيّة، وليس الذكر كالأنثى في هذا المجال، فالأنثى قد لا تقدر على أداء ذلك بصورة جيّدة، فالذكر أكثر طاقة وقوّة وجلَداً من الأنثى.

ولا نرى أنّ تُعمّم هذه الجملة: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ لتشمل جميع مجالات الحياة بين الرجال والنساء، ولا نرى استنطاق هذه الجملة لتدلّ على التفضيل المطلق للرجال على النساء في كلّ شيء.

ولا يوجد نصّ صريح في تفضيل الذكور على الإناث تفضيلاً ذكوريّاً، بل القرآن صريح في اعتماد التقوى أساس التفاضل والتفضيل والتكريم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]؛ سواء كان ذكراً أم أنثى، واللطيف في المعنى اللغويّ لكلّ من الذكر والأنثى قائم على أساس التفريق المعنوي بينهما.

وإنّ معنى (الذكر) قائم على الشدّة والقوّة واليبوسة، ومعنى (الأنثى) قائم على الليونة والنعومة، فالله حكيم في خلق كلّ منَ الذكر والأنثى، فلم يجعلهما متماثلين في كلّ شيء، وفي موضوع الشدّة والصلابة جعل الذكر أقوى من الأنثى. والذكر هو الأشدّ والأمتن والأقوى والأصلب، ليؤدّي رسالته في الحياة. وإن الأنثى هي الأكثر ليونة وسهولة، هي المتكسرة الرفيقة اللطيفة لتؤدّي وظيفتها وتكون مطلوبة مرغوب فيها، وصدق الله القائل ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾[1].

3- ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾:

(مريم) اسم الأنثى الوحيد المذكور في القرآن؛ أمّا النساء الأخريات فإنّهن يُذكرن بألقابهنّ وكُناهن، فيُقال: (أمّ موسى) و(أخت موسى) و(امرأة فرعون) وهكذا[2].

وإن معنى (مريم) في لغتهم – كما جاء – العابدة وهي تتمنّى أن تكون وليدتها عابدة خاشعة لربّ العالمين، وإذا كانت سمّتها ساعة ولادتها بهذا الاسم، فهذا يدلّ على امتلائها ووعيها بالغاية التي تريدها من مولودها منذ أن كانت تحنّ للولد، وتتضرّع إلى الله أن يرزُقها إياه، ولهذا عجلت، وأعلنت اسمها تفاؤلاً وأملاً[3].

---

[1] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 176).

[2] القصص القرآني، المصدر السابق، (4/ 176).

[3] آباء وأبناء ملامح تربوية في القرآن، فاروق حمادة، الدار الشامية، ط1، 1900م، ص235.

وفي هذه التسمية أشارت إلى عزمها على إمضاء نذرها ورجاءها، أن يكون عند الله مقبولاً، والسعي من التقرّب إليه سبحانه وتعالى، وإظهار أنّها غير راجعة في نيّتها، وإن كان ما وضعته أنثى، وأنّها وإن لم تكن حليفة بسدانة بيت المقدس فلنكن من العابدات فيه[1].

4- ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾:

ما زال الحديث موصولاً عم مناجاة امرأة عمران لربّها وتضرّعها إليه أن يقبل وليدتها ويجعلها مباركة، ويحفظها من الشيطان الرجيم، فالمولى سبحانه وتعالى خير حافظ، وهو سبحانه أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وفي هذه الدعوة التي توجّهت بها امرأة عمران لربّها إشارة إلى حرصها ورجائها في أن يحفظ الله لها بنتها ويرعاها حتّى تشبّ وتكبر وتكون لها ذريّة، ولقد استجاب الله تعالى لها[2].

وعندما تنظر في الآيات التي سجّلت دعاء امرأة عمران فإنّنا ندل منها صفاء روحها، وعظمة إيمانها، وحرارة اتصالها بالله، يظهر ذلك في قوله: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ و(ذرّيتها) محصورة في ابنها عيسى (عليه السلام)، لأنّ ظاهر السياق القرآني دلّ على أنّ مريم لم تتزوّج وأنّها أنجبت عيسى بأمر من الله، وعيسى (عليه السلام) رُفع إلى السماء ولم يتزوّج، فليس له ذريّة ولا نسل.

وقد استجاب الله دعاء امرأة عمران فأعاذ الله مريم من الشيطان الرجيم، وأعاذ ذرّيتها – ابنها – من الشيطان الرجيم أيضاً[3].

ولم يكن للشيطان سبيل لمريم وابنها عيسى، ولم يكن له سلطان عليهما، فحفظهما الله من وساوسه ونزعاته، بل إنّه لم يمسّ مريم حين ولادتها، ولم يمسّ عيسى أيضاً حين ولادته، وصرّح لهذه الحقيقة رسولنا ﷺ[4]. فقد قال ﷺ: ما من بني آدم مولوداً إلّا يمسّه الشيطان حين يولد فيستنها صارخاً من مسّ الشيطان غير مريم وابنها، ثمّ قرأ أبو هريرة راوي الحديث قول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[5].

---

[1] المرأة في القصص القرآني، (2/ 607).

[2] المرأة في القصص القرآني، المصدر السابق، (2/ 607).

[3] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 179).

[4] القصص القرآني، المصدر السابق، (4/ 180).

[5] البخاري، رقم 3431، مسلم، رقم 2366.

لقد سألت امرأة عمران ربّها أن يحفظ الوليدة ابنة الأطهار الأبرار من مكائد الشيطان وتسويله لتتم النعم بخلوصها لربّ العالمين، وزادت من مناجاتها في مقام أنسها بربها أن يتعدّى حفظه ورعايته وصونه وكرامته هذه الوليدة البريئة الطاهرة لتشمل ذرّيتها مهما امتدّت عروقها، وتتابعت أغصانها وفروعها فهي حلقات بيت صالح، وللصالح آثاره التي تدرك الذرية ولو بعد حين، فاستجاب الله (عزّ وجل) دعاء امرأة عمران كاملاً غير منقوص وزادها نعائم على نعائمه[1].

وقد أرشدنا الرسول ﷺ إلى تحصين ذريتنا من الشيطان الرجيم، فالإنسان إذا ما جاء أهله، ومجيء الأهل مظنّة حصول الولد، فيقول الإنسان إذا جاء أهله: (اللهم جنّبني الشيطان وجنب الشيطان ما روقتني)، فإن كان بينهما ولداً لم يضرّه الشيطان، ولم يُسلّط عليه[2].

رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37].

علم الله تعالى إخلاص امرأة عمران في ندائها لربّها، فقد كانت عارفة بأسرار النداء والدعاء فنادت ربّها قائلة (رب)، فهي طلبت من الربّ التربية من البداية إلى النهاية، وكان في دعائها تضرّع وانكسار لنفسها بين يدي ربّها حيث كان نذرها بناءً على أن يكون ذكراً يحصل منه القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوّة والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها وتقبّل نذرها، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتمّ من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم ما يحصل بالذكر[3].

وكانت الإجابات الإلهيّة والنفحات الربانيّة والمواهب اللدنيّة التي تنتظر هذه الوليدة السعيدة، فأوحى الله (عزّ وجل) إلى نبي الله زكريّا أن تقبّلوا هذه الوليدة في رحاب البيت المقدّس، خلاف غيرها من الإناث لخدمته وللتفرّغ للعبادة في جنباته، فهي طاهرة مصون مُصطفاة على النساء، وهذا من استجابة دعاء الله

---

[1] آباء وأبناء ملامح تربوية في القرآن الكريم، د. فاروق حمادة، ص237.

[2] صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، مكتبة البشرى، 2016م، رقم 2383.

[3] تفسير السعدي، (1/ 218).

لامرأة عمران، بأن قبل ما تمنّته من انقطاع وليدها لله ومرافقة الصالحين والعابدين، ولم يقبل قبلها أنثى في هذا[1].

1- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾:

جعل الله نشأتها خير نشأة في خلقها وخُلُقها، فقد رزقها الله شكلاً جميلاً، ومنظراً بهيجاً، وسلكها في سلك أهل السعادة من العباد الصالحين، وقرنها في طفولتها بالأولياء المتبتّلين، فلم تعرف للشرّ طريقاً ولا للزيغ مدخلاً، ومن نشأ هذه النشأة الحسنة، وترعرع في هذا الجو الإيماني فأنّى له إذا كبر أن ينحرف أو يزيغ.

وهذه الآية الكريمة قاعدة من قواعد التربية القرآنيّة في العناية بالأطفال من ولادتهم، وحمايتهم ونشأتهم وطفولتهم حتّى يرسخ الإيمان في قلوبهم والعمل الصالح في جوارحهم، وأن يعيشوا في أتراب لهم في صالحين وقرناء طاهرين، لينبتوا نباتاً حسناً وليسيق الخير إلى قلوبهم وعقولهم، حتّى إذا ما جاء الشرّ قلّ أن تجد له مكاناً وموضعاً، وكم في هذه الآية ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37].

من أثرٍ نديٍّ في القلب يوحي إلى قلب كلّ أب بمعاني العناية والرعاية، والحرص على الأبناء والذرّية، ومن تمام العناية والرعاية والنشأة الحسنة، والرعاية الصالحة أن كفّلها زكريّا، وهو زوج خالتها على الأشهر أو زوج أخها كما في رواية، ففي حديث الإسراء والمعراج: فإذا أنا بابنَي الخالة عيسى ابن مريم ويحيى ابن زكريّا[2].

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾؛ والقبول: هو أخذ الشيء برضا، والحسن شيء فوق الرضا ستلمحه مريم العذراء، وهو ليس قبولاً عاديّاً، ولكنّه قبول حسن ولهذا قال: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ فالإنبات الحسن: يحمل ملحظين في حياة مريم (عليها السلام):

أوّلهما: أنّها كانت تحت التربية الربّانية منذ بدايتها الأولى في بطن أمّها، كما يرعى الفلاح نباته بالعناية والنماء.

---

[1] المسيح عيسى ابن مريم، الصلابي، ص82.

[2] البخاري، أحاديث الأنبياء، (6/ 467).

ثانيهما: أنّ إجابة الله لامرأة عمران دليل على إخلاصها، لأنّ الله اختصّ مريم بالتربية التي هي من خصائص الربوبيّة، من الإنبات الحسن، وكفالة زكريّا لها[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾؛ جاءت الفاء هنا للتعقيب؛ لبيان سرعة استجابة المولى (عزّ وجل) لدعائها وسرعة تحقيقه لرجائها فهو من المؤمن قريب ولدعائه مجيب، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186]. وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60][2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾؛ مع قبولها عند الله قبولاً حسناً، فقد أكرمها الله وأنعم عليها بأن أنبتها نباتاً حسناً، قال ابن كثير: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً[3]. وقد ربّاها الربّ (عزّ وجل) تربية حسنة في عبادة الله وطاعة لربها[4]. وإن الآية تفيد حُسن نمائها وسلامتها واكتمال بنيتها اكتمالاً طبيعيّاً برعاية ربّانيّة خاصّة.

2- ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾:

بعد أن تقبّل المولى (عزّ وجل) مريم (عليها السلام)، وأنبتها نباتاً حسناً، فجعل لها من يقوم بشأنها ويُعنى بأمرها ويهتمّ بإصلاحها، قيّض لها نبيّاً من الأنبياء هو زكريّا (عليه السلام)، فكانت كفالته لها نعمة من الله ورحمة، قال تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾، ولكن كيف تمّت تلك الكفالة؟

لقد تمّ هذا الأمر بتوفيق من الله (عزّ وجل) بعد أن تنافس الأحبار والرهبان وتنازعوا على كفالة مريم، كلّ يرجو ويطلب لنفسه أن ينال هذا الشرف، وأن يحظى بهذا المقام، فمريم (عليها السلام) بنت إمامهم ومعلّمهم عمران (عليه السلام)، الرجل الصلاح الذي مات دون أن تكتحل عيناه برؤية البنت، وحرصاً على هذا الشرف ووفاء للمعلّم والمربّي والمصلح والإمام كان تنافسهم وتسابقهم الذي وصل حدّ النزاع والاختصام على حفالة مريم (عليها السلام)، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44].

---

[1] مريم والمسيح، محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 2015م، ص52.

[2] المرأة في القصص القرآني، (2/ 608).

[3] تفسير ابن كثير، (1/ 359).

[4] المرأة في القصص القرآني، (2/ 610).

فقد كان كلّ واحد منهم شديد الحرص على كفالة تلك اليتيمة، ولمّا لم تجتمع لهم كلمة ولم يتّفق لهم رأي فكلّ واحد يريد أن يستأثر بهذه الكرامة.

وكان أولى بهم أن يتركوا كفالتها لنبيّ الله زكريّا (عليه السلام)، ولما طال جدالهم حول من يكفلها اتفقوا على أن يقترعوا فيما بينهم، فمن فاز في القرعة فقد فاز بالكفالة، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، وعن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾؛ اقترعوا فجرت الأقلام الجِرْية، وعال قلم زكريّا الجِرْية فكفلها زكريّا[1].

قال ابن حجر: وعال قلم زكريّا: أي ارتفع عن الماء، وفي إحدى الروايات (وعلا)، و(الجرية): بكسر الجيم، والمعنى: أنّهم اقترعوا على كفالة مريم أيّهم يكفلها فأخرج كلّ واحد منهم قلماً وألقوها كلّها في الماء فجرت أقلامهم مع الجرية إلى أسفل وارتفع قلم زكريّا فأخذها[2].

وسواء جرى قلم زكريّا وسبق أقلامهم أو جرت أقلامهم وثبت قلمه أو علا بقلمه، وسبح على الماء وغاصت أقلامهم أو العكس، على أيّ حال كان الاقتراع، فالمهم أن زكريّا (عليه السلام) فاز بالقرعة وتولّى كفالة مريم (عليها السلام)[3].

وفي قوله ﴿كَفَّلَهَا﴾ على أنّ الفاعل هو الله تعالى، والهاء لمريم، أي: جعل زكريّا لها كافلاً، فزكريّا وإن كان قد أقبل على كفالتها، فإنّ الذي هداه إلى ذلك ووفقه ويسّر له ذلك الأمر هو الله (عزّ وجل)[4].

فقد جعل الله سبحانه وتعالى كفالتها لزكريّا، وجعله أميناً عليها، وكان زكريّا رئيس المعبد اليهودي من ذريّة هارون الذي صارت إليهم سدانة المعبد[5].

– من هو زكريّا (عليه السلام)؟

معنى زكريّا: هو الذي يعمل لكيلا ينسى الله تعالى أبداً، والملازم لذكر الله (عزّ وجل)[6].

---

[1] فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، 2010م، (5/ 345).

[2] المرأة في القصص القرآني، (2/ 612).

[3] المرأة في القصص القرآني، المصدر السابق، (2/ 612).

[4] المرأة في القصص القرآني، المصدر السابق، (2/ 612).

[5] في ظلال القرآن، (1/ 393).

[6] أسماء الأنبياء ودلالاتها ومعانيها، خالد محمد حمد، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دار العراب للدراسات، ط1، 2016م، ص232.

وأمّا نسبه: ينتهي إلى سيّدنا سليمان بن داود (عليهما السلام) ثمّ يتّصل إلى سيدنا يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهو من الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، ولهذا فقد فصل القرآن الكريم قصّة في سورتي آل عمران ومريم[1].

– ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ بدأ زكريّا يخدم مريم ويُربّيها ويُكرمها حتّى كبرت وكان لها مكان خاص تعيش فيه في المسجد، وكان لها محراب تتعبّد فيه لا تُغادر مكانها إلّا قليلاً، يذهب وقتها كلّه في الصلاة والعبادة والذكر والشكر والحبّ كلّه[2].

كان زكريّا يتقرّب إلى الله بخدمته مريم العابدة الصالحة، وكان يعمل من عمل يده كما أخبرنا رسول الله ﷺ إذ قال: كان زكريّا نجّاء[3]. قال ابن كثير: كان نجّاراً يعمل بيده ويأكل من كسبها، كما كان داود (عليه السلام) يأكل من كسب يده[4].

وكان زكريّا نبيّاً كريماً ولأنّ الله يُعدّها لأمر عظيم لهذا عاشت مريم طفولتها وشبابها عند زكريّا (عليه السلام)، واقتبست منه العلم والمعرفة واقتدت به في العبادة والذكر، واستفادت منه الخُلُق والسلوك، فنشأت نشأة إيمانيّة صالحة وكانت عابدة ذاكرة زاهدة مُقبلة على الله متّصلة به، ومضت السنوات ومريم في كفالة زكريّا، حتّى صارت فتاة بالغة واعية ناضجة، وهي مُقبلة على عبادتها واتصالها بالله وذكرها له[5].

– ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ هذا من فضائل مريم من جملة ما يزيد فضلها؛ لأنّ المتربّي يكتسب خُلُقه وصلاحه ممّن يُربيه[6].

---

[1] في صحبة الرسل الكرام، عبد المقصود عسكر، دار البشير للثقافة، 2000م، ص231.

[2] أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، 1905م، ص365.

[3] تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور، ص335، مسند أحمد، رقم 947.

[4] البداية والنهاية، ابن كثير، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2015م، (2/ 398).

[5] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 185).

[6] التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، (3/ 168)، ليدبروا آياته المجموعة الثالثة، مركز تدبر للاستشارات، دار الحضارة، 2010م، ص39.

3- ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾:

إن كلمة (كلّما) تدلّ على التكرار، أي الرزق كان يأتي مريم وهي في المحراب متفرّغة للعبادة والذكر والصلاة والمناجاة، والله يُكرمها بتقديم الرزق بخارقة ليست مألوفة ولا معروفة[1].

- و ﴿الْمِحْرَابَ﴾؛ هو مكان العبادة – أيّاً كان شكله – سمّي بذلك لأنّ التعبّد فيه يُحارب الشيطان[2].

- ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾؛ طعاماً لقيام بدنها يُعينها على العبادة، فقيل: كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء[3]. وقال مجاهد – رحمه الله –: عنباً وجده زكريّا عند مريم في غير زمانه[4].

وأيّاً كان الأمر؛ فوجود طعام – من أيّ نوع – عند امرأة منقطعة للعبادة لا تكتسب، هو كرامة لها[5].

وتقديم الرزق إلى مريم وهي في المحراب إثبات للكرانة التي ساقها الله لها؛ لأنّه كان بطريقة خارقة في مألوفة، ومريم ليست نبيّة لتُعتبر هذه الخارقة مُعجزة، فالمعجزات مختصّة بالأنبياء، وإذا وقعت الخوارق من الله لغير الأنبياء سُمّيت كرامات، وهذا دليل قرآنيّ على إمكانيّة الكرامة للأولياء، بل على وقوعها وحدوثها، وهناك أدلّة أخرى على إثبات الكرامة للأولياء الصالحين، كما حدث لأصحاب الكهف الصالحين، ونحن نثبت الكرامات للأولياء كما نُثبت المعجزات للأنبياء ونؤمن بحصولها لهم، وأنّها من فعل الله تكريما لهم، وشرطُنا في قبولها ذكرها في آية صريحة أو في حديث صحيح مرفوع، ولا تلتفت إلى كلام الذين ينكرون الكرامات للأولياء، لأنّه يتعارض مع كلام الله ومع كلام رسوله ﷺ.

وكلمة ﴿رِزْقًا﴾ في قوله ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾؛ نكرة منوّنة، وهذا التنكير والتنوين يدلّ على التعميم والشمول، وهو مقصود، فالرزق الذي كان يأتيها به الله يشمل جميع ما تحتاجه من الطعام والمأكولات كما أنّ هذا التنكير يدلّ على الإبهام حيث لم يُذكر شيء من أصناف الرزق المقدّم لها، وهو يدعونا إلى عدم الخوض في تحديد أصناف ذلك الرزق، من اللحوم والخضار والفواكه والمأكولات والمشروبات، لأنّ لا دليل عليه،

---

[1] المسيح عيسى ابن مريم، ص88.

[2] تفسير الزهراوين، محمد صالح المنجد، مجموعة زاد للنشر، ط1، 2016م، ص541.

[3] تفسير الزهراوين، المصدر السابق، ص541.

[4] تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، ط1، 1994م، (6/ 355)، تفسير ابن المنذر، النيسابوري، دار المآثر. المدينة النبوية، ط1، 2002م، (1/ 182).

[5] تفسير الزهراوين، ص541.

ولا فائدة منه، فلنبق الكلمة ﴿رِزْقًا﴾ على إبهامها اللطيف الجميل[1]. ويكفي معرفتنا أنّها كانت مباركة يكثير من حولها الخير ويفيض الرزق من كلّ ما يسمّى رزقاً حتّى ليعجب كافها – وهو نبي – من فيض الرزق، فسألها.

4- ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾:

كان زكريّا (عليه السلام) رقيقاً لا يضيّع من يعول، بل يحرص على دقائق شؤون ربيبته الفريدة، وهذا جانت من الدور التربويّ الذي لعبه زكريّا في حياة مريم (عليها السلام) ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾.

إنّ ممارسة هذه المساءلة أصل تربويّ إسلاميّ يُقصد به أن ينشأ الطفل على مُراعاة حدود الله فيما يكسب، وقد غدت كلمة زكريّا هذه دستوراً أخلاقيّاً وبنداً رادعاً في الإدارة وسيفاً مصلتاً على أعناق من يسيرون بالطريق غير المشروعة، وتجلّى ذلك في القاعدة الإسلاميّة المشهورة من أين لك هذا؟

وقول زكريّا (عليه السلام) ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أبلغ في الإطاحة بالأمر، ذلك أنّ التساؤل في عبارته لا يقتصر على مصدر الرزق، بل يشمل كيفيّة الحصور عليه؛ أهي بالطرق المشروعة أم لا؟ وما الثمن الذي دُفع فيه؟ وكيف وصل إليها حيث هي؟

ولو أنّ هذه العبارة احتلّت المساحة التي ينبغي لها أن تحتلّها في حياتنا لتغيّرت أمور كثيرة، فهي تنفع الغافلين من قبيل الذكرة والتذكرة، وتردع الطامعين والعابثين من قبيل الترهيب والتهديد، وتستطيع هذه العبارة أن تجعل النزاهة في الكسب هاجساً، فيما لو وضعت في الاستخدام ابتداءً من دائرة الأسرة فقالتها الزوجة لزوجها عندما يأتيها بمال غير متوقّع، وقالها الأبوان لأولادهما عندما يحصلون على مالا ينبغي لهم الحصول عليه، كدرجة لا يستحقّونها أو لعبة أو أداة مدرسيّة أو حلوى أو ما شابه ذلك، وانتهاءً بإدارة الدولة وموظفيها إذا لكانت تلك العبارة سداً في وجه الانحراف والفساد[2].

– ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؛ أنّى: أي من أين لك هذا الرزق أي: مصدره لا يشبه أرزاق الدنيا؛ لكونه في غير حينه (زمنه)، والأبواب مغلقة عليك، ولا يدخل عليك أحد ﴿أَنَّىٰ﴾ هذه تحمل معنى كيف، ومعنى أين، وللاستفهام بها أقوى من كيف وتحمل معنى التعجّب[3].

---

[1] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 187).

[2] من أنباء القرى، أحمد الكبيسي، مؤسسة الرسالة العالمية، ط1، 2007م، ص587.

[3] تفسير القرآن الثري الجامع، محمد الهلال، دار المعارج، ط1، 2022م، (2/ 95).

5- ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

لا تزيد مريم (عليها السلام) إلّا أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله وتفويض الأمر إليه إنّه من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب، وهي كلمة تصوّر حال المؤمن مع ربّه، واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه والتواضع في الحديث عن هذا السر، لا التنفج به والمباهاة، وكانت هذه الظاهرة غير المألوفة التي تُثير عجب نبيّ الله زكريّا هي التمهيد للعجائب التي تليها من العجائب في ميلاد يحيى وميلاد عيسى[1].

كانت إجابة مريم (عليها السلام) ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فكأنّما تقول لزكريّا (عليه السلام): لا تعجب ولا تستبعد ثمّ أكّدت مضمون كلامها بقولها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: بغير تقدير، أو بغير استحقاق فضلاً منه سبحانه[2] بغير حصر، لأنّ الحساب يقتضي حصر الشيء المحسوب بحيث لا يزيد ولا ينقص، فالمعنى إنّ الله يرزق من يريد رزقه بما لا يعرف مقداره لأنّه موكول إلى فضل الله[3]، فهو تفضّلاً منه من غير محاسبة، ومجازاة على عمل[4].

- ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ تعليليّة لما قبلها، وهو من تمام كلامها، ومن قال — من العلماء — إنّه من كلام زكريّا، فتكون الجملة مستأنفة[5].
- ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾؛ أي: كثير جداً لا يُحصى، أو ليس بثمن، فالله يهب لعبده المؤمن بغير جهد منه[6].

- **دروس وفوائد وأحكام من الآية الكريمة:**

— الدعاء للمولود عند ولادته:

إن قصّة امرأة عمران أشارت إلى استحباب الدعاء للمولود عند ولادته ولمن ولد له، وقد استجاب الله لها وامتنّ عليها ببيان نوع استجابته، وهو القبول الحسن والنبات الحسن، فيُستحبّ الدعاء بالقبول الحسن والنبات الحسن للمولود الحسن، ولا يثبت في السنّة دعاء مخصوص للمولود عند ولادته، وليس في ذلك

---

[1] تجريد المقول ممن المنقول في ظلال القرآن، نخبة من العلماء، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، 2017م، (147/1).

[2] التفسير الموضوعي، طهماز، دار القلم، ط2، 2014م، (1/ 482).

[3] التحرير والتنوير، (2/ 201).

[4] تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، 2009م، (1/ 252).

[5] فتح القدير، الإمام الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 2007م، (2/ 179).

[6] تفسير النابلسي، راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع، ط1، 2019م، (2/ 345).

شيء يصحّ عن الصحابة[1]، وأمثل شيء ما جاء عن الحسن البصري أنّه علم إنساناً التهنئة فقال: قل: بارك الله لك في الموهوب، وشكرت الواهب، وبلغ أشدّه ورُزقت برّه، رواه ابن المنذر وابن عساكر[2].

– حضانة المولود وكفالته:

في قوله الله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ دليل على مشروعيّة الحضانة، وقد ذكر الله الحضانة في كتابه في مواضع عديدة تصريحاً وإشارة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ [النساء: 23]؛ لأن الحجور جمع حجر، ولا يكون في الحِجْر إلّا طفل رضيع، وهذه بداية الحضانة.

وفي قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: 233]؛ لتَضَمُّن الرضاعة للحضانة.

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: 233].

والحضانة في حفظ إنسان لا يستقلّ بنفسه ورعايته كالصبيّ والمجنون، لأنّه يكون في الحِضن والحجر، والكفالة أوسع من معنى الحضانة في اللغة والشرع، وذكر الله الحضانة والكفالة في كتابه، لحقِّ الصبيّ في الرعاية والحفظ، وحقّ والديه في انتظام حياة ابنهما بلا خوف، وقطعاً للنّزاع الذي يقع بين الزوجين أو أهلهما عند الطلاق أو الوفاة، وقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾؛ أي: ضمّها إليه بعد موت والديها فاستهموا علة كفالتها كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44]. وقد قال مجاهد: سَهَمَهم بقلمه[3]. وقال الحسين: تقارعها القوم، فقرع زكريّا[4]. وفي قراءة أهل الحجاز والبصرة (وكَفَلَه) بالتخفيف، أي: ضمّها هو إليه، وبين مريم وزكريّا قرابة، واختلف في تعيين القرابة[5]، كما بيّنا. وقال السُّدِّي وقتادة: كانت أخت مريم تحت زكريّا؛ وهذا أقرب لما في (الصحيح)، قال ﷺ: إذا يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة[6]. وقد يتجوّز العرب فيُنزِلون أولاد الأولاد بمنزلة آبائهم مع أولاد أعمام الآباء وخالاتهم[7].

---

[1] التفسير والبيان لأحكام القرآن، الطريفي، (2/ 591).

[2] تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر،2006م، (59/ 276).

[3] تفسير الطبري، (5/ 350).

[4] تفسير الطبري، المصدر السابق، (5/ 352).

[5] التفسير والبيان لأحكام القرآن، (2/ 593).

[6] البخاري، رقم 2699.

[7] التفسير والبيان لأحكام القرآن، (2/ 593).

- **منزلة الخالة في الحضانة:**

كفّل الله مريم زكريّا، لأنّ خالتها تحته، والخالة بمنزلة الأم وإنّما جعل الكفالة لزكريّا، لأنّ زكريّا يكفل زوجته، وزوجته تكفّل مريم، فوقع الجميع تحت كفالة زكريّا، لأنّ الرجل يقوم بالنفقة سُكْنى وكسوة وطعاماً وفي هذا إشارة إلى قوامة الرجل وولايته، ولأنّ الخالة بمنزلة الأم، لما ثبت في البخاري: أنّ عليّاً وجعفراً وزيد بن حارثة (رضي الله عنهم) تنازعوا في حضانة بنت حمزة بعد أن استشهد، فقال عليّ: بنت عمّي وعندي، بنت رسول الله ﷺ، وقال زيد: بنت أخي وكان (عليه السلام) قد آخى بين زيد وحمزة، وقال جعفر: الحضانة لي هي بنت عمّتي وعند خالتها، فقال ﷺ: الخالة بمنزلة الأم[1]. وسلّمها إلى جعفر وجعل لخالتها الحضانة، وهي ذات زوج[2]، ولا يختلف العلماء أنّ الأمّ أحقّ بحضانة ولدها عند فراقها من زوجها، أو عند وفاته، أو غيابه، مالم تتزوّج، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد كابن المنذر وابن عبد البرّ وغيرهما[3].

وقال ابن عبد البرّ: لا أعلم خلافاً بين السلف من العلماء في المرأة المطلّقة إذا لم تتزوّج: أنّها أحقّ بولدها من أبيه، ما دام طفلها صغيراً لا يُميّز شيئاً، إذا كان عندها حرز وكفاية، ولم يثبت منها فسق ولا تبرّج[4].

وقد تحّدث العلماء بأنّ الأم مقدّمة في الحضانة على الأب وأحكام الحضانة بعد التمييز وسقوط الحضانة بزواج الأم وحضانة غير المسلمة، والأحق بالحضانة بعد الأم من النساء[5].

- **إثبات كرامات الأولياء:**

إنّ الله (عزّ وجل) قد يخرق العادة لبعض أوليائه؛ تثبيتاً لهم، وترغيباً للناس في مثل حالهم. والفرق بين كرامات الأولياء الإلهيّة وخوارق السّحرة والدجّالين الشيطانيّة هو حال صاحب كلّ منهما، فقد وصف الله الأولياء بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: 62-63]؛ والضابط في هذا: أن يُعرض هذا الخارق على الكتاب والسنّة، فإن لم يكن مخالفاً

---

[1] البخاري، رقم 2699.

[2] التفسير والبيان لأحكام القرآن، (2/ 593).

[3] التفسير والبيان لأحكام القرآن، المصدر السابق، (2/ 593).

[4] الاستذكار، ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م، (23/ 69).

[5] التفسير والبيان لأحكام القرآن، (2/ 595).

لهما، وتوفّرت فيه شروط الكرامة كصلاح صاحبها، وعدم استعانته بهذا الخارق في المعصية أو ترك واجب وغير ذلك، كانت كرامة وإلّا فهو تلبيس من الشيطان الرجيم[1].

- أنّ صلاح الداعي وحسن دعائه له أثر في درجة الاستجابة وحسن القبول.
- أنّ بركة البنت الصالحة قد تفوق كثيراً من الذكور، وأنّ البنت قد تكون أصلح لوالديها من كلّ أبنائها.
- أهميّة تنشئة الأولاد على طاعة الله.
- أهميّة اقتران الولد بمربّ صالح يعتني به ويتعاهده ويعلّمه ويؤدّبه، ويكون قدوة صالحة له.
- أنّ مصاحبة الأخبار والصالحين من الصغر، تؤدّي إلى غرس معاني التوحيد والأخلاق الفاضلة في النفس.
- من الدروس هناك أهميّة التربية بالاقتداء، وفضل كفالة الأيتام، وأنّ ذلك لا يقتصر على النفقة الماليّة، بل يتعدّاها إلى ما هو أهم وهو التربية والتعليم، وفضل زكريّا (عليه السلام) الذي سابق في الأعمال الصالحة وسارع حرصاً على كفالة اليتيمة، وقد قال تعالى عن هذا البيت المبارك: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 90]، ومنها أنّ الله قدير يرزق بغير سبب ظاهر وعلى خلاف ما يتوقّعه العباد، ومنها: استحباب تخصيص مكان ظاهر طيّب للعبادة، والخلوة بالربّ تعالى ومنها أنّ العبادة قد تكون سبباً لجلب الرزق المستمرّ والعطاء الواسع، ومنها: جواز إظهار التعجّب لحال أولياء الله وكرامتهم.
- ومنها: حُسن اعتقاد مريم (عليها السلام) في الله (عزّ وجل)، حيث نسبت الرزّق إليه.
- ومنها: أنّ الرزق تبع لمشيئة الله، ومشيئته تبع لحكمته.
- ومنها: أنّ صلاح الأبوين سبب لحفظ الأولاد ورزقهم.
- ومنها: اعتناء الأخبار بالأولاد الأخيار.
- ومنها: أنّ من تولّى كفالة يتيم أو ضعيف –كالمرأة – فإنّ عليه أن يتفقّده، ويصونه باستمرار، مع مُراعاة الضوابط الشرعيّة.

[1] تفسير الزهراوين، ص542.

- ومنها: أنّ النموّ الحسن للطفل في بدنه نعمة من الله، ويجب على الوالدين الأخذ بأسبابها، ووقاية الطفل ممّا يضرّه.
- ومنها: أنّ النبات الحسن في الدين والخُلُق نعمة من الله ويجب على الأبوين – أو يكفل الطفل – بذلك ذلك في نفسه وتنمينه.
- ومنها: أنّ التربية الصالحة للصغير تقود – في العادة – إلى جعله طائعاً لله، فقد صارت مريم (عليها السلام) من العابدات القانتات بفضل الله ثمّ حُسن تربيتها وهي صغيرة[1].
- ومنها: أنّ لكلّ ضَعف لُطفاً، وأنّ الله لا يضيع عباده.
- ومنها: الاعتراف للمنعم بالنعمة ونسبتها إليه، وردّ الفضل لأهله وذلك في قول مريم ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.
- ومنها: عدم احتقار البنات والاستهانة بهنّ، فقد يوجد منهنّ من تكون له قدوة للناس.
- ومنها: أنّ تسخير الله للرزق لا يشترط أن يكون بنزول من السماء أو بإتيان الملائكة به، بل قد يخلقه الله في مكانه.
- ومنها: أنّ توحيد العبد لربّه، وحسن عبادته له، يكون سبباً في استغنائه عن المخلوقين، وعدم الحاجة إليهم.
- ومنها: أنّ رعاية الله لمكفول أعظم من رعاية كفيله له.
- ومنها: جواز اختصاص المفضول بخصائص لا ينالها الفاضل، فالله (عزّ وجل) قد يخصّ الأدنى بفضيلة لا يُعطيها لمن هو أعلى منه مع اختصاص الفاضل بفضائل أكثر من غيرها، كما حصل مع مريم – وهي صِدّيقة – مقارنة بحال زكريّا (عليه السلام) وهو نبيّ مع الاعتقاد بأنّ معجزات الأنبياء أعظم من كرامات الأولياء[2].

[1] تفسير الزهراوين، المصدر السابق، ص543.

[2] تفسير الزهراوين، المصدر السابق، ص544.

خامساً: قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38].

إشارة هذه الفتاة (مريم عليها السلام) الصالحة العابدة مشاعر الأبوّة في قلب النبيّ الكريم، والرجل الكبير زكريّا (عليه السلام)، فتوجّه إلى الله بضراعة وخشوع يسأل الذريّة الصالحة الطيّبة، وهذا يدلّ على شدّة وعمق تأثّر نبيّ الله زكريّا (عليه السلام) بما رأى من صلاح مريم وإكرام الله تعالى لها[1].

1- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾:

- ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي: في تلك الحال في ذلك المكان[2]. والمكان الذي دعا فيه زكريّا (عليه السلام) هو المحراب، أي مكان العبادة التي تتبتّل فيه السيّدة مريم والزمان الذي دعا فيه زكريّا هو الذي رأى فيه عند مريم فاكهة من غير أوانها، رزقاً من عند الله من غير أن يكون له دخل فيه، وهو كافل لها والذي حمله على اختيار هذا المكان والزمان وعاءً لدعائه ما استقرّ في عقله من حلول البركة في هذا الزمان، أي في الزمان والمكان الذي رأى فيه زكريّا كرامة الله لمريم، عندئذ دعا ربّه متوسّلاً، ومتضرّعاً[3].

- ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾؛ وفي هذا التعبير إشارة إلى تسليمه لله وإلى شعوره لقدرة الله على كلّ شيء، فهو الذي خلقه وربّاه وتولّاه برعايته في كلّ أدوار حياته[4].

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾؛ كلام مستأنف وقصّة مستقلّ جاءت في قصّة مريم وأمّها لما بينهما من قوّة الارتباط، وشدّة الاشتباك مع ما في ذلك من بيان اصطفاء آل عمران[5].

2- ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾:

صدّر دعاءه بلفظ الربوبية استعطافاً لما في هذا اللفظ من التربية والكفالة والرعاية[6].

---

[1] التفسير الموضوعين (1/ 482).

[2] تفسير الزهراوين، ص544.

[3] دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد، مركز الكتاب للنشر، ط1، 1998م، ص288.

[4] القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1. 1905م، ص 696.

[5] القصة في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص695.

[6] دعاء الأنبياء والرسل، ص289.

أي: يا رب أنت الذي خلقتني، وأنت الذي لا يقف أمام قدرته شيء، وأنت الذي جعلتني أرى مِن أحوال مريم ما يشهد بقدرتك النافذة وفضلك العظيم[1].

– ﴿هَبْ لِي﴾؛ وذكره لفظ إلهيّة فضلاً عن كونه تأدّباً، فهو استدرار لتحقيق المرجو، أي أعطني الولد من عندك، لا مقابل طاعتي أو عبادي لك[2].

– ﴿لِي﴾؛ للدلالة على أنّ زكريّا هو المنتفع بثمرة هذا الدعاء، أمّا المولى (جلّ وعلى)، فهو النافع لمن والاه بالطاعة من عباده[3].

– ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ التعبير بهذا اللفظ: ليفيد التوحيد الكامل والتنزيه، كما يُفيد احتياجه الشديد لله تعالى، فكأنّه قال: أنت القادر وحدك على كلّ شيء، لا حدّ لقدرتك، ولا مانع من إرادتك، فلا أثر للأسباب في مسبباته إيجاداً، ولا عبرة بالأعراف والعادات والقوانين أمام إرادتك[4].

– ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾؛ يريد أن يُعطيه خالقه هذه الذريّة بلا سبب عاديّ، ولكن بإرادته وقدرته لأنّه لو كان الأمر في هذا العطاء يعود إلى الأسباب والمسبّبات العاديّة لكن الحصول على الذرّية مستبعداً إذ هو قد بلغ من الكِبَر عتيّاً وزوجته قد تجاوزت السنّ التي يحصل بها الإنجاب في العادة، أيّ هب لي من عندك لا من عندي، لأنّ الأسباب عندي أصبحت مُستبعدة[5].

– ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾؛ مباركة، نقيّة، صالحة، و(الذريّة) تُطلق على الواحد والجمع، والذكر والأنثى، وهي بمعنى (مَذْروءة) أي: مخلوقة[6].

ومعنى (ذرّية): نسلاً، والذرّية: تُطلق على الواحد والجمع، وهي هنا بمعنى الواحد، وزكريّا طلب من الله ولداً فقط، لأنّ الله قال عن طلبه في آية أخرى: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: 5]، ولم يقل أولياء[7].

---

[1] القصة في القرآن الكريم، ص696.

[2] دعاء الأنبياء والرسل، ص289.

[3] دعاء الأنبياء والرسل، المصدر السابق، ص289.

[4] دعاء الأنبياء والرسل المصدر السابق، ص289.

[5] القصة في القرآن الكريم، ص696.

[6] تفسير الزهراوين، محمد صالح المنجد، ص544.

[7] دعاء الأنبياء والرسل، ص289.

إنّ زكريّا لقوّة إيمانه، ونقاء سريرته، وحسن صلته بربّه، لا يُريد ذرّية فحسب، وإنّما يُريد ذريّة صالحة يُرجى منها الخير في الدنيا والآخرة[1].

- قال القرطبي – رحمه الله –: دلّت هذه الآية على طلب الولد، وهي سنّة المرسلين والصِّدّيقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: 38].

فالواجب على الإنسان أن يتضرّع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا معنيّين له على دينه ودنياه حتّى تعظم منفعته بهما في أولاه وأُخراه[2].

- قال السعدي – رحمه الله –: وكان هذا المولود – أي يحيى عليه السلام – من بركات مريم بنت عمران على زكريّا، فإنّ ما منّ الله به عليهما من ذلك من الرزق الهنيّ، الذي يحصل بغير حساب ذكره وهيجه على التضرّع والسؤال، والله هو المتفضّل بالسبب والمسبب، ولكنّه يُقدّر أموراً محبوبة على يد من يحبّه ليرفع قدره، ويعظم أجره[3].

وقد ورد في السنّة من النصوص الصحيحة في فضيلة النكاح والحثّ عليه والحرص على الذرّية الصالحة والإكثار منها، ومما جاء في هذا الباب:

- قوله ﷺ: النكاح من سنّتي، ومن لم يعمل بسنّتي فليس منّي، وتزوّجوا فإنّي مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح، ومن لم يجد فعليه بالصيام فإنّ الصوم له وجاء[4].

ومعنى: ذا طول: الطول الفضل والغنى واليسر.

ومعنى: وجاء: بكسر الواو والمد أي كسر شديد يذهب بشهوته[5].

- وعن أنس عن أم سليم أنّها قالت: يا رسول الله، أنس خادمك ادع الله له، قال: اللهم أكثر ماله وولد، وبارك له فيما أعطيته[6].

---

[1] القصة في القرآن الكريم، ص696.

[2] الجامع لأحكام القرآن، (4/ 47).

[3] تفسير السعدي، ص143.

[4] سنن ابن ماجه، ابن ماجه القزويني، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، 2013م، رقم 1864، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف، 2006م، 3283.

[5] التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، ط1، 2014م، (5/ 156).

[6] البخاري، رقم 6378.

- وعن أبي هريرة (رضي الله عنه): أنّ النبيّ ﷺ قال: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث: إلّا من صدقة جارية، أو عمل ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له[1].

إنّ هذه القصّة من خلال الآيات الكريمة التي تمّ دراستها تبيّن لنا قدرة الله المطلقة حيث إنّه سبحانه:

- يُعطي بالأسباب كما رزق أم مريم ابنتها مريم من زوجها عمران، فالأسباب هنا حاضرة ولا غرابة فيها، فالزوج والزوجة مجتمعان وهناك نطفة وجاء الولد، وهذا طريق عام يُعطي الله به جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم.
- ويُعطي بغير الأسباب كما كان يرزق مريم في المحراب ويأتيها الرزق بغير أسباب.
- ويُعطي بضدّ الأسباب كما رزق زكريّا (عليه السلام) ابنه يحيى، وهو طاعن في السنّ وامرأته عقيم.

وبذلك يمتلئ قلب المؤمن نوراً ويقيناً وإيماناً أنّ الأسباب التي حوله في قبضة الله إن شاء نفعه بها وإن شاء ضرّه بها، وإن شاء أعطاه بها، وإن شاء أعطاه بغيرها أو حتّى بضدّها، وهذا ما يسكب في القلب الطمأنينة والأمان، فلا خوف في قلب من يعرف الله ويتعامل معه[2].

إنّ دعاء زكريا (عليه السلام) يبيّن لنا أنّ الله (عزّ وجل) يعطي العباد بلا مقابل، من الذريّة الصالحة بدناً وديناً، وأنّ الدعاء من أعظم أسباب صلاح الذريّة، وأنّ الذرية الطيبة سبب لحصول خير الدنيا والآخرة[3].

كما أنّ القصّة توضح لنا من خلال الدروس والعبر والفوائد أنّ من شروط إجابة الدعاء؛ هي اليقين في الإجابة وعدم الاستعجال والخشوع والذلّ لله أثناء الدعاء وأكل الحلال[4]، فقد كان زكريّا (عليه السلام) نجاراً يأكل الحلال من كدّ يمينه، والتوسل إلى الله بأسماء الله الحسنى.

3- ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾:

وهذه جملة تعليليّة، أي: إني ما التجأت إليك يا إلهي إلّا لأنّك سميع مجيب للدعاء غير مخيب للرجاء[5].

---

[1] البخاري في الأدب المفرد، رقم 38.

[2] وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، دار ابن كثير، 2014م، ص283.

[3] تفسير الزهراوين، ص545.

[4] قصص الأنبياء، عمرو خالد، دار المعرفة، 2014م، ص467.

[5] القصة في القرآن الكريم، ص696.

والسميع: من أسماء الله الحسنى، وقد ورد في الكتاب العزيز في خمسة وأربعين موضعاً، والسميع: السامع للأصوات كلّها سرّها وعلانيتها، فالأصوات عنده سبحانه كلّها سواء، والسر عنده علانيه، والنجوى إليه مفضيّة، بل حديث الإنسان في نفسه، فالله تعالى مطّلع عليه، فكلّ الأشياء ظاهرة له (عزّ وجل)، لأنّه خالقها، ومبدعها، والمتصرّف في جزئياتها وتفاصيلها، فهذا من معاني السميع الذي يسمع الأصوات كلّها، ومن معاني (السميع) الذي يستجيب دعاء عباده إذا سأله ودعوه، وتضرّعوا إليه، فإنّه سبحان يسمع ويُجيب[1].

يقول الشيخ السعدي – رحمه الله – ومن أسمائه الحسنى السميع الذي يسمع جميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحالات، فالسر عنده علانيّة والبعيد عنده قريب[2]. وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، والخفيّة والجليلة، وإحاطته التامة بها.

والثاني: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدين، فيُجيبهم ويُثنيهم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: 39]، وقول المصلّي: سمع الله لمن حمده؛ أي: استجاب[3].

– ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾؛ هذه الآية تثبت صفة السمع لله تعالى كما تليق بعظمته سبحانه وجلاله من غير تمثيل ولا تحريف، ولا تكييف[4].

إنّ الإيمان بأنّ الله (عزّ وجل) يُسمع ويُرى، فمِن آثار الإيمان بالسميع، مراقبة الله (عزّ وجل) فيما يقوله الإنسان سواء أسرّ القول أو جهر به، سواء كان ذلك في جماعة أو في خلوة، وهذا الإيمان يثمر في القلب الخوف من الله (عزّ وجل) والمحافظة على اللسان من أن ينطق بما يستحق الله تعالى، فالله تعالى يسمع ذلك والملائكة تكتبه، ومن تعبّد الله تعالى بهذا الاسم الكريم جنّب لسانع الفحش من القول من سبّ، وسخرية، وغيبة ونميمة، وبهتان، ولهو باطل أو نشر لباطل يُضلّ به الناس.

---

[1] مع الله، د. سليمان العودة، الإسلام اليوم للنشر، ط5، 2010م، ص131.

[2] توضيح الكافية الشافية، السعدي، أصول السلف، ط1، 2000م، ص617، ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، القسطاوي، ط1، 1439هـ، ص67.

[3] الحق الواضح المبين، السعدي، دار ابن القيم، ط2، 1987م، ص35.

[4] ولله الأسماء الحسنى، ص617.

فعن معاذ بن جبل (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: ثكلتك أمّك يا معاذ، وهل يُكبّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلّا حصائد ألسنتهم[1].

إنّ إيمان زكريّا (عليه السلام) بالله السميع جعله يلتجئ إليه ويسأله الذريّة الطيّبة، فهو على يقين بأنّ الله يسمع دعاء عباده، سرّهم ونجواهم، وهو المجيب لدعائهم والمفرّج لكربائهم، وهذا الإيمان جعل زكريّا (عليه السلام) في حالة اطمئنان وأُنس بالله (عز وجل) وحسن ظن به، وعدم اليأس فهو سبحانه السميع لدعاء عباده المجيب القريب منهم، وهذا يُثمر صدق التوكّل على الله سبحانه والتعلّق به وحده والرجاء فيما عنده[2].

إنّ الآيات الكريمة في دعاء زكريّا (عليه السلام) عرضت شخصيّته في لحظة من لحظات اتّصاله بربّه الداخليّة العميقة بصورة جميلة مباشرة، فزكريّا (عليه السلام) الشيخ المؤمن العميق الإيمان، كما تقدّمه الآيات في مناجاته لربّه، نموذج حيّ للرغبة البشريّة الفطريّة في الامتداد من خلال الولد وزكريّا في طلبه للولد، في الخاطر الأول المتبادر له بعد ما شهده من التحقّق العملي الواقعي لقدرة الله المطلقة في رزق مريم، يمثّل خطاً بشريّاً واقعياً حقيقيّاً أصلاً، وهو يمثّل نفسه أيضاً بعد أن بُشّر بيحيى، لأنّ المعطيات التي يعرفها مؤداها استحالة الإنجاب في مألوف البشر[3]. ولكنّه كان على يقين من قدرة الله المطلقة، ومن أنّه سبحانه وتعالى (سميع الدعاء).

سادساً: قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 39].

تفسير الآية:

[1] الحق الواضح المبين، السعدي، دار ابن القيم، ط2، 1987م، وصححه الألباني في صحيح الترمذي والألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2000م، رقم 2110.

[2] ولله الأسماء الحسنى، ص620- 621.

[3] الشخصيات القرآنية، د. نزيه محمد اعلاوي، دار الصفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2019م، ص152.

1- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾:

أي: فنادت الملائكة زكريّا (عليه السلام) وهو قائم يصلّي في المحراب يناجي ربّه، وسبّح بحمده بأنّ الله قد استجاب دعاءك ويبشّرك بغلام اسمه يحيى، لكي تَقرَّ عليك ويُسَرّ به قلبك والتعبير بالفاء في قوله تعالى ﴿فَنَادَتْهُ﴾ يشعر بأنّ الله تعالى فضلاً منه وكرماً قد استجاب لزكريّا دعاءه بعد فترة قليلة من هذا الدعاء الخاشع، إذ الفاء تفيد التعقيب.

ويرى فريق من المفسّرين أنّ الذي ناداه هو جبريل وحده، ومن الجائز في العربيّة أن يُخبر عن الواحد بلفظ الجمع.

ويرى فريق آخر منهم أنّ الذي نادى زكريّا وبشّره بمولوده يحيى، جمع من الملائكة لأنّ الآية صريحة في أنّ هذا النداء قد صدر من جمع لا من واحد، ولأنّ صدوره من جمع يناسب هذه البشارة العظيمة أن يقوم بها جمع لا واحد، ولاشك أنّ حالة زكريّا وحالة زوجه تستدعيان عدد من المبشرين لإدخال السرور على هذين الشخصين الذين كان يفقد الأمل في إنجاب الذريّة وقد رجح هذا الاتجاه ابن جرير، فقال: وأمّا الصواب من القول في تأويله، حيث يُقال: أنّ الله – جل ثناؤه – أخبر أنّ الملائكة نادته، والظاهر من ذلك أنّها جماعة من الملائكة دون الواحد، وجبريل واحد، فلا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلّا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل في ألسن العرب دون الأقل ما وجدنا إلى ذلك سبيلاً، ولم تضطرنا الحاجة إلى صرف ذلك إلى أنّه بمعنى واحد فيحتاج له إلى المخرج بالخفي من الكلام والمعاني[1].

2- ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾:

- ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي﴾: جملة حاليّة من مفعول النداء، و(يصلي) حال من الضمير المستكن في قائم أو حال أخرى من مفعول النداء على القول بجواز تعدّد الحال[2].

وفي الآية شهادة للكفي (زكريّا) كما شهد للمكفولة بحسن التبتّل وطول التعبّد، وفيه إشارة أنّ ذلك التعبّد مظنّة استجابة الدعاء[3].

---

[1] القصة في القرآن الكريم، ص697.

[2] القصة في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص698.

[3] مجالس النور، محمد عياش الكبيسي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2010م، (1/ 194).

- ﴿فِي الْمِحْرَابِ﴾؛ أفضل الأماكن، وأشرف ما في المسجد المحراب[1].

والآية الكريمة توضّح أنّ من وظائف الملائكة: الإرسال بالبشرى لعباد الله الصالحين، وأنّ الملائكة يتكلّمون بصوت مسموع، ومشروعيّة تبشير الإنسان بما يسرّه[2].

- ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾؛ يحتمل فيه الصلاة معنيان:

الأوّل: الدعاء.

والثاني: الصلاة المعروفة عندهم، وبهذا قول السُّدِّي وغيره، وروى معنا جعفر بن محمد عن ثابت، وأخرجه ابن المنذر في (تفسيره)، وهو ظاهر اختيار ابن جرير:

وعلى المعنى الثاني: يحتمل أن يكون الكلام في الصلاة مباحاً، كما كان أوّل الإسلام، ثمّ نُسخ، ويحتمل أنّه محرّم، ولكنّ الملائكة كلّمته لتبشّره وهو يستمع لا يتكلّم[3].

- الكلام في الصلاة:

ولا خلاف عند علماء الإسلام في منع الكلام في الصلاء الذي ليس من جنس أقوالها، وأنّه يُبطل الصلاة على خلاف في أدنى ما يُبطل الصلاة من الحرف والحرفين؛ لقوله: إنّ الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنّما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن[4].

وأمّا استماعه لغيره فيتّفقون على وجوب الاستماع لما لا تتمّ الصلاة إلّا بالاستماع إليه، كتكبيرات الإحرام، والانتقال والسلام، فلا تتمّ المتابعة إلّا به، لقوله ﷺ: إنّما جُعل الإمام ليُؤتمّ به، فإذا كبّر فكبّروا[5].

وأمّا حديث غير المصلّي مع المصلّي فعلى قسمين:

الأوّل: ما كان في مصلحة الصلاة، كدلالته إلى القبلة وإرشاده إليها، عند توجّهه خطأ إلى غيرها، فهذا يُستحبّ ويتأكّد، وقد يجب، ففي الصحيح عن البراء (رضي الله عنه)، أنّ رسول الله ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستّة عشر شهراً، وكان يُعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنّه صلّى أو صلاها صلاة العصر وصلّى

---

[1] تفسير القرآن الثري الجامع، (2/ 98).

[2] تفسير الزهراوين، ص547.

[3] التفسير والبيان لأحكام القرآن، (2/ 603).

[4] رواه مسلم، رقم 537.

[5] رواه البخاري، رقم 378.

معه قوم، فخرج رجل ممّن كان صلّى معه، فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهد بالله لقد صلّيت مع النبيّ ﷺ قِبَل مكّة، فداروا كما هم قِبَل البيت[1].

ويلحق بهذا إعلام جبريل النبيّ ﷺ بوجود نجاسة في نعلَيه وهو يُصلّي؛ كما رواه أحمد وأبو داود عن أبي سعيد الخدريّ، قال: بينما رسول الله ﷺ يُصلّي بأصحابه إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلمّا رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلمّا قضى رسول الله ﷺ صلاته قال: ما حملكم على إلقاء نعالكم؟ قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا، فقال رسول الله ﷺ: إنّ جبريل (عليه السلام) أتاني، فأخبرني أنّ فيها قذراً[2].

ويجوز سؤال المصلّي وهو في صلاته عند الحاجة، وهذا يُشبه حديث الملائكة مع زكريّا، فهو حديث مَلَك لنبيّ وهو في صلاة، وإن اختلف نوع الخطاب، فزكريّا خوطب بخطاب لا يتّصل لصلاته، ومحمّد ﷺ خوطب بخطاب يتّصل بها[3].

القسم الثاني: الكلام مع المصلّي واستماعه وهو منصت بكلام لا يتّصل بصلاة المصلّي، فهذا الأصل فيه الجواز شريطة أن يكون عارضاً لا طويلاً، كما في قصّة زكريّا، ولما روى البخاري، عن أسماء، قال: أتيت عائشة وهي تُصلّي، فقلت: ما شأن الناس؟ فأشارت إلى السماء، فإذا بالناس قيام، فقالت: سبحان الله، قلت: آية؟ فأشارت برأسها: أي: نعم[4].

وفي حديث أسماء هذا: دليل على جواز ردّ المصلّي على غيره بالإشارة من غير كلام، وقد أشار النبيّ ﷺ في صلاته: كما في (الصحيح)؛ من حديث جابر، قال: أرسلني رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى بني المصطلق، فأتيته وهو يُصلّي على بعيره، فكلّمته فقال لي بيده هكذا[5].

وتحدّث الفقهاء عن الكلام في الصلاة والحركة فيها ويدل السلام على المصلّي وردّ المصليّ وحكم ردّ المصلّي على السلام وغير ذلك من المسائل الفرعيّة المتعلّقة بهذه المسألة فمن أراد التوسّع فليرجع إلى كتاب التفسير والبيان لأحكام القرآن[6].

---

[1] رواه البخاري، رقم 4486.

[2] مسند أحمد، رقم 11877.

[3] التفسير والبيان لأحكام القرآن، (2/ 604).

[4] البخاري، رقم 86.

[5] مسلم، رقم 540.

[6] التفسير البيان، (2/ 602- 609).

3- ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾:

- ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ﴾؛ بولادة ولد، و(البشارة): الإخبار بما يسر، سُمّيت بذلك بسبب تغيّر البشرة عند سماعها، فيظهر عليها الفرح والسرور، وقد تستعمل في الشر أيضاً[1].

وذكر لفظ الجلالة ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ فيه من إشعار الروعة وتربية المهابة ما ليس في غيره[2].

- ﴿بِيَحْيَىٰ﴾؛ وهو اسم (الولد) مشتق من (الحياة)، إشارة إلى أنّه سيحيا ويكبر، وقيل: لأنّ الله أحيا قلبه بالإيمان أو أحياه بالطاعة[3].

وفي اقتران التبشير بالتسمية بيحيى، إشعار بأنّ ذلك المولود سيحيا اسمه وذكره بعد موته، بذلك تتحقّق الإجابة لدعاء زكريّا تحقّقاً تاماً، فقد حكى القرآن عنه في سورة مريم، أنّه قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 6][4].

4- ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾:

فالصفة الأولى من صفات يحيى: (مصدّقاً): مؤمناً (بكلمة من الله)، وهي كلمة (كن)؛ إشارة إلى عيسى (عليه السلام)، المخلوق بالكلمة، فقيل إنّ يحيى (عليه السلام) هو أوّل من صدّق بعيسى ابن مريم، وكان على سُنّته ومنهاجه، وكان يحيى وعيسى ابني خالة، متقاربين في العمل، وقُتل يحيى (عليه السلام) قبل رفع عيسى إلى السماء، بمدّة يسيرة[5].

وأمّا الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أنّ المراد بكلمة الله كتابه، أي أنّ يحيى من صفاته الطيبة أنّه كان مصدّقاً بكتاب الله وبكلامه، وذلك لأنّ الكلمة قد تُطلق ويُراد منها الكلام، والعرب تقول أنشد فلان كلمة أي قصيدة، وقال كلمة أي خطبة، ويبدو أنّ الاتجاه الأوّل أقرب للصواب، لأنّ القرآن قد وصف عيسى بأنّه كلمة الله في أكثر من موضع، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: 171]،

---

[1] تفسير الزهراوين، ص546.

[2] متشابه النظم في قصص القرآن الكريم، (2/ 419).

[3] تفسير الزهراوين، ص546.

[4] القصة في القرآن الكريم، ص698.

[5] تفسير الزهراوين، ص546.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 45]، ولأنّ في التعبير عن عيسى صدقه بيحيى بأنّه كلمة من الله إشعاراً بأنّ ولادتهما متقاربة من حيث الزمن، وإيماء إلى أنّ زكريّا (عليه السلام) قد أوتى علماً بأنّ المسيح عهده قريب، وأنّ يحيى (عليه السلام) سيعيش حتّى يدرك عيسى (عليه السلام)[1].

5- ﴿وَسَيِّدًا﴾:

جعله الله سيّداً شريفاً في قومه، سادهم بالقوّة والعلم والعبادة والحلم، وفسّرها الصحابة والتابعون بهذا المعنى.

وقال العلماء في تفسير معنى السيد أقولاً منها:

- السيّد هو الحليم التقي.
- سيّداً في العلم والعبادة.
- هو الكريم على الله.
- هو الذي لا يغلبه الغضب.
- السيد هو الشريف[2].

وهذه الأقوال ليست متعارضة، فكلّها مرادة، وينطبق عليها كلّها معنى السيد، وكلّها تحقّقت في يحيى (عليه السلام)، لقد جعل الله يحيى (عليه السلام) سيّداً شريفاً، سيداً في الحلم والتقوى، وسيداً في العلم والعبادة، وسيداً في الفقه والكرم[3].

وهذه الصفة الثانية التي ذُكرت في هذه الآيات من صفات يحيى (عليه السلام).

قال القرطبي – رحمه الله – عن (سيّداً): الذي يسود قومه ويُنتهى إلى قوله وأصله سيود، يُقال فلان أسود من فلان على وزن أفعل من السيادة، ففيه دلالة على تسمية الإنسان سيّداً، وفي الحديث أنّ رسول الله ﷺ قال لبني قريضة عندما دخل سعد بن معاذ: قوموا إلى سيّدكم، وفي الصحيحين أنّه قال في الحسن (رضي الله عنه): إنّ انبي هذا سيّد ولعلّ الله يُصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[4].

---

[1] القصة في القرآن الكريم، ص699.

[2] تفسير ابن كثير، (3/ 34).

[3] المسيح عيسى ابن مريم، ص103.

[4] تفسير القرطبي، (4/ 17).

والمراد أنّ يحيى (عليه السلام) من صفاته أنّه سيكون سيّداً، أي يفوق غيره في الشرف والتقوى وعفّة النفس، بأن يكون مالكاً لزمامها ومسيطر على أهوائها[1].

6- ﴿وَحَصُورًا﴾:

الحصور: هو الذي لا يأتي النساء، إمّا من العنّة، وإمّا من العفّة والاجتهاد في إزالة الشهوة، والثاني هو المراد من الآية، لأنّه بذلك يستحقّ المحمدة[2].

فيحيى (عليه السلام) منع نفسه عن النساء برغبته وإرادته، وجاهد نفسه في عدم الرغبة فيهم، ولم يكن فيه عنّه تمنه من معاشرة النساء، فإنّ هذا نقص يتنزّه عنه الأنبياء[3].

وقيل: الذي لا يدخل في اللعب والأباطيل، وأنّه معصوم من الذنوب والفواحش[4]، ولا يُستعبد أن يكون ليحيى (عليه السلام) ذريّة.

وقد أبعد: من زعم أنّ الآية تدلّ على أنّ ترك النكاح مستحب، وليس فيها ما يدلّ على ذلك، بل سُنّة الأنبياء بخلاف ذلك[5].

أ- قال القاضي عياض – رحمه الله –: كيف يكون النكاح، وكثرته من الفضائل، وهذا يحيى بن زكريّا (عليه السلام) قد أثنى الله تعالى بالعجز عمّا تعدّه فضيلة؟

وهذا عيسى ابن مريم (عليه السلام) تبتّل من النساء ولو كان كما قررته لنكح. فاعلم: أنّ ثناء الله تعالى على يحيى، بأنّه حصور، ليس كما قال بعضهم: إنّه كان هيوباً أو لا ذكر له، بل أنكر هذا حذاق المفسّرين ونقّاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء (عليهم السلام)، وإنّما معناه أنّه معصوم من الذنوب، أي: لا يأتيها، كأنّه حُصر عنها، وقيل: مانعاً نفسه من الشهوات، وقيل: ليست له شهوة في النساء، فقد بان لك من هذا، أنّ عدم القدرة على النكاح نقص، وإنّما الفضل في كونها موجودة ثمّ قمعها، إمّا بمجاهدة كعيسى (عليه السلام) أو لكفاية من الله تعالى كيحيى (عليه السلام)[6]، فضيلة زائدة لكونها

---

[1] القصة في القرآن الكريم، ص700.

[2] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة القلم، ط1، 1412هـ، (3/ 341).

[3] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 145).

[4] رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر، دار الحكمة، 1997م، (2/ 256).

[5] تفسير الزهراوين، ص546.

[6] دراسات تاريخية في القرآن الكريم، محمد بيومي، دار النهضة العربية، ط2، 1988م، (3/ 256).

مشغلة في كثير من الأوقات، حاطة إلى الدنيا ثمّ هي في حقّ من أقدر عليها وملكها، وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربّه درجة علياء وهي درجة نبيّنا ﷺ لم تشغله كثرتهنّ عن عبادة ربّه، بل زاده ذلك عبادة لتحصينهنّ، وقيامه بحقوقهنّ واكتسابه لهنّ، وهدايته إيّاهنّ، بل صرّح أنّها ليست من حظوظ دنياه هو وإن كانت من حظوظ دنيا غيره، فقال ﷺ: حبّب إليّ من دنياكم[1].

قال ابن كثير – رحمه الله – معلّقاً عليه أي: القاضي والمقصود من الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال، وغشيانهن وإيلادهنّ، بل قد يفهم وجود نسل له من دعاء زكريّا المتقدّم حيث قال: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38]؛ كأنّه قال ولداً له ذريّة ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم[2].

وقال رسول الله ﷺ: ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو همّ بخطيئة ليس يحيى بن زكريّا[3].

7- ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾:

هذا الوصف الرابع في سورة آل عمران من أوصاف يحيى (عليه السلام)، وفيه إشارة لزكريا بأنّ ابنه سيكون من الأنبياء الذين اصطفاهم الله لتبليغ دعوته إلى الناس؛ وهذه الشارة أسمى وأعلى من الأولى التي أخبره الله فيها لولادة يحيى، لأنّ النبوّة منزلة لا تعدلها منزلة في الشرف والفضل[4].

وهذه الآية الكريمة نصّت على نبوّة يحيى (عليه السلام) حيث سيجعله الله نبيّاً ويجعله من الصالحين[5].

والآية تبيّن أنّ الصلاح أعمّ من النبوّة والنيّ لا يكون إلّا صالحاً[6]. وقال أبو نصر القشيري – رحمه الله–: في قوله تعالى: ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: جعله الله نبيّاً، ثمّ قيل: تحقّقت له النبّوة في الصبا، وقيل: كان نبيّاً في حكم الله، ثم أظهره الله بعد البلوغ.

والنبيّ: المخبر عن الله، وأصله الهمز، فترك لكثرة دورانه على الألسنة، وهذا همز نافع (النبيء، والأنبياء، والنبيئين) في القرآن.

---

[1] الشفا في حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1988م، (1/ 192-194).

[2] تفسير ابن كثير، (2/ 31).

[3] مسند أحمد، رقم 2294، صححه الألباني في الصحيحة، رقم 2984.

[4] القصة في القرآن الكريم، عصام الدين الهنامي، مركز فائق للخدمات العلمية، 2023م، ص701.

[5] القصص القرآني، (4/ 146- 147).

[6] تفسير الزهراوين، ص548.

وقيل غير مهموز الأصل، فإنّ النبيّ الطريق، فهو طريق إلى الله، وقيل: إنّه من النبوّة والنباوة، وهي ما ارتفع من الأرض، أي: أنّه العلي القدر الرفيع الشأن.

- ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: من آباء صالحين، والصالح من أدّى حقّ الله وحقّ الخلق[1].

وقال أبو حفص النسفي – رحمه الله –: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ أي: من الآباء الصالحين، والصلاح صفة ينتظم الخير كلّه، وقيل هو الذي ينتفي عنه الفساد بالكلّية، والذي يؤدّي حقوق الله تعالى وحقوق الخلق[2].

وغمرت الفرحة زكريّا (عليه السلام) وأقبل على ربّه يسأله متعجّباً... [3].

سابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 40]

لمّا بشّر زكريّا (عليه السلام)

1- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾:

- ﴿قَالَ﴾؛ متعجّباً.
- ﴿رَبِّ أَنَّىٰ﴾؛ أي: كيف، وهذا السؤال للاستعظام والاستثبات، وليس للاستنكار والاستبعاد.
- ﴿يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؛ وهذا باعتبار ما سيكون، لأنّه لم يولد بعد[4].

2- ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾:

ويعني قد بلغت من الكبر عتيّاً فأصابني الوهن والشيب، ويُبس المفاصل والعظام، فلا إنجاب ولا إخصاب، فكيف سيأتيني الآن، ولم أُرزق حال الشباب؟

---

[1] التيسير في التفسير، أبي نصر القشيري، دار اللباب، ط1، 2022م، (2/ 67).

[2] التيسير في التفسير، القشيري، (4/ 30)

[3] التفسير الموضوعي، (1/ 484).

[4] تفسير الزهراوين، ص548.

3- ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾:

عقيم لا تحمل، ولا تلد[1]، إذ نلاحظ أنّ زكريّا (عليه السلام) كانت له مساعي عظيمة في الدعوة إلى الله لأنّه نبيّ مرسل من عند الله، ولقي من عنت قومه بني إسرائيل ما حدث فعلاً، ولكنّ القرآن يركز على شكوى زكريّا في قصّته من القعم وخوفه أن يموت دون أن يعقب ولداً، وذكر بعض المواقف كفالته مريم ومشاهدة بعض معجزاتها، وذكرت قصّة زكريّا في العهد المكيّ وفي سورة مريم والأنبياء، وسيأتي تفصيلهما بإذن الله، وفي القرآن المدي في سورة آل عمران[2].

وعندما نجمع حديث القرآن عن زكريّا (عليه السلام) في سورة آل عمران ومريم والأنبياء تبرز لنا في قصّته قضية العقم وتأخّر الإنجاب، وهي مشكلة تظهر كهمّ كبير عند شريحة واسعة من الشباب في مجتمعاتنا، فجاء القرآن الكريم ليبيّن لنا كيف نتعامل مع هذه المشكلة من خلال قصّة زكريّا (عليه السلام) الذي أُصيب بمثل هذا الابتلاء، ولا شكّ أنّ طلب الولد أمر فطريّ محبّب للنفس، لكن قد يمنع الله هذه النعمة عن بعض الناس، أو يؤخرها عنهم، لحكمة هو يعلمها سبحانه، فكيف يتعامل الإنسان مع هذه القضيّة؟[3]، ويظهر أهميّة الدعاء وصدق اللجوء إليه، ولا يمنع هذا البحث عن العلاج من العقم عند الأطباء وقد شرّع الله تعالى التطبيب لكلّ دواء ومرض، قال رسول الله ﷺ: ما أنزل الله داءً إلّا أنزل الله له شفاء[4].

وقال الأعراب: يا رسول الله، ألا نتداوى؟ قال: نعم عباد الله، تداووا فإنّ الله لم يضع داء إلّا وضع له شفاء، أو قال: دواء إلّا داءً واحداً، قالوا: يا رسول الله: قال الهرم[5].

ومن الأمراض ما يُصيب النساء عامّة والعقم بعدم الإنجاب خاصّة، إلى أن تتداوى المرأة ويصلح حالها بإذن الله تعالى، ولو بلغت الكبر عتيّاً بفضل الله تعالى. وكان التطبيب وإصلاح الزوجة من شرعة الله تعالى لزكريّا (عليه السلام)، فقد بلغ من الكبر عتيّاً، ولم يُرزق بولد، وكانت امرأته عاقراً لا تنجب حتّى دعا الله بأن يرزقه الذريّة الصالحة والولد الذي يرثه في الدعوة، فاستجاب الله دعاءه وأصلح له زوجة ورزقه بولده يحيى، فكان العقم داء وجاء الدعاء وسيلة، وتمّ الشفاء بإذن الله تعالى، وأنجبت الزوجة ولداً.

---

[1] تفسير الزهراوين، المصدر السابق، ص548.

[2] من قصص القرآن، د. عصام الدين الهنامي، ص368.

[3] دور الأنبياء في بناء الحضارة الإنسانية، عامر القيسي، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، 2015م، ص245.

[4] البخاري، رقم 5354.

[5] سنن الترمذي، رقم 3038، سنن ابن ماجه، ابن ماجه القزويني، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، 2006م، رقم 3436.

إنّ التطبيب عامّة وإصلاح الزوجة خاصة، من شرعة الله تعالى كما سبق أعلاه في الأحاديث الشريفة، ويلجأ الناس للأطبّاء، ويتناولون الدواء حتّى يتمّ الشفاء بإذن الله تعالى، وهذا ما تطوّر في العصر الحاضر، وانتشر الطبّ، وتعدّدت الأدوية، وخاصّ' الطب النسائي، وعمليات التلقيح الصناعي، وأطفال الأنابيب، وفتحت المستشفيات النسائيّة للمعالجة والتوليد والعمليات الطارئة ممّا يتّفق مع شرعة الله تعالى في جميع العصور والأزمان حتّى لا ييأس أحد من فضل الله، ولا يقنط من الشفاء مهما كان المرض[1].

4- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾:

فهو سبحانه وحده الفعال لما يريد، فلا يعجزه شيء ولا يتعاظمه أمر[2]، فالأمر له (يفعل ما يشاء) من زرقكما الولد وغير ذلك، ولا يحول دون مشيئته شيء، فالأمر كما كان يقول رسول الله ﷺ في دعائه إذا فرغ من الصلاة: اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت[3].

ونلاحظ أنّ البشارة بكلٍّ من يحيى والمسيح جاءت في عبارتين يختلف فيهما الإيجاد في البشارة، بيحيى يقول جلّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 40]، وفي البشارة بالمسيح (عليه السلام) يقول: ﴿كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 47].

ذلك أنّ عيسى (عليه السلام) وُلد من غير أب، وهي عملية خلق كخلق الإنسان ابتداءً، ولذلك قال ﴿يَخْلُقُ﴾، أمّا يحيى (عليه السلام) فقد وُلد من أبوين؛ ولكنّ أمّه لم تكن قادرة على الإنجاب فأصلحها الله والإصلاح فعل، ولذلك قال: ﴿يَفْعَلُ﴾؛ هو من دقّة التعبير المعجزة في الكتاب المبين[4].

وبعد ما سمع زكريّا (عليه السلام) قول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ سأل ربّه أن يجعل له علامة يستدلّ بها على بدء حمل زوجته[5].

---

[1] شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، 2018م، ص569.

[2] التفسير الموضوعي، (1/ 484).

[3] البخاري، رقم 844.

[4] من أنباء القرى، الكبيسي، ص589.

[5] التفسير الموضوعي، (1/ 484).

ثامناً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۖ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: 41]

لمّا كان بدء الحمل خفيفاً لا تكاد تشعر به المرأة ولا زوجها، أراد زكريّا (عليه السلام) علامة على بدئه وحصوله، وليكون أتمّ لفرحه وسروره وليزداد ارتباطاً بالنعمة ويقيناً بقدرة ربّ العالمين.

1- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾:

(قال) زكريّا (عليه السلام) فيما أخبر الله عنه ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾؛ أي: علامة تدّلني على حصول الحمل عند زوجتي لأبادر إلى القيام بشكر هذه النعمة شكراً جزيلاً ولأقوم بحقّها حقّ القيام[1].

2- ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾:

كانت الآية العجيبة والمعجزة الباهرة في لسان زكريّا (عليه السلام).

إنّ قومه يعرفون أنّه متكلّم بفصاحة وطلاقة، ويعلمون أنّه لا عيب في لسانه، ولكن بعدما بُشّر بالولد، فوجئوا به لا يُكلّمهم إلّا بالرمز والإيحاء والإشارة واستمرّ هذا الأمر على ثلاثة أيّام بلياليها، كان زكريّا (عليه السلام) في هذه الأيام الثلاثة على حالتين:

الحالة الأولى: عندما يخلو بنفسه، ويكون وحدياً، ليس معه أحد، لا يسمعه أحد، عند ذلك ينطلق لسانه ويذكر الله وتسبيحه وسمع نفسه وهو يُسبّح الله ويذكره.

الحالة الثانية: عندما يخرج على قومه ويريد أن يُكلّمهن ويخاطبهم، فإنّه يعجز عن ذلك، حيث يُحبس لسانه على الكلام، بطريقة لا إراديّة، عند ذلك يخاطبهم عن طريق الرمز والإيحاء والإشارة.

وعندما يرى قومه ذلك كانوا يتعجّبون، فما الذي حبس لسان زكريّا عن الكلام؟ وما الذي جرى له؟

فإذا ترك قومه، وعاد إلى خلوته وعبادته ومحرابه، انطلق لسانه بالكلام، وسمع نفسه وهو يذكر الله ويُسبحه، واستمرّ الوضع على هذه الصورة ثلاثة أيام بلياليها، ولم يكن إمساك لسانه عن الكلام عندما يواجه الناس بسبب مرض أو خرس، وإنّما بمعجزة من الله، فهو سويٌّ صحيح فصيح متكلّم، ولكنّ الله كان يُمسك لسانه عن الكلام بطريقة لا إراديّة، لا دخل لزكريّا في ذلك، وليس هذا غريباً على الله، فالله هو الذي

[1] القصة في القرآن الكريم، ص702.

خلقه متكلّماً والله هو الذي يمكن لسانه من الكلام، فلا يتكلّم إلّا بقدر من الله، والله هو الذي حبس لسانه عن الكلام عندما يواجه الناس، وأطلقه بالكلام عندما يخلو إلى نفسه. وهذه الآية جعلها الله لزكريّا (عليه السلام)، فقد اعتُقل لسانه من غير مرض ولا خرس[1].

أ- السر في ذكر الأيام في سورة آل عمران:

قال الدكتور فضل حسن عبّاس – رحمه الله -: ثمّ جاءت سورة آل عمران وهي مدنيّة، فذكرت فيها الأيام ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾، ومن مجموع الآيتين – يقصد في سورة آل عمران ومريم – ندرك أنّ المدّة التي لا يكلّم الناس بها زكريّا (عليه الصلاة السلام) من غير علّة أو مرض، بل كان عدم قدرته على تكليمهم المعجزة التي بيّنها الله له هذه المدّة كانت ثلاثة أيّام بثلاث ليال ولعلّك أيها القارئ الكريم بدأت تدرك لماذا ذكرت الليالي قبل الأيام، فلو أنّ الأيام ذكرت في سورة مريم ما كان لذكر الليالي معنى في سورة آل عمران، لأنّ الليلة تُطلق على ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر، أمّا اليوم فيُطلق على النهار والليل معاً، فذكر الليالي في سورة مريم المكيّة لا يغني عن ذكر الأيام التي جاءت في سورة آل عمران المدنيّة، أرأيت إلى هذه اللطائف البديعة في كتاب الله[2].

ب- ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾؛ وهذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع.

قال الراغب عنه: الرمز: إشارة بالشفة، والصوت الخفي، والغمز بالحاجب، وعبّر عن كلّ كلام كإشارة بالرمز[3]. وقال السمين الحلبي: قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾: إلّا إشارة: إمّا بالشفتين وإمّا بالحاجبين وإمّا باليدين، ولهذا سُمّي كلاماً، قال الشاعر:

إذا كلّمتني بالعيون الفواتر

رددت عليها بالعيون البوادر

وأصله الحركة، وقيل للبحر: راموز، لكثرة أمواجه[4]. وحصر الإمام الطبري الرمز في اللغة بثلاثة حالات: الأولى: الإيماء بالشفتين.

---

[1] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 138).

[2] قصص القرآن الكريم، ص683.

[3] المفردات، ص366.

[4] القصص القرآني، (4/ 139).

الثانية: الإيماء بالحاجبين والعينين.

الثالثة: الخفيُّ من الكلام، الذي هو مثل الهمس بخفض الصوت.

وإذا كانت هذه حالات الرمز في اللغة، فإنّ رمز زكريّا (عليه السلام) في تكليمه قومه كانت بالإشارة فمعنى: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾؛ أن لا تكلّم الناس في الأيام الثلاثة بلسانك وإنّما عن طريق الإيماء والإشارة بيديك. قال الحسن البصري – رحمه الله –: أمسك لسانه، فجعل يؤمن بيده إلى قومه، أن سبّحوا بكرة وعشيّة[1]. وإن الاستثناء في ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾ استثناء متّصل معناه أنّ ﴿رَمْزًا﴾ من جنس المستثنى منه ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ﴾، وهذا يدلّ على أنّ الرمز والإيماء بالعين أو اليد صورة من صور الكلام، ونوع من أنواع التعبير، فالذي لا ينطلق لسانه، وإنّما يستخدم حركات رأسه أو عينيه أو شفتيه أو يديه، فإنّه يُعبّر بهذه الحركات الرمزيّة عمّا في نفسه، ويفهم السامه منه كما يفهم منه إذا نطق بلسانه.

وقد جمعت آية آل عمران بين حالتي زكريّا (عليه السلام) وهو يعيش المعجزة الربّانية خلال الأيام الثلاثة: صمته عند مواجهة الناس، ونطقه عندما يخلو إلى نفسه[2].

﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾

– ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾؛ وإذا كان الرمز بمعنى الإشارة أو الإيماء كما أجمع العلماء، فلماذا عدل عنهما وأتى بتلك الفريدة؟

فهذه الفريدة القرآنية تحتوي على لمحات لا توجد في غيرها منها:

– أنّ في الفريدة دلالة زائدة لا توجد في هذين اللفظين، وهي الحركة كما هو واضح من أصل معناها عند اللغويّين والمفسّرين، فالفريدة تدلّ بوضوح تامّ على أنّ زكريّا (عليه السلام) كان ممنوعاً من الكلام لا لعاهة أو آفة أو مرض ألمّ به، كان منعه من الكلام آية ومعجزة على ابتداء حمل زوجه، وكان مع ذلك قادراً على أن يُحرّك جسده وأعضاءه، بل كان يحرّك لسانه بذكر الله تعالى فحسب، فكان مع عدم قدرته على مخاطبة الناس، والحديث معهم بلسانه قادراً على عبادته وتسبيحه سبحانه حركة وكلاماً، كما أنّ التعبير بالرمز

[1] تفسير الطبري تقريب التهذيب، (2/ 262- 263).

[2] القصص القرآني، (4/ 140).

أشمل وأعمّ من الإشارة والإيماء والمقام يقتضي التعميم وعدم التحديد لأنّ المقصود أنّه سيُحدّث قومه بكافّة الطرف والوسائل التي يقدر على الإبانة بها سوى الكلام، ولا يدلّ ذلك إلّا الرمز لاتساع دلالته كما مر[1]. ثمّ أمره ربّه بكثرة ذكره وتسبيحه في هذه الحالة، شكراً لله على ما أنعم عليه وأعطاه[2].

3- ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾:

أمره الله بالإكثار من ذكره في هذه الأيام الثلاثة، وأخبره أنّه لا يحبس لسانه عن تسبيح الله، ولا يُمنُع من ذكره. وذكرت الآية طرفي النهار، فإذا سبّح الله في طرفي النهار بالعشي والإبكار، فقد ذكره الله وسبّحه طيلة النهار.

أ- ﴿بِالْعَشِيِّ﴾؛ من وقت زوال الشمس بعد الظهر، إلى أن تغيب.

ب- ﴿وَالْإِبْكَارِ﴾؛ من وقت طلوع الشمس إلى وقت الضحى[3].

وقال محمد بن كعب القرظي: لو رخّص الله لأحد من ترك الذكر لرخّص لزكريّا، حيث قال له: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾[4].

وقال ابن عطيّة – رحمه الله –: وقوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ معناه: قل (سبحان الله)، وقال قوم: معناه: صلّ، والقول الأول أصوب، لأنّه يناسب الذكر، ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس[5]. وقد أوضح الله تعالى في – موضع آخر – أنّ هذا التسبيح الذي أمر به نبيّنا زكريّا (عليه السلام) قد أمر به زكريّا قومه أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11][6].

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله –: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾؛ أي: الذي بشّر فيه بالولد ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾؛ أيّ: أشار إشارة خفيّة سريعة ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ أيّ: موافقة له فيما به في هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله شكراً لله على ما أولاه[7].

---

[1] لأسرار البلاغية في الفرائد القرآني، عبد الله عبد الغني، دار الحضارة، ط1، 2012، ص137.

[2] التفسير الموضوعي، (1/ 484).

[3] القصص القرآني، (1/ 141).

[4] تفسير الطبري تقريب التهذيب، (2/ 262- 263).

[5] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب الأندلسي المحاربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ، (3/ 81).

[6] التسبيح في الكتاب والسنة، د. محمد إسحاق، دار المنهاج، 2006م، (3/ 81).

[7] تفسير القرآن العظيم، (3/ 119).

وبهذا تبيّن اهتمام نبيّ الله زكريّا (عليه السلام) بالتسبيح، وحثّه لقومه على التسبيح[1].

وقال الإمام البغوي – رحمه الله –: قيل المراد بالتسبيح، والعشيّ ما بين زوال الشمس إلى غروبها، ومنه سمّيت صلاة الظهر والعصر صلاتيَ العَشيّ والإبكار ما بين صلاة الفجر إلى الضحى[2]. وإن الآية الكريمة تمدّن بكثير من الفوائد والدروس والعبر منها:

- بيان قدرة الله العظيمة بخرق العادة آية لعبده زكريّا (عليه السلام).
- وأنّ الإشارة تقوم مقام العبارة في الإفهام وخصوصاً عند العجز عن الكلام.
- وأنّ الإنسان إذا انقطع عن الناس؛ فينبغي أن يشتغل بذكر الله (عزّ وجل)، وأهمية تربية النفس على الذكر الكثير، واستغراق الأوقات فيه، وفضل الذكر والتسبيح في هذين الوقتين العظيمين، وهما أوّل النهار وآخره[3].

تاسعاً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42].

ما زال السياق يواصل الحديث عن نعم الله (عزّ وجل) على آل عمران، وكيف اصطفاهم المولى (عزّ وجل) وفضّلهم، حيث بدأ السياق بالحديث عن امرأة عمران واستجابة المولة لدعائها، وقبوله لنذرها واصطفائه لمريم وانتقل السياق إلى الحديث عن مريم (عليها السلام) ونشأتها الصالحة في رعاية الله وعنايته، وكفالة زكريّا (عليه السلام) التي كانت توفيقاً من الله لمريم ولزكريّا (عليه السلام) الذي دعا المولى بأن يرزقه الولد بعد أن رأى كرامة لمريم واستجاب الله دعوته، ورزقه بيحيى (عليه السلام) الذي جمع الله (عزّ وجل) له محاسن الصفات ومحامد الأخلاق ثمّ يعود السياق مرّة ثانية إلى مريم (عليها السلام) وإلى اصطفاء الله (عزّ وجل) لها.

---

[1] التسبيح في الكتاب والسنة، (1/ 308).

[2] تفسير البغوي، الحسن بن مسعود البغوي، دار طيبة، 2007م، ص205.

[3] تفسير الزهراوين، ص550.

1- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾:

أي: أنّ الله اختارها لهذا المقام الأسمى حيث جعلها من بيت صالح، وقبلها قبولاً حسناً، وأنبتها نباتاً حسناً، وجعل زكريّا لها كافلاً، وأجرى الكرامة على يديها إكراماً وإحساناً إليها، وهذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم (عليه السلام) عن أمر الله لهم بذلك أنّ الله قد اصطفاها أي اختاها؛ لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس، وفي حقيقة اصطفائها عدّة وجوه:

- منها أنّه قبل تحريرها مع أنّها كانت أنثى، ولم يحصل مثل هذا لغيرها من الإناث.
- منها ما وقع لها من الكرامة حيث رزقها يأتيها من عند الله.
- منها أنّ فرّغها لعبادته وخصّها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة.
- منها أنّه أسمعها كلام الملائكة شفاها[1]
- في قوله ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ أي: اذكر وقت قول الملائكة لمريم، وهذا التذكير لرسول الله ﷺ ولكلّ إنسان في الوجود يريد أن يعرف قصّة مريم واصطفائها وتطهيرها وقيامها بعباد الله وشكره، وفي المصدر الأصيل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه – القرآن الكريم–، يبيّن الله (عزّ وجل) أنّه أرسل ملائكة لتخبر مريم باصطفائها، كما أرسل ملائكة من قبل زكريّا لتبشّره بيحيى (عليهما السلام) ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: 39].

ولا غرابة في خطاب الملائكة لمريم، مع أنّها ليست نبيّة، لأنّ هذا كان بأمر الله، فالله يرسل الملائكة لتخاطب الأنبياء، وهذا معروف وقد يُرسل ملائكة لتخاطب صالحين وصالحات كما خاطبت امرأة إبراهيم (عليه السلام)، وأزالت استغرابها من حملها بإسحاق وهي عجوز عقيم، والمهم أنّ مريم (عليها السلام) رأت أمامها ملائكة ولعلّها رأتهم بعدما تحوّلوا من صورتهم الملائكيّة إلى صورة بشريّة، وأخبرت الملائكة مريم باصطفاء الله لها وتطهيرها واصطفائها على نساء العالمين[2].

---

[1] المرأة في القصص القرآني، (2/ 241).

[2] القصص القرآني عرض وقائع وتحليل، (4/ 189).

2- ﴿وَطَهَّرَكِ﴾:

مريم الطاهرة: في قوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَكِ﴾، أي: طهّرك من الأخلاق الرذيلة، وأعطاك الصفات الجميلة[1]، وطهّرك من الأكدار، والأندلس والأقذار والرذائل.

وللطهارة مراتب أربع:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السرّ عمّا سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء (صلوات الله عليهم)، والصدّيقين[2].

وإن المقصود بطهارة مريم هو طهارتها بالإيمان الكبير العظيم والعميق بالله (عزّ وجل)، والطاعة لله سبحانه تعالى، وطهارتها من الكفر والمعصية، وطهارتها بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة من الأخلاق الذميمة والصفات القبيحة، ومن مسيس الرجال بأيّ حال من الأحوال، ومن تهمة اليهود حيث برّأها المولى من افتراءاتهم، وجاءت براءتها على لسان المسيح (عليه السلام) وهو في المهد[3].

3- ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾:

الاصطفاء الأول: بمعنى الاجتباء والانتقاء، فالله اجتبى مريم وانتقاها من بين النساء، وأخذها من بينهم وجعلها محلّاً لتحقيق أمره ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾. والاصطفاء الثاني: ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ثمرة للاصطفاء الأول، ونتيجة له فعندما اجتبى الله مريم واختارها من بين نساء العالمين، فقد فضّلها على باقي نساء العالمين.

فلا تكرار في الحقيقة في الآية؛ لأنّ الاصطفاء في المرّة الثانية ليس بمعنى الاصطفاء في المرّة الأولى، بل هو ثمرة له، وقد اصطفى الله مريم وانتقاها من بين النساء، ونشأها نشأة حسنى وأنبتها نباتاً حسناً، وأسبغ عليها نعمه وتوفيقه ورعايته وألهم أمّها أن تنذرها له وهي في بطنها، ليجعلها خالصة له محرّرة وهيّأ لها الحياة

---

[1] إحياء علوم الدين، محمد الغزالي، دار ابن حزم، 1900م، (1/ 125).

[2] إحياء علوم الدين، (1/ 125).

[3] المرأة في القصص القرآني، (2/ 150).

والعيش تحت رعاية نبيّ كريم وهو زكريّا (عليه السلام)، وقدّم لها الرزق المنوّع الشامل وهي في المحراب تكريماً لها.

ولم تتوفّر هذه الأمور لأي امرأة غيرها مهما بلغت من الصلاح والتقوى، وهذا هو الاصطفاء الأول لها، القائم على الانتقاء والاجتباء، وبما أنّ الله اصطفاها وانتقاها، فقد صفّاها وخلّصها من الشوائب وطهّرها من الأدناس والأرجاس ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ واصطفاها الله على نساء العالمين بدون أب، حيث خصّها وحدها بهذه الآية الباهرة، والمعجزة الخارقة[1].

وقد وردت هذه الشهادة لمريم في القرآن الكريم، مع أنّ الرسول ﷺ كان يخوض معركة فكريّة شديدة مع النصارى، ليدلّ على أنّ القرآن كلام الله، ومظهر من مظاهر الإنصاف والعدل في الإسلام، والإشارة هنا إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى، وذلك لما لابس مولد عيسى (عليه السلام) من شبهات، لم يتورّع اليهود أن يُلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أنّ هذا المولود لا مثال له في عالم الناس، فيزعمون أنّ وراءه سرّاً لا يُشرّف.

وهنا تظهر عظمة هذا الدين ويتبيّن مصدره عن يقين، فها هو محمّد ﷺ رسول الإسلام تلقّى من أصل الكتاب – ومنهم النصارى – ما تلقّى من التكذيب والعنت والجدل والشبهات، وها هو ذا يحدّث عن ربّه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على نساء العالمين، بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق وهو معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزّون بمريم، ويتّخذون من تعظيمها مبرّراً لعدم إيمانهم بمحمّد وبالدين الجديد، أيّ صدق؟ وأيّ عصمة؟ وآية دلالة على مصدر هذا الدين، وصدق صاحبه الأمين؟

إنّه يتلقّى (الحقّ) من ربّه عن مريم وعن عيسى (عليهم السلام)، فيلعن هذا الحقّ، في هذا المجال، ولو لم يكن رسولاً من الله الحقّ ما أظهر هذا القول في هذا المجال بحال[2].

4- مريم (عليها السلام) أفضل نساء العالمين:

إنّ ظاهر القرآن الكريم والأحاديث النبويّة يقتضيان إلى أنّ مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، ثمّ بعدها في الفضيلة فاطمة بنت محمّد ﷺ، ثمّ خديجة بنت خويلد (رضي

[1] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 192).

[2] في ظلال القرآن، (1/ 395- 396).

الله عنها) ثمّ آسية بنت مزاحم، وقد بيّنّا الآيات الدالّة على اصطفاء الله لمريم، أمّا أحاديث الرسول ﷺ فمنها:

– قوله ﷺ: حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد[1].

– وقال رسول الله ﷺ: كَمُلَ من الرجال الكثير، ولم يُكمل من النساء إلّا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وإنّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام[2].

إنّ أهل الكمال من الرجال كثير لا يُحصى عددهم، ولم يكمل من النساء غير هذه الأربعة، ومع ذلك لم يبلغوا مرتبة النبوّة.

ومعنى الكمال: التناهي في الفضل، والبرّ والتقوى والإحسان، وغير ذلك من الأخلاق الرفيعة والصفات الحميدة.

والكمال في شيء ما يكون حصوله للكمال أولى من غيره، والنبوّة ليست أولى للنساء؛ لأنّ مبناها على الظهور، والدعوة إلى الله مع الاختلاط بجميع طبقات الشعب، على اختلاف عناصرها، وتباين مشاربها، ومناهجها، وحالهمّ الاستتار، ولا تكون النبوّة في حقّهنّ كمالاً، بل الكمال في حقهنّ الصدّيقيّة، وهي مرتبة عظيمة قريبة من النبوّة[3].

وفي الحديث السابق شهد رسول الله ﷺ لمريم بكمالها ورجاحة عقلها ومقتضى ما نصّ القرآن الكريم عليه أنّها حازت المرتبة الأولى في الفضل[4].

وإن مريم (عليها السلام) هي صدّيقة، وليست نبيّة، والدليل على ذلك ما يلي:

– ظاهر النصّ الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109].

---

[1] أخرجه الحاكم في المستدرك، (2/ 295).

[2] من قصص التنزيل، محمد الحجار، دار البشائر، 1999م، ص514.

[3] من قصص التنزيل، محمد الحجاز، ص514.

[4] قصص التوراة والإنجيل في ضوء القرآن والسنة، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، 2014م، ص325.

- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7].
- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 43].

وإن الحكمة من تخصيص الرجال بالنبوّة دون النساء، أنّ النبوّة عبء ثقيل وتكليف شاق، لا تتحمّله طبيعة المرأة بتركيبها البيولوجي والنفسي، ولهذا كان جميع الأنبياء من الذكور؛ لأنّ مهام الرسالة مضيئة تحتاج إلى مصابرة ومجاهدة، وتتطلّب الكفاح والسفر، وخوض المعارك وتحمّل المشاق[1].

ولم يرد في القرآن ولا في السنّة وصفها بالنبوّة، وإنّما جاء وصفها بأوصاف أخرى تدلّ على صلاحها وطُهرها وصدّيقتها، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: 75].

وإنّما قيل لها صدّيقة؛ لكثرة تصديقها بآيات ربّها وتصديقها ولدها فيما أخبرها به، ووُصفت بصدق وعد ربّها، وهو ميثاق الإيمان.

والقصد من وصفها بالصدّيقة نفي أن يكون لها وصف أعلى من ذلك، وهو وصف الألوهيّة، لأنّ المقام لإبطال قول الذين قالوا: إنّ الله ثالث ثلاثة، فجعلوا مريم الأقنوم الثالث، فهو نفيٌ لألوهيّة المسيح وأمّه وهما من البشر فكانا يأكلان الطعام، ويتبع ذلك خروجه، فهذا كناية عن الغائط والبول[2]. ووُصفت بالصدّيقيّة لكمال إخلاصها وانقيادها لله (عزّ وجل) ظاهراً وباطناً، والتعبّد بطاعته سبحانه وتعالى في كلّ حركة وسكون مع إخلاص عظيم في القصد لله (عزّ وجل)[3].

والآية الكريمة تعلّمنا أنّ القرآن الكريم اعتنى بقصّة مريم (عليها السلام) لكي تذكر وتنشر وتكون قدوة لنساء العالمين، وأنّ من لطف الله (عزّ وجل) تهيئة الأمور قبل وقوعها، فهيّأ لنبيّه عيسى (عليه السلام) أمّا صالحة اختارها من بين النساء، وجعل لها المزايا العظيمة، وأهميّة نشر سير النساء الفاضلات والقدوات في الخير، ليطمس قدوات النساء في الشرّ والضلال.

---

[1] الإيمان بالرسل والرسالات، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، 2015م، ص54.

[2] شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة، ص619.

[3] المسيح عيسى ابن مريم، ص116.

والآية توضّح: براءة مريم (عليها السلام) ممّا رماها به اليهود، وافتروا عليها بوصفها بالبغاء، وقالوا في نبيّ الله عيسى (عليه السلام): إنّه ولد زنا – عياذاً بالله – ففي الآية ردّ بليغ على هذا الإفك العظيم، كما قال عنهم في آية أخرى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 156][1].

عاشراً: قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: 43].

بعد هذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية التي أكرم الله (عزّ وجلّ) بها مريم، بأمرها سبحانه – عن طريق خطاب الملائكة الكرام لها – بأن تجتهد في العبادة شكراً لله تعالى على هذه النعم والمواهب ومواصلة للسير في طريق الهدى والصلاح[2].

1- ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾:

- ﴿يَا مَرْيَمُ﴾؛ للتنبيه والإشارة إلى أهمّية ما يرد في ثناياه، ولذلك تمّ تكرار النداء باسم مريم، ومعناه العابدة، وهذا يدلّ على التشريف والتكريم.
- ﴿اقْنُتِي﴾؛ والقنوت: هو لزوم الطاعة مع الخضوع، وعلى هذا: فمدار القنوات على الطاعة ولزومها والعبادة والاجتهاد فيها مع الإخلاص والخضوع والخشوع لله ربّ العالمين[3].
- ﴿لِرَبِّكِ﴾؛ اللام: للاختصاص، أي: جعل قنوتك خالصاً لله، بلا شرك ولا رياء[4]، والربّ هو الخلّاق والمربّي والمُطعم والرزّاق، والمدبّر لشؤون خلقه وكونه[5].

2- ﴿وَاسْجُدِي﴾:

قدّم السجود على الركوع لفضله، وقيل لأنّ المقام مقام شكر والسجود يقتضيه، وقيل: والسجود أفضل الطاعات، قال رسول الله ﷺ: أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد فأكثروا الدعاء[6].

---

[1] تفسير الزهراوين، ص552.

[2] المرأة في القصص القرآني، (2/ 659).

[3] المرأة في القصص القرآني، المصدر السابق، (2/ 660).

[4] تفسير الزهراوين، ص552.

[5] تفسير القرآن الثري الجامع، (2/ 105).

[6] رواه مسلم، رقم 482.

3- ﴿وَارْكَعِي﴾:

الركوع: انحناء للظهر عبادة لله[1].

4- ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾:

مع المصلّين: فالمراد أن تصلّي مع المصلّين قرّاء بيت المقدس، أو تكون من جملة الذين يركعون لله (عزّ وجل).

فزيادة نعم الله يُشرع مقابلتها بمزيد من العبادة مع الدوام وعدم الانقطاع، والعمل على الجمع بين العبادات البدنيّة والعبادات القلبيّة، فالركوع والسجود بالبدن، والخشوف والخضوع بالقلب كما يجب الامتثال لأوامر الله والإخلاص له في العبادة[2].

لقد امتثلت مريم (عليها السلام) التوجيهات الربّانية، فكانت حياتها طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظين الخطير[3]، ألا وهو مولد عيسى (عليه السلام) من غير أب آية للعالمين على قدرة الله المطلقة وحكمته البالغة وإرادته النافذة، وعلمه الذي وسع كلّ شيء سبحانه وتعالى.

الحادي عشر: قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: 44].

في ذلك إشارة إلى مجموع الأخبار الواردة في الآيات السابقة من نذر امرأة عمران لما في بطنها لله، إلى ميلاد مريم وكفالة زكريّا لها، وبشارته بيحيى إلى كلام الملائكة لمريم[4].

1- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾:

هذه الأخبار من أنباء الغيب واعتبرتها الآية غيباً لأنّها وقعت في الماضي، وحدثت قبل قرون من حياة الرسول ﷺ، وبما أنّه لم يكن موجوداً عند حدوثها فهو غيب بالنسبة له، والله هو الذي أوحى بهذه الأنباء لرسوله ﷺ وأخبره بها، وهذا يُثبت نبوّة محمّد ﷺ ووجه دلالتها على النبوّة الوحي: أنّ أهل الكتاب من

---

[1] تفسير الزهراوين، ص553.

[2] تفسير الزهراوين، ص553.

[3] في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، 2018م، (1/ 396).

[4] المسيح عيسى ابن مريم، ص117.

اليهود والنصارى يعلمون أنّ محمّداً ﷺ أُميّ، لا يكتب ولا يقرأ وهذا معناه أنّه لم يعلم بهذه الأخبار من الكتب، ولم يُصاحب أحبار أهل الكتاب ورهبانهم فكيف علم بهذه الأخبار الخفيّة التي لا يعلمها إلّا عدد قليل من الأحبار والرهبان، إنّ الله هو الذي أوحى إليه بها فهو رسول الله ﷺ[1]، وقال الله لمحمّد ﷺ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهي إشارة إلى ما كان من تسابق سدنة المعبد إلى كفالة مريم، حين جاءت بها أمّها وليدة إلى المعبد وفاء لنذرها وعهدها مع ربّها، والنصّ يُشير إلى حادث لم يذكره (العهد القديم) ولا الجديد المتداولان، ولكن لا بدّ أنّه كان معروفاً عند الأحبار والرّهبان حادث إلقاء الأقلام – أقلام سدنة المعبد – لمعرفة من تكون مريم من نفسه، والنصّ القرآني لم يُفصّل في الحادث ربّما اعتماداً على أنّه كان معروفاً لسامعيه أو لأنّه لا يزيد شيئاً في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة، فلنا أن تفهم أنّهم اتفقوا على طريقة خاصّة – بواسطة إلقاء الأقلام – لمعرفة من هي من نصيبه، على ما نصنع من (القرعة) مثلاً، وقد ذكرت بعض الروايات أنّهم ألقوا بأقلامهم في نهر الأردن، فجرت مع التيّار إلّا قلم زكريّا فثبت.

وكانت هذه هي العلامة بينهم، فسلّموا بمريم له، وكلّ ذلك من الغيب الذي لم يكن الرسول ﷺ حاضره، ولم يبلغ إلى علمه، فربّما كان من أسرار المعبد التي لا تُفشَ ولا تُباح للإذاعة بها، فاتّخذها القرآن في مواجهة كبار أهل الكتاب وقتها دليلاً على وحي الله لرسوله الصادق ﷺ، ولم يرد أنّهم ردّوا هذه الحجّة، ولو كانت موضع جدل لجادلوه، وهم قد جاؤوا للجدال[2].

وهكذا نرى القرآن الكريم يُعطي الصورة الصحيحة بعلم في دقائق حال عيسى ونشأته وأمّه وهذا معيّن للباحثين عن الحقيقة في معرفة قصّى عيسى (عليه السلام) الصحيحة بعكس الأناجيل التي يؤمن بها النصارى فإنّها متعارضة ومتناقضة، وفي بعضها ما يؤكّد افتراءات اليهود على السيدة مريم، ففي إنجيل لوقا ومتّى حديث عن نسب عيسى (عليه السلام)، وأنّه عيسى ابن يوسف النجّار، وإن ورد الاختلاف في أسماء وأعداد أجداده إلّا أنّ الأناجيل متّفقة على أنّ عيسى ابن يوسف النجّار، وأنّ يوسف النجار كان خطيباً لمريم قبل ميلاد المسيح، وأنّه تزوّجها وأنجب منعا أولاداً آخرين كانوا بمثابة الإخوة لعيسى، وقصّة

[1] القصص القرآني، (4/ 82).

[2] في ظلال القرآن، (1/ 396).

يوسف النجار في الأناجيل متقاربة ومختلفة، وفي حين أثنى القرآن الكريم على مريم ووفّاها حقّها، فإنّ الأناجيل لم توضّح مكانتها عند الله، في حين بيّن القرآن الكريم طهارتها وشرف أصلها واصطفاءها[1].

إنّ ما ورد في الأناجيل في شأن عيسى (عليه السلام)، وفي شأن مريم متضارب متناقض بعيد عن الحقيقة منحرف عن الصواب، حتّى شُرَّاح الأناجيل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا في أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل، وقصّة يوسف النجّار قصّة متضاربة متناقضة مدسوسة مكذوبة، وليس له أيّ صلة بمريم (عليها السلام)[2]. ولم يكن لعيسى إخوة لا ذكور ولا إناث، وهذه التخرُّصات ليس لها سند من التاريخ، وعيسى وُلد من مريم العذراء التي لم يكن لها زوج[3].

وهذا التباين بين ما ورد في الأناجيل وبين ما ذكره القرآن الكريم عن مريم ونشأتها وطهرها وعفّتها حملها بالمسيح (عليه السلام) من غير أب لقدرة الله وحكمته يردّ على مزاعم المستشرقين بأنّ قسماً كبيراً من أخبار القرآن الكريم مقتبس من كتب اليهود والنصارى، فالقرآن كتاب الله تعالى الذي نزل بالحقّ على رسول الله ﷺ الذي جاء بالحقّ، والذي لا ينطق إلّا بالحق، والقرآن مهيمن على الكتب السابقة، وهو محفوظ من التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 62].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

إنّ النبيّ ﷺ أخبره الله (عزّ وجل) أنّ مريم البتول، أمّ عيسى (عليه السلام) كانت أفضل النساء، واختارها الله وفضّلها على نساء العالمين، وبيّن ذلك لمن حوله، وحديث القرآن الكريم عن مريم ومكانتها وتفضيلها وقصّة ابنها المسيح دليل على أنّ القرآن الكريم كلام الله.

وتوجد في القرآن صورة باسم سورة مريم، وهي السورة التاسعة عشرة من القرآن الكريم، واسم هذه السورة هو تكريم لمريم، أمّ المسيح عيسى (عليه السلام)، ومثل هذا التكريم أيضاً لم يسبغ على مريم في إنجيل المسيحيين، ولو أنّنا تصفّحنا (66) سِفراً للبروتستانت و(73) سفراً للروم الكاثوليك فإنّنا لا نجد أيّاً منها

---

[1] المرأة في القصص القرآني، (2/ 664).

[2] المرأة في القصص القرآني، المصدر السابق، (2/ 665).

[3] دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية، محمد علي البار، دار القلم، 2008م، ص101.

قد عنون تكريماً لمريم ولابنها المسيح (عليه السلام)، وسنجد كتباً من الإنجيل بعنوان: متّى أو مرقس أو لوقا أو يوحنّا أو بطرس أو بولس وستجد عناوين الأشخاص أقلّ أهميّة وشهرة، ولكنّك لن تجد واحداً بعنوان عيسى أو بعنوان مريم، ولو كانت محمد ﷺ هو مؤلف القرآن لما تعذّر عليه أن يُقدّم اسم أمّه آمنة مع اسم مريم أمّ المسيح، ولما تعذّر عليه أن يُقدّم أيضاً اسم خديجة زوجته الوفيّة أو اسم فاطمة ابنته المحبوبة، ولكن كلّا ثمّ كلّا، لأنّ القرآن ليس من صنع يديه[1].

[1] المسيح في الإسلام، أحمد ديدات، ص27.

المبحث الثالث:

قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة مريم:

قال تعالى: ﴿كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: 1-15].

سورة مريم مكيّة، وغرضها تقرير التوحيد، وتنزيه الله (عزّ وجل) عمّا لا يليق به وتقبيت عقيدة الإيمان والجزاء، ومحور هذه السورة يدور حول التوحيد والإيمان بوجود الله ووحدانيّته، وبيان منهج المهتدين، ومنهد الضالين[1]. وسُمّيت السورة بسورة مريم لاشتمالها على قصّتها كاملة ومفصّلة[2].

ومن مقاصد السورة، توريث دين الله للذريّة الصالحة، وتحدّثت السورة عن هموم زكريّا (عليه السلام) تجاه دين الله تعالى وحرصه على توريث ذلك لأبنائه، ولذلك طلب من الله في دعائه أن يرزقه ولداً ليقوم بهذه المهمّة ثمّ الحديث عن فقه قصّة مريم وبيان حقيقة أمرها والحديث عن قصّة إبراهيم مع والده، ثمّ الإشارة إلى حال الأنبياء، ثمّ عرضت النهايات لكلّ فريق، وأثر الشياطين في ردّ الناس عن دينهم ومنهجهم[3].

---

[1] مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، التليدي، ص156.

[2] مقاصد سورة القرآن، منذر أبو شعر، ص125.

[3] الخارطة القرآنية، د. مشعل الفلاحي، ص147.

وقد رسمت سورة مريم وسورة آل عمران شخصيّات زكريّا ويحيى في القرآن من خلال نصّين أساسيّين هما: الآيات من الثانية إلى الخامسة عشرة من سورة مريم المكيّة، والآيات من الثانية والثلاثون إلى الحادية والأربعين. ومع اختلافهما في الأسلوب وطريقة العرض، إلّا أنّهما يُقدّمان صورة تكاد تكون متطابقة للشخصين من حيث السمات المعروضة، ومن حيث المواقف التي قدّمت الشخصيّة أثناءها، ومع ذلك فإنّ كلّاً من النصّين يُقدّم إضاءة لطيفة للنصّ الآخر تعيّن على فهم أعمق للشخصية وظروفها، وأمّا ما يتعلّق باختلاف الأسلوب وطريقة العرض، فمردّه إلى طبيعة الموقف الذي تنزّلت فيه الآيات وموقعها في السياق العام للسورتين، فأحد الموضوعات الأساسيّة التي تُعالجها سورة مريم هو موضوع البعث والإحياء بعد الموت[1].

وسياق السورة يتدرّج في عروض قدرة الله (عزّ وجل) في هذا المجال فأوّل مراتب هذه القدرة هي قدرته (عزّ وجل) على جعل العقيم مخصّباً وثانيها قدرته على خلق عيسى من أمّه بدون أب وفي المرتبة الثالثة يأتي الحديث عن البعث بعد الموت، وهي الخارقة التي تبدو بعد التمهيد لها بالمرتبتين السابقتين، قريبة من الأفهام في مجال قدرة الله المطلقة من كلّ قيد، ولأنّ زكريّا وابنه يحيى (عليهما السلام) يمثّلان نموذجاً حيّاً لقدرة الله على الإحياء مع غياب بعض الشروط المألوفة، وهي أوّل مراتب القدرة المعجزة، فإنّ سورة مريم تبدأ مباشرة بعرض النموذج الحيّ لهذا الضرب من الشخوص أثناء تفاعلها بهذا الحدث المعجز، وأمّا في سورة آل عمران فتعرض شخصيّاً زكريّا ويحيى (عليهما السلام) في سياق العرض المفصّل الدقيق لحقيقة عيسى (عليه السلام) قبل ولادته وبعد ولادته في الآيات التي نزلت في وفد رؤساء نصارى نجران[2].

فمن تمام الحديث عن عيسى (عليه السلام) الحديث عن زكريّا كافل أمّه مريم وراعيها، وما وقع له من الأمور غير المألوفة بسبب مراقبته لها واقتباسه عنها[3].

عرضت مقدّمة سورة مريم شخصيّة زكريّا (عليه السلام) في لحظة من لحظات اتصالها بربّها لحظة الدعاء والمناجاة، ورسمت الآية الكريمة نموذجاً حيّاً عميقاً للشيخوخة البشريّة بصورة عامّة وللشيخوخة المؤمنة بصورة

---

[1] الشخصيّات القرآنية، د. نزيه محمد أعلاوي، ص149.

[2] السيرة النبوية، ابن هشام، دار الصحابة للتراث، طنطا، 2007م، (1/ 573- 584).

[3] الشخصيات القرآنية، د. نزيه أعلاوي، ص150.

خاصّة، ولقد اكتسب هذا النموذج حيويته بسبب تعبيره عن نفسه من خلال أحساسات مجرّب وسلوكه في لحظة بوح غير مسبوقة.

وأمّا شخصيّة يحيى الذي أنعم الله به على زكريّا، فإنّ جزءاً أساسيّاً من صورتها يتشكّل من خلال امتدادها الماضي في دعوة زكريّا النبيّ الشيخ (عليه السلام) وفي رؤيتها النور معجزة دالّة على قدرة الله الطليقة وأمّا صورتها الواقعيّة فتقدم من خلال الوصف المباشر وتعداد النعم التي خصّها بها الله (عزّ وجل)[1].

تفسير الآيات الكريمة:

أوّلاً: قال تعالى: ﴿كهيعص ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: 1-3].

تفسير الآية الكريمة:

1- ﴿كهيعص﴾:

الاستفتاح في سورة مريم كان بحروف التهجّي أو بالحروف المتقطّعة التي جاءت في تسع وعشرين سورة، وقد جاءت هذه الفواتح على صيغ مختلفة، فمنها ما هو مؤلّف من حرف واحد، وذلك في ثلاث سور: صاد وقاف والقلم، فالأولى مفتتحة بحرف (ص) والثانية بحرف (ق) والثالثة بحرف (ن)، ومنها ما هو مؤلّف من حرفين وذلك في عشر سور: سبع منها مفتتحة بهذين الحرفين (حم) وتسمّى الحواميم، وهي غافر أو(المؤمن) وفُصلت والشورى والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف، وبهذا الترتيب في المصحف.

أمّا الثلاثة الباقية فهي سورة (طه) المفتتحة بهذين الحرفين، والنمل المفتتحة ب(طس) وسورة (يس) المسمّاة بهذين الحرفين[2].

وأمّا الفواتح المؤلّفة من ثلاثة أحرف، فتتوزّعها ثلاث عشرة سورة ستٌّ منها بلفظ (ألم)، وهي في سورة البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة، وخمس منعا بلفظ (ألر)، وهي في سورة يونس وهود

[1] الشخصيات القرآنية، المصدر السابق، ص152.

[2] علوم القرآن، د. عدنان محمد زرزور، دار الأعلام، 2010م، ص309.

ويوسف وإبراهيم والحجر واثنان بلفظ (طسم) في سورتيَ الشعراء والقصص[1]. وهناك فوق هذه السورتان مفتتحتان بأربعة أحرف هما سورة الأعراف وفي مستهلّها (ألمص) وسورة الرعد وفي مستهلّها (ألمر)[2].

وبقيت صيغة واحدة مؤلّفة من خمسة أحرف (كهيعص) في أوّل سورة مريم، مع الإشارة إلى سورة الشورى السابقة – إحدى الحواميم – افتتحت كذلك بعد (حم) بآية أخرى مؤلّفة من ثلاث حروف في (عسق) يتبيّن من هذا أنّ مجموع الفواتح تسع وعشرون، وعدد الحروف الواردة فيها من غير تكرار أربعة عشرة حرفاً[3].

وقد قام الدكتور عدنان محمّد زرزور بكتابة رائعة ومتميّزة عن فواتح السور وأنواعها، وصيَغ الاستفتاح بالحروف المُطلقة، وأشهر ما قيل في تفسير هذا الحروف بأسلوب جمع بين المعاصرة والأصالة ثمّ قال في خاتمته، وتعقيبه على ما وصل إليه، والذي يترجّح عندنا أنّه أُريد بها المعنيّات الرئيسان السابقان: التحدّي والإعجاز من ناحية، والدلالة الموسيقيّة والتمهيد النفسي والشعوري من جهة أخرى، وهذا لا يتعارض مطلقاً مع ما ذهب إليه بعض السلف من اعتبارها أسماء للسور القرآنية كما أشرنا إلى ذلك من قبل، بل إنّ فيما ذهب إليه السلف ما يُشير إلى هذا الرأي الخامس الأخير، لأنّهم قالوا في هذه الفواتح: إنّها أسماء السور ومفاتيحها، بل إنّ حديثنا عن الدلالة الموسيقيّة والبناء الفنّي والتمهيد النفسيّ لا يعدو أن يكون شرحاً لهذه (المفاتيح)، ويمكن تخليص المعنيين المشار إليها بأنّ الغرض في أوّلهما وهو التحدّي، يتعلّق بالمخاطبين، وأمّا الغرض في الثاني فيتعلّق بدور هذه الفواتح في بناء النصّ أو السور القرآنيّة ذاتها، علماً بأنّ الصلة بين هذين الغرضين أو المعنيين ليست بخافية والله أعلم[4].

وقد ذكر أشهر ما قيل في تفسير هذه الحروف بشيء من التوسّع نذكر منها:

أ– الرأي الأوّل:

إنّ هذه الحروف أسماء من أسماء الربّ (جلّ جلاله) فُرّقت في القرآن كما قال السُّدّي[5]. أو هي اسم من أسمائه أو صفة من صفاته روى عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما) في قوله (ألم) أنّ الله أعلم، أي أنّ الألف

---

[1] علوم القرآن، والمصدر السابق، ص309.

[2] علوم القرآن، والمصدر السابق، ص309.

[3] علوم القرآن، والمصدر السابق، ص310.

[4] علوم القرآن، والمصدر السابق، ص330.

[5] الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 2009م، (2/ 514).

من (أنا) واللام من (الله) والميم من (عليم) ورُوي أنّ الألف من (الله) واللام من (لطيف) والميم من (مجيد)، وفي قوله تعالى (ألمص): أنا الله أفضل، وفي قوله (ألر): أنا الله أرى، أو هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذف بقيّتها كقوله (ألم): إنّ الألف (الله) واللام من (جبريل) والميم من (محمد) في إشارة إلى أنّ القرآن كلام الله تعالى، نزل به جبريل على محمّد ﷺ.

ورُوي عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أنّه قال: الحروف المقطّعة في القرآن هي اسم الله الأعظم، إلّا أنّا لا نعرف تأليفه منها[1].

ويرى بعض العلماء، في إطار هذا الرأي، أنّ هذه الحروف لو وصلت صارت اسماً من أسماء الله تعالى كقولك (الرحمن) هو (الر) (حم) (ن) وروى هذا عن ابن عبّاس قال: إنّها حروف (الرحمن)[2]، مفرّقة ولكن هذا إنّما يأتي في بعض الحروف دون جميعها[3]، وقد اختار الزجّاج الرأي الأوّل المشار إليه وقال: إنّ العرب تكلّمن بالحروف المقطّعة للدلالة على بعض الكلمات المتضمّنة لهذه الحروف كقوله: فقلت لها قفي فقالت (ق) فعبّر عن قولها (وقفت) بحرف (قاف).

ولكنّ الذي يؤخذ على هذا التفسير بوجه عام: التحكّم والافتقار إلى قاعدة مطّردة أو منضبة، فقوله تعالى: (المص) – مثلاً – ليس هناك ما يؤكّد جملة على تفسير ابن عبّاس السابق، دون أن تقول مثلاً: أنا الله أصور..، والميم من (الم) ربما كانت من المجيد او الماجد[4].

ب– الرأي الثاني:

قال زيد بن أسلم: هذه الحروف هي أسماء للسور التي استهلّت بها وقال الحسن البصري: سمعت السلف يقولون: إنّها أسماء السور ومفاتيحها[5].

ولا يخلو هذا الرأي من بعض الاعتبار.

---

[1] المحرر الوجيز، (1/ 138)، علوم القرآن، د. عدنان زرزور، ص314.

[2] علوم القرآن، د. عدنان زرزور، ص314.

[3] علوم القرآن، المصدر السابق، ص314.

[4] علوم القرآن، المصدر السابق، ص314.

[5] علوم القرآن، المصدر السابق، ص315.

ج- الرأي الثالث:

قال قطرب والقرّاء وأبو مسلم الأصفهاني: هي إشارة إلى حروف المعجم، كأنّه يقول للعرب: إنّما تحدّيتكم بنظم هذه الحروف التي عرفتم[1]؛ أيّ أنّ هذه الحروف المقطّعة للتحدّي والإعجاز وتيّار أنّ القرآن الكريم الذين أعياهم أمره حتّى وصفه كبيرهم الوليد بن المغيرة بأنّه سحر وكان بالطبع سبيل أصحاب الرشد منهم إلى الإيمان والإسلام، هذا القرآن إنّما هو مؤلّف من هذا القدر الذي يستطيعه أو يقدر عليه المقدّمون منهم في هذا الباب فهذا تحدّي ظاهراً جليّاً وممّا يسانده:

- إنّ هذه الأحرف، قد استهلّت بها السور المكيّة حتّى كانت من ضوابطها أو من علاماتها، ولا يُستثنى من ذلك سوى سوريَ (البقرة) و(آل عمران) وهما من أوّل ما نزل بالمدينة بعد الهجرة: (البقرة – الأنفال- آل عمران)[2].

2- ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾:

جاء الحديث بعد الحروف المقطعة بالحديث بعد ذلك مباشرة عن دعاء زكريّا (عليه السلام) وخاطب الله نبيّه محمّد ﷺ بأنّه سيذكر له رحمته بزكريّا (عليه السلام) ووصف الله زكريّا بالعبوديّة لله (عبده زكريّا)، وهذا وصف للتكريم والتشريف لأنّ مقام العبوديّة لله هو أعلى المقامات وأشرفها[3].

والعبوديّة مقام كريم ودرجة سامية يوصف بها المقرّبون والعبوديّة لله تعالى غنى ورفعة وعزّ، وأمّا العبوديّة لغيره – سبحانه – فهي فقر وذل وضعه فما أسوأ أن يكون الإنسان عبداً للشيطان، عبداً لشهواته، عبداً لهواه، عبداً للمال، عبداً للمنصب والمال والسلطان، يبيع في سبيل ذلك دينه ومبادئه[4].

أ- قال الشنقيطي – رحمه الله –:

في قول الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هذا ذكر رحمة ربّك، وقيل: مبتدأ خبره محذوف، وتقديره: فيما يُتلى عليكم ذكر رحمة ربّك والأوّل أظهر، وقوله ﴿زَكَرِيَّا﴾ بدل من قوله ﴿عَبْدَهُ﴾

---

[1] المحرر الوجيز، ابن عطيّة، (1/ 139).

[2] علوم القرآن، ص316.

[3] القصص القرآني، الخالدي، (1/ 114- 115).

[4] تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 2011م، ص34.

أو عطف بيان عليه، وقد بيّن (جلّ وعلا) في هذه الآية: أنّ هذا الذي يُتلى في أوّل هذه السورة الكريمة هو ذكر الله رحمته التي رحم بها عبده زكريّا حين ناداه نداءً خفيّاً: أي دعاه في سرّ وخفية[1].

ب– قال الرازي – رحمه الله–:

يحتمل أن يكون المراد من قوله ﴿رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾؛ أعني عبده زكرياء، ثمّ في كونه رحمة وجهان:

أحدهما: أن يكون رحمة على أمّته لأنّه هداهم إلى الإيمان والطاعات.

والآخر: أن يكون رحمة على نبيّنا محمّد ﷺ، وعلى أمّة محمّد؛ لأن الله تعالى لمّا شرح لمحمّد ﷺ طريقه في الإخلاص والابتهال في جميع الأمور إلى الله تعالى صار ذلك لفظاً داعياً له ولأمّته إلى تلك الطريقة، فكان زكرياء رحمة، ويحتمل أن يكون المراد أنّ هذه السورة فيها ذكر الرحمة التي رحم بها عبده زكريّا[2].

فالله (عزّ وجل) يقول لمحمّد ﷺ: هذا الذي نذكره لك يا محمّد، هو جانب من قصّة عبدنا زكريّا، وطرف من مظاهر الرحمة التي اختصصناه بها، ومنحناه إياها[3].

3– ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾:

يُناجي زكريّا (عليه السلام) ربّه بعيداً عن عيون الناس، بعيداً عن أسماعهم في عزلة يخلص فيها لله ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾، و﴿خَفِيًّا﴾ صفة مبالغة من خفى، أي أنّه بالغ في إخفاء دعائه فلا يعلمه قومه؛ ولأنّه مناجاة لله، وضراعة إليه وهو لا يلتجئ إلّا إليه وحدة: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ﴾ [الأعراف: 205]، وقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55][4]. وقد قال العلّامة الشنقيطي – رحمه الله –: وثناؤه – جلّ وعلا – عليه أن يكون دعائه خفيّاً يدلّ على أنّ إخفاء الدعاء أفضل من إظهاره وإعلانه، وهذا المعنى المفهوم من هذه الآية جاء مصرّحاً به في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: 63]. وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: 55].

---

[1] أضواء البيان، الشنقيطي في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، 2013م، (4/ 220).

[2] مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ، (21/ 180– 181).

[3] القصة في القرآن الكريم، ص684.

[4] زهرة التفاسير، (9/ 4609).

وإنّما كان الإخفاء أفضل من الإظهار؛ لأنّه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد من الرياء، فقول من قال: إنّ سبب إخفائه دعاءه أنّه خوفه من قومه أن يلوموه على طلب الولد، في حالة لا يمكن فيها الولد عادة لكبر سنّه وسنّ امرأته، وكونها عاقراً، وقول من قال: إنّه أخفاه لأنّه طلب أمر دنيوي، فإن أجاب الله دعاءه فيه نال ما كان يُريد وإن لم يُجبه لم يعلم ذلك أحد، إلى غير ذلك من الأقوال، كلّ ذلك ليس بالأظهر، والأظهر أنّ السرّ في إخفائه هو ما ذكرنا من كون الإخفاء أفضل من الإعلان في الدعاء ودعاء زكريّا هذا لم يُبيّن الله في هذا الموضع مكانه ولا وقته ولكنّه أشار إلى ذلك في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)﴾ [آل عمران: 37-38]، فقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي في ذلك المكان الذي وجد فيه ذلك الرزق عند مريم، وقال بعضهم: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ أي في ذلك الوقت بناء على أنّ (هنا) ربّما أُشير بها إلى الزمان[1].

وبيّن القرآن الكريم موضوع النداء قال تعالى:

ثانياً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: 4].

كان دعاء زكريّاء (عليه السلام) بينه وبين الله (عزّ وجل) بلا واسطة، ولا حرف النداء، وإنّ ربّه لسميع ويرى من غير دعاء ولا نداء، ولكنّ المكروب يستريح إلى البثّ ويحتاج إلى الشكوى، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستحبّ لهم أن يدعوه وأن يبثّوه ما يضيق به صدورهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]؛ ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ولتطمئنّ قلوبهم إلى أنّهم قد عهدوا بأعبائهم إلى من هو أقوى وأقدر، ليستشعروا صلتهم بالجانب الذي لا يُضام من يلجأ إليه ولا يخيب من يتوكّل عليه[2].

---

[1] أضواء البيان، (4/ 220- 221).

[2] في ظلال القرآن، (4/ 2302).

1- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾:

قال الزمخشري – رحمه الله –: إنّما ذكر العظم لأنّه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقطت قوّته، ولأنّه أشدّ ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ووحده لأنّ الواحد هو الدالّ على معنى الجنسيّة، وقصده إلى هذا الجنس الذي هو العمود والقوام، وأشدّ ما تركّب منه الجسد الذي قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر وهو أنّه لم يهن منه بعض عظامه لكنّ كلّها[1].

2- ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾:

ولم يقل وشاب شعر رأسي للدلالة على أنّه ما من شعرة في رأسه بقيت على حالها، حتّى أنّه يبدو للناظر من شدّة البياض أنّ جلدة الرأس أيضاً قد اعتراها الشيب، وهذا كناية شدّة الكبر ودنوّ الأجل[2].

– قال العلّامة ابن كثير – رحمه الله –: أي: اضطرم المشيب في السواد كما قال ابن دُريد في مقصورته:

إمّا ترى رأسي حاكي لونه

طُرّة صبح تحت أذيال الدُّجى

واشتعل المبْيَضُّ في مُسوده

مثل اشتعال النار في جمر الغضا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر ودلائله الظاهرة والباطنة[3].

– قال العلّامة السمين الحلبي – رحمه الله –: أي: أسرع فيه الشيب إسراع النار في الحطب وهو أبلغ الاستعارات، ولم يكتف بالاستعارة حتّى أسند الاشتغال إلى الرأس، وأخرج الشيب تمييزاً مبالغة في ذلك والأصل اشتغل شيب الرأس[4].

---

[1] الكشاف، الزمخشري، دار الريان للتراث، القاهرة، ط3، 1987م، (2/ 502).

[2] قصص القرآن، محمد بكر إسماعيل، ص328.

[3] تفسير القرآن العظيم، (5/ 211- 212).

[4] عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، دار الكتب العلمية، ط1، 1996م، (2/ 318)، الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص231.

وقد فصل الشيخ صديق خان – رحمه الله –: أكثر عن الفريدة القرآنيّة فقال: الاشتغال في الأصل انتشار شعاع النار فشبّه به بياض شعر الرأس في سواده بجامع البياض والإنارة ثمّ أخرجه مخرج الاستعارة بالكناية[1]، بأن شبّه المشبّه به، وأداة التشبيه، وهذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها[2].

وإذا كان الأمر كذلك فلمَ آثر الذكر الحكيم التعبير بتلك الفريدة دون غيرها؟

أرى – والله أعلم –أنّ فيها دلالات جمّة، وإيماءات مهمّة منها:

– أنّ الفريدة (اشتغل) أدقّ لفظاً، وأقوى دلالة من انتشر مثلا، إذ تُفيد بذاتها – لمن يتأمّلها بدقّة –أنّ جميع رأس زكريّا (عليه السلام) شعرة شعرة قد صار كلّه أشيب، وهذا يعني أنّه قد بلغ من الكِبر حدّاً لا يقدر معه أن يُنجب، بدليل أنّ عمود بدنه وقوام صليه وهي عظامه قد وهنت وفترت.

ومن أمارات هذا الوهن أنّ الشيب قد شَمِل رأسه كلّها بصورة لا يتوقّع من يراها أن يكون من صاحبها إنجاب، فوقعت الفريدة في موقعها الأليق بها، ولا يمكن لغيرها أن يسدّ مسدّها، علاوة أنّها من أجمل الاستعارات كما أجمع العلماء إذ صوّرت الشيب كأنّه نار قد اشتدّ لهبُها وضرامها فأخذت في الاشتعال حتّى شملت الرأس كلّه فلم يبق فيه سواد البتّة[3].

وقد ذهب البلاغي الكبير عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله – في هذه اللفظة مذهباً مُغايراً فهو يرى أنّ الفضل والمزيّة والاستعارة في هذه اللفظة لا يعود إليها ذاتها بل إلى النظم الذي حلّت فيه، ولو غُيّر هذا النظم لذهبت الجدة والروعة والفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي فيه، ولكنّا نوجبها لها موصولة بغيرها، ومعلّقاً معناها بمعنى ما يليها، فإذا قلنا: في لفظة (اشتغل) من قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ إنّها في أعلى رتبة من الفصاحة لم توجب تلك الفصاحة لها وحدها، ولكن موصولاً بها الرأس معرّفاً بالألف واللام ومقروناً إليهما الشيب منكراً منصوباً[4].

والذي جعا الإمام الجهبذ يذهب هذا المذهب وينفي الفصاحة والجدة والروعة عن الكلمة مفردة قبل أن تدخل سياقها أنّه في كتابه (دلائل الإعجاز) كان يُدافع عن إعجاز القرآن الكريم في وجه طوائف عديدة

---

[1] فتح البيان، صديق خان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، 1992م، (6/ 5)، فتح القدير، (3/ 321).

[2] الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص232.

[3] الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، المصدر السابق، ص233.

[4] دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992م، ص402– 403، الإيضاح، القزويني، ص337

ارتأى البعض أنّه يرجع إلى المعنى، وبالغ بعضها فارتأى أنه يعود إلى اللغظ، أمّا الإمام فقد رأى أن الإعجاز يكمن في النظم جملة واحدة دون النظر إلى اللفظ[1]، إلّا من خلال هذا النظم، وهذا – وإن كنّا نسلم له به –لا يقلل من شأن انتفاء القرآن لألفاظه مفردة، فهي منتقاة في مكانها في أعلى درجات الانتقاء والاصطفاء، وإذا قورنت بما يُقاربها – وهي مفردة – ظهر فيها من الدلالات والإيحاءات ما ليس في غيرها كما أثبته تلك الدراسة، ولو ذهبنا إلى ما ذهب إليه الإمام – عليه سحائب الرحمة تترى –وقلنا: إنّ لفظة (انتشر) تصلح مكان (اشتعل) لفات بهذا كثير من الإيماءات التي توحي بها تلك الفريدة[2].

والفرائد القرآنية لها أسرار بلاغية أفاد وأجاء الدكتور عبد الله عبد الغني سرحان في كتابه (الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية) فقد أوضح بيان مدى الدقّة الشديدة في اصطفاء القرآن لألفاظه اصطفاء فاق الوصف وبلغ الحدّ، كما أثبت كتاب المذكور بوضوح شديد[3].

وفي الفريدة (اشتعل): لون من التخييل يتمثّل في الحركة الممنوحة لما من شأنه السكون، فحركة الاشتعال هنا تُخيّل للشيب في الرأس حركة كحركة اشتعال النار في الهشيم[4].

وهذا التصوير لا يوجد في غير تلك الفريدة القرآنية، في الفريدة إيماء إلى تفرّد موضعها في الذكر الحكيم وإلى تفرّد هذا الموقف في تاريخ الأنبياء والإنسانية جمعاء، وهذا الموقف يختلف عن موقف إنجاب خليل الله إبراهيم لإسحاق وهو شيخ كبير من وجوه عديدة منها: أنّ إبراهيم (عليه السلام) سبق له إنجاب إسماعيل، وزكريّا (عليه السلام) لم يُنجب أحداً من قبل يحيى، وإبراهيم (عليه السلام) لم يطلب من ربّه في كبره أن يُنجب ولداً آخر غير إسماعيل، لكن جاءته البشرى بالإنجاب على غير توقّع كما يُفهم من الآيات، وزكريّا (عليه السلام) طلب ذلك من ربّه مباشر، وقدّم الأعذار التي تمنعه من الإنجاب بصورة طبيعيّة، وسارة زوج إبراهيم (عليه السلام) كانت عجوزاً بنصّ القرآن الكريم، أمّا امرأة زكريّا (عليه السلام) فكانت عاقراً بنصّ آيات القرآن الكريم، وبينهما فرق كما ترى، فالموقفان متغايران، وكلّ منهما كان أمراً مُعجزاً خارقاً للعادة فريداً في تاريخ الإنسانيّة، ومن ثمّ عكست الفرائد في الموقفين تفرّد تلك الحالتين والله أعلم[5].

---

[1] الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، ص233.

[2] الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، المصدر السابق، ص234.

[3] الأسرار البلاغية في الفرائد القرآنية، المصدر السابق، ص234.

[4] التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط10، 1988م، ص 78، بتصرف يسير.

[5] الأسرار البلاغية، ص235.

3- ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾:

- قال العلّامة الشنقيطي – رحمه الله –: أي: لم أكن بدعائي إيّاك شقيّاً، أي لم تكن تُخيّب دعائي إذا دعوتك، يعني أنّك عوّدتني الإجابة فيما مضى.. ولا شكّ أنّ إجابة الدعاء من السعادة، فيكون عدم إجابته من الشقاء[1].

- وقال العلّامة القرطبي – رحمه الله –: قال العلماء: يستجيب للمرء أن يذكر في دعائه نعم الله تعالى عليه، وما يليق بالخضوع، لأنّ قوله تعالى: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ إظهار للخضوع، وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ إظهار لعادات تفضّله في إجابته أدعيته، أي لم أكن بدعائي إيّاك شقيّاً، أي: تكن تُخيّب دعائي إذ دعوتك، أي: إنّك عوّدتني الإجابة فيما مضى، يُقال: شقي بكذا أي تعب فيه ولم يحصل مقصوده[2].

- قال العلّامة الألوسي – رحمه الله تعالى –: وهذا توسّل منه (عليه السلام) بما سلف منه تعالى من الاستجابة عند كلّ دعوة إثر ما يستدعي الرحمة من كبر السنّ وضعف الحال، فإنّه تعالى بعدما عوّد عبده الإجابة دهراً طويلاً لا يكاد يخيّبه أبداً، لا سيما عند اضطراره وشدّة افتقاره، وفي هذا التوسّل من الإشارة إلى عِظم كرم الله (عزّ وجل) ما فيه[3].

وقال الدكتور وهبة الزحيلي: ويلاحظ أنّه ذكر مسوّغات ثلاثة لدعائه، تستدعي العطف والرحمة والشفقة، وهي:

- ضعف البدن باطناً وظاهراً، أي ضعف العظام وظهور الشيب.

- كونه مستجاب الدعاء، فلم يكن في وقت من الأوقات خائباً، بل كان كلّما دعا ربّه أجابه.

- خوفه من ورثته من ضياع الدين وما يوحى إليه بعد موته، ولم يكن خوفه من إرث المال، فإنّ النبيّ أعظم منزلة وأجلّ قدراً من الإشفاق على ماله، ولأنّه لم يكن ذا مال، وإنّما كان نجاراً يأكل من كسب يده، ولأنّه

---

[1] أضواء البيان، (4/ 222- 223).

[2] الجامع لأحكام القرآن، (11/ 77).

[3] روح المعاني، الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994م، (16/ 60).

كما ثبت في الصحيحين أنّ رسول الله ﷺ قال: لا نورث، ما تركنا صدقة، وفي رواية للترمذي: نحن معشر الأنبياء لا نورث، ويكون ميراث الأنبياء هو رسالة النبوّة أو العلم والمحافظة على الدين والدعوة إليه[1].

ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: 5].

1- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾:

- ﴿الْمَوَالِيَ﴾؛ الذين يلونه في النسب والمراد بنو عمّه وعصبته.
- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾؛ أي من بعدي إذا متّ أن يغيروا في الدين والموالي الأقارب والعصبيّات، ومن ذلك قوله: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: 33].

والمولي لغة العرب: يُطلق على كلّ من انعقد بينك وبينه سبب يواليك وتواليه به، وكثيراً ما يُطلق في اللغة على ابن العمّ؛ لأنّ ابن العمّ يوالي ابن عمّه بالقرابة العصبيّة ومنه قول طرفة بن العبد:

وأعلم علماً ليس بالظنّ أنّه

إذا ذلّ مولى المرء فهو ذليل

يعني إذا ذلّت بنو عمّه فهو ذليل.

وقو الفضل بن العبّاس بن عتبة بن أبي لهب:

مهلاً بني عمّنا مهلاً موالينا

لا تنبشوا بيننا ما كان مدفوناً[2]

والآية تبيّن سبب دعاء زكريّا ولهفته للولد هو خوفه أن يضيع عشيرته وأقاربه وبني عمّه وكانوا أشرار بني إسرائيل، أن يضيّعوا الدين ولا يُحافظوا على العلم بعد موته، فقد كانوا على عادتهم في الشرّ والفساد، وخوفه على الدين أن يغيّروه[3].

---

[1] التفسير المنير، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1991م، (8/ 389).

[2] التدبر والبيان في تفسير القرآن، (201/ 327).

[3] أحسن القصص في القرآن، نائلة هاشم صبري، ص425.

ويواصل زكريّا دعاءه قائلاً: فأعطني يا رب من واسع فضلك ووهب لي وارزقني ابناً صالحاً يتولّاني ويخلفني في قومي ويُحسن الوراثة والقيام على التراث، تراث العقيدة والمحافظة عليه[1].

- ﴿مِنْ وَرَائِي﴾؛ أي: بعد موتي، من تضييع لأمور الدين[2].

2- ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾:

ظاهر على أنّها كانت عاقراً في زمن شبابها، والعاقر: هي العقيم التي لا تلد، وهو يُطلق على الذكر والأنثى، فمن إطلاقه على الأنثى هذه الآية، وقال تعالى عن زكريّا أيضاً: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: 40].

ومن إطلاقه على الذكر قول عامر بن الطفيل:

لبئس الفتى إن كنت أعور عاقراً

جباناً فما عذري لدى كلّ محضر

وقد أشار تعالى إلى أنّه أزال عنها العقم، وأصلحها، فجعلها ولوداً بعد أن كانت عاقراً في قوله (عزّ وجل): ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: 90].

فهذا الإصلاح هو كونها صارت تلد بعد أن كانت عقيماً[3].

3- ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾:

قال القرطبي – رحمه الله –: سؤال ودعاء، ولم يُصرح لولد لما علم من حاله وبعده عنه بسبب المرأة، قال قتادة: جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة، وقال مقاتل: خمس وتسعين سنة، وهو أشبه، فقد كان غلب على ظنّه أنّه لا يولد له لكبره، ولذلك قال: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾، وقالت طائفة: بل طلب الولد ثمّ طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتّى يرثه تحفّظاً من أن تقع الإجابة في الولد، ولكن يحترم ولا يتحصل منه الغرض[4].

---

[1] أحسن القصص في القرآن، المصدر السابق، ص425.

[2] القصة في القرآن الكريم، ص686.

[3] التدبر والبيان، (20- 328).

[4] الجامع لأحكام القرآن، (11/ 79- 80).

قال الشنقيطي – رحمه الله تعالى –: يعني بهذا الولي الولد خاصّة دون غيره من الأولياء، بدليل قوله تعالى في القصّة نفسها: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38].

وأشار إلى الولد أيضاً بقوله: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89]، فقوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾؛ أي: واحداً لا ولد له[1].

رابعاً: قال تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 6].

1- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾:

والمراد بالوراثة وراثة العلم والنبوّة والصفات الحميدة[2].

وقال ابن كثير – رحمه الله –: عند قوله ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾: وجه خوفه أنّه خشي من وراثتهم له ماله، فإنّ النبيّ أعظم منزلة وأجلّ قدراً من أن يُشفق على ماله إلى هذا حدا، وأن يأنف من ورثه عَصَباته له، ويسأل أن يكون له ولد ليجوز ميراثه دونهم هذا وجه.

الثاني: أنّه لم يذكر أنّه كان ذا مال، بل كان نجّاراً يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً، ولا سيما الأنبياء فإنّهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

الثالث: أنّه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أنّ رسول الله ﷺ قال: لا نورث ما تركنا فهو صدقة.

وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: نحن معشر الأنبياء لا نورث. وعلى هذا فتعيّن حمل قوله ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوّة، ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16]؛ أي في النبوّة، إذ لو كان في المال لما خصّه من بين إخوته بذلك، ولما كان من الإخبار بذلك كبير الفائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أنّ الولد يرث أباه، فلولا أنّها وراثة خاصّة لما أخبر بها[3].

يقول الشيخ الدكتور عثمان الخميس – حفظه الله –: في تفسير الآية الكرية: هو ميراث النبوّة والعلم، ولذلك قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، فلم يتميّز آل يعقوب بالأموال وإنّما تميّزوا بالنبوّة، فيعقوب

---

[1] أضواء البيان، (4/ 228).

[2] القصة في القرآن الكريم، ص686.

[3] تفسير القرآن العظيم، (5/ 212-213).

نبيّ الله وولده يوسف نبيّ ومن نسله موسى نبيّ (عليه السلام)، ومن نسله الأسباط أنبياء، وداود وسليمان، فهو يريد ميراث النبوّة وليس المال، ثمّ بنو إسرائيل هم آل يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل فهل يُعقل أنّ آدمياً يقول: أريد ولداً يرثني ويرث بني إسرائيل، وكم هو بنو إسرائيل؟ هم ألوف، عشرات الألوف، بل الملايين، فكيف يقول يرثني ويرث من آل يعقوب؟

هذا لا يُعقل أن يكون ميراث المال؟[1]، وسار على هذا النهج علماء أهل السنّة في بيان هذه الآية من المتقدّمين والمتأخّرين.

2- ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾:

ولمّا طلب زكريّا (عليه السلام) من ربّه الولد، التفت التفاته إيمانيّة، أخلاقيّة سلوكيّة، فقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي: ربّ اجعل انبي وارثي رضيّاً، و(رضيّ) بمعنى اسم مفعول (مرضيّ).

قال ابن كثير في تفسيره ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي: مرضيّاً عندك وعند خلقك، تحبّه أنت، وتحببه إلى خلقك[2].

ولا ينسى زكريّا النبيّ الصالح، أن يُصوّر أمله في ذلك الوريث الذي يرجوه في كبره ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ لا جبّاراً ولا غليظاً ولا منتظراً ولا طموعاً، ولفظه (مرضي) تلقي هذه الظلال، فالرضيّ هو الذي يرضى ويُرضي، وينشر ظلال الرّضا فيما حوله ومن حوله[3].

إنّ زكريّا (عليه السلام) يريد أن يكون ابنه الوارث راضياً مرضيّاً رضيّاً، وأن تبني شخصيّته على الرضا، وعندما يكون رضيّاً سيكون فرحاً سعيداً مسروراً، وستكون علاقته بالآخرين قائمة على السعادة واليسر والرضا، سيحبّهم ويحبّونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه وتألف ويؤلّف.

والرضيّ ليس حادّاً ولا عصبيّاً ولا شاكياً وليس مُعقِّداً ولا مكتئباً ولا حزيناً، الرضيُّ سهل المعاملة واسع الصدر، حليم النفس، حسن الخلق[4].

---

[1] فبهداهم اقتده، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، ط1، 2010م، ص429.

[2] تفسير ابن كثير، (3/ 109).

[3] في ظلال القرآن، (4/ 2302).

[4] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 119).

- ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾؛ أي: برّاً تقيّاً صالحاً ترضى والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا الآخرة، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدّ المسرّة والنعمة[1].

وهذا دعاء زكريّا بالولد الصالح ليكون عوناً له على دعوته وتقرّ عينه بطاعته لربّه، وهذا من مطالب، وأدعية عباد الرحمن كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

كما يكونون ذكر لهم بعد موتهم، فالولد الصالح أجمل شيء يخلّفه الإنسان بعد موته ورحيله من الدنيا[2]، وصدق رسول الله ﷺ بقوله: إذا مات الإنسان انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له[3].

واستجاب الله دعاءه ونادا سبحانه بواسطة الملائكة[4].

خامساً: قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7].

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

يُبيّن الله لنا السبب الذي لأجله استجاب الله ادعاءه وكأنّه سبحانه يقول لنا: من أراد أن يستجيب الله كما استجاب الله دعاء زكريّا فليكن مثل زكريّا بأن يجتهد في المسارعة في الخيرات والدعاء لله رغباً ورهباً وأن يُخلص خشوعه وانقياده واستسلامه لله (عزّ وجل)، فلا يكمن أن يعص الإنسان بالليل والنهار ثمّ يقول سألت الله فلم يستجب لي، كما قال النبيّ ﷺ وقد ذكر الرجل: يطيل السفر أشعث أغبر يرفع يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنّى يُستجاب له[5].

---

[1] تفسير القرطبي، (11/ 80)، التفسير الموضوعي، (5/ 149).

[2] التفسير الموضوعي، (5/ 148).

[3] رواه مسلم، رقم 1631.

[4] التفسير الموضوعي، (5/ 149).

[5] مسلم، رقم 1025، فبهداهم اقتده، ص434.

1- قال العلّامة القرطبي:

في تفسيره للآية الكريمة – رحمه الله –: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾ في الكلام حذف أي فاستجاب الله دعاءه، فقال: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ فتضمّنت هذه البشرى ثلاثة أشياء: أحدهما: إجابة دعائه وهي كرامه، والثاني: إعطاؤه الولد وهو قوّة، الثالث: أن يفرد بتسميته[1].

2- ﴿اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾:

ولمّا بشّر الله زكريّا بالغلام أخبره باسمه قبل حمل أمّه به وولادتها له[2]، ولم تكن تسميته لأبيه وفي هذا منقبة عظيمة ليحيى[3]، وهذا لون من التشريف والتكريم[4].

وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ (يحيى) مشتقّ من الحياة، وأنّه على وزن الفعل المضارع، تقول: حَيا، يحيا، كما تقول: عاش، يعيش، وإمات، يموت، وممن قال باشتقاقه الإمام الراغب، حيث قال في حكمة تسميته بهذا الاسم: وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾؛ فقد نبّه أنّه سمّاه بذلك من حيث إنّه لم تمته الذنوب، كما أماتت كثيراً من ولد آدم، لا أنّه كان يُعرف بذلك الاسم فقط، فإنّ هذا قليل الفائدة والمراد بالحياة هنا عند الراغب الحياة الإيمانيّة المعنوية، فالحيّ هو الذي حيّ قلبه وروحه وإيمانه، إذ لم تُمِت المعاصي والذنوب قلبه.

وقال قتادة: سُمّي يحيى لأنّ الله أحياه بالإيمان والنبوّة. وقال مقاتل: اشتُقّ اسم يحيى من اسم الله (حيّ)، وقال بعضهم: سُمّي بذلك لأنّ الله أحيا به الناس بالهدى. وقال آخرون: سُمّي بذلك لأنّ الله أحيا به رحم أمّه[5]. وتدور هذه الأقوال كلّها على أنّه مشتقّ من الحياة، سواء كانت حياة حسيّة أو حياة معنويّة[6]. وإن الراجع أنّ اسم (يحيى) ليس مشتقّاً، لأنّه اسم علم أعجميّ، وهو ممنوع من الصرف، للعلميّة والعجمة.

إنّ زكريّا ويحيى ومريم وعيسى (عليهم السلام) إسرائيليّون، وليسوا عرباً، وعاشوا بين اليهود في الأرض المقدّسة، ولغة اليهود لغة عبريّة، وليست عربيّة، وأسماء أشخاصهم أسماء عبريّة أعجميّة، وليست عربية،

---

[1] الجامع لأحكام القرآن، (11/ 82).

[2] القصص القرآني، (4/ 129).

[3] أضواء البيان، (4/ 231- 232).

[4] القصة في القرآن الكريم، ص689.

[5] تفسير القرطبي، (4/ 76).

[6] القصص القرآني، (4/ 130).

فهذه الأسماء أعجميّة، وليست مشتقّة، ولا نبحث لها عن معنى اشتقاقي في العربيّة. ويحيى ابن زكريّا (عليهما السلام)، ذكرت له الأناجيل في العهد الجديد قصّة جرت بينه وبين عيسى (عليه السلام)، لكنّ مؤلّفي الأناجيل لم يُسمّوه يحيى، إنّما سمّوه (يوحنّا المعمدان).

ونحن نسميه الاسم الذي سمّاه الله به في القرآن[1].

3- ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾:

وأخبر الله زكريّا أنّ ابنه يحيى هو أوّل إنسان حمل هذا الاسم، فلم يُسمّ به أحد من قبل ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾، و ﴿سَمِيًّا﴾ بمعنى (مُسمّى)، فهو اسم مفعول، أي: لم نجعل شخصاً قبل يحيى مُسمّى بهذا الاسم.

و ﴿سَمِيًّا﴾ لم ترد إلّا في سورة مريم، وذُكرت فيها مرّتين:

الأولى: عن يحيى ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

الثانية: عن الله ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65].

قال الراغب: وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؛ أي: نظيراً له، يستحقّ اسمه، وموصوفاً يستحقّ صفته على التحقيق، وليس المعنى: هل تجد من يتسمّى باسمه، إذ كان كثير من أسمائه قد يُطلق على غيره، ولكن ليس معناه إذا استُعمل فيه كما كان معناه إذا استُعمل في غيره[2].

إذن معنى قوله عن الله ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؛ لم تجد نظيراً ولا مثيلاً لله، يستحقّ أن يُسمّى باسمه، لأنّه لا يفعل أحد فعله، ولا يتّصف أحد بصفاته، فالله هو الإله الربّ الخالق، وكلّ ما سواه لا إلهاً ولا رباً ولا خالقاً، فلا سميّ ولا نظير ولا مثيل له سبحانه[3].

وقد اختلف المفسّرون في معنى قوله عن يحيى: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾:

- فقال ابن عبّاس (رضي الله عنهما): لم تَلِد النساء العواقر ولداً مثله.
- وقال مجاهد: لم تجعل له من قبله مِثلاً أو شبيهاً.

---

[1] القصص القرآني، (4/ 130).

[2] المفردات، ص428- 429.

[3] القصص القرآني، (4/ 131).

- وقال قتادة: لم يُسمّ باسمه أحد قبله[1].

والأقوال الثلاثة متقاربة في الحقيقة، ولا تعارض بينها، فلم يُسمَّ أحد باسمه من قبله، وهو لا مثيل له، ولا شبيه له، حيث لم تلد النساء العواقر ولداً مثله[2].

4- تسمية المولود ووقتها:

في هذه الآية جواز تسمية المولود قبل ولادته، وهذا جائز بلا خلاف، وفيه جواز التسمية باسم لم يُسبق إليه ما كان المعنى حسناً، وقد جعل الله من خصائص اسم يحيى أنّه لم يسبق من قبل[3].

قال القرطبي – رحمه الله –: وفي هذه الآية دليل وشاهد على أنّ الأسامي السُّنع جديرة بالأثرة وإيّاها كانت العرب تنتجي في التسمية، لكونها أنبه وأنزه عن النبر[4].

وإنّ تسمية الأولاد بأسماء خاصّة هي شرعة الله تعالى للبشريّة منذ وجودها، وستبقى منذ وجودها، وستبقى حتّى تقوم الساعة مع الترغيب الشرعي باختيار أحسن الأسماء وأفضلها لأنّ الإنسان يدعى باستمرار اسمه، فيكون له من اسمه نصيب في الأخلاق والصفات وقال رسول الله ﷺ: إنّكم تُدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم[5]. وكان رسول الله ﷺ يُغير الأسماء القبيحة وفي ذلك عدّة أحاديث[6]. وقد سمّى النبيّ ﷺ ولده إبراهيم في اليوم الذي وُلد فيه، كما جاء في مسلم من حديث أنس مرفوعاً، قال: وُلد لي الليلة غلام سمّيته باسم أبي إبراهيم[7].

وفي الصحيحين: أنّه وُلد لأبي موسى ولد فأتي به النبيّ ﷺ فحنّكه وسمّاه إبراهيم[8].

وفي حديث عائشة (رضي الله عنها) قالت: عقّ رسول الله ﷺ عن حسن وحسين يوم السابع وسمّاهما. رواه ابن حبّان وغيره[9].

---

[1] تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، ط1، 1994م، (5/ 218).

[2] القصص القرآني، (4/ 131).

[3] التفسير والبيان، الطريفي، (4/ 1724).

[4] تفسير القرطبي، (13/ 417).

[5] سنن أبي داود، أبو داود الأزدي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1996، باب في تغيير الأسماء، (2/ 584).

[6] سنن الترمذي، رقم 2833-2839.

[7] أخرجه مسلم، رقم 2315.

[8] البخاري، رقم 5467، مسلم، رقم 2145.

[9] أخرجه ابن حبّان في صحيحه، رقم 5311، السنن الكبرى، البيهقي، (9/ 299).

سادساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8].

لمّا سمع زكريّا (عليه السلام) البشارة من ربّه، واطمأنّ إلى حصولها أغراه ذلك أن يوغل في معرفة الوسيلة وكيف سيتمّ ذلك وتتحقّق هذه البشارة حال كونه قد بلغ من الكبر عتيّاً وامرأته عاقر؟[1].

1- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾:

في جواب زكريّا (عليه السلام) أنّه لم يكن إنكاراً ولا استبعاداً، لأنّ هذا لا يليق بمقام النبوّة، ولم يكن أيضاً تعجّباً من طلاقة القدرة الإلهيّة، لأنّه رأى بعينه من كرامة السيّدة مريم (عليها السلام) لم يُفاجأ أولاً بالاستجابة، لأنّه كان مستجاب الدعاء، كما يدلّ عليه قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾، كما لم يُفاجأ ثانياً لمخالفة الأسباب للمسبّبات في تبشيره بالولد، لأنّه عاين تلك المخالفة في كرامة الله تعالى للسيدة مريم؛ ولأنّه يوقن بكمال القدرة الإلهيّة وطلاقتها، ولعلّ زكريّا (عليه السلام) أراد أن يتلذذ وهو في قمّة الفرح بإجابة سؤاله استحضاراً لمزيد من شكر الله تعالى على تلك المنّة التي وهبه إيّاها، والتي حطّمت نواميس العادة في هذا الشأن[2].

وقال الشيخ محمّد متولي: والواقع أنّ زكريّا (عليه السلام) لا يستنكر حدوث هذه البشرى، ولا يستدرك على الله، وحاشاه أن يقصد ذلك، وإنّما أفعمته البشرى في أن يعرف الكيفيّة، كما حدث في قصّة موسى (عليه السلام) حينما كلّمه ربّه واختاره وأفرده بهذه الميزة فأغراه الكلام في أن يطلب الرؤيا، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143].

وكما حدث في قصّة إبراهيم (عليه السلام) لمّا قال له ربّه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: 260]، وأبو الأنبياء لا يشكّ في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ولكنّه يُريد أن يعرف هذه الطريقة العجيبة، فالكلام ليس في الحقيقة وجوداً وعدماً، إنّما في كيفيّة وجود الحقيقة، والكلام في الكيفيّة لا دخل له بالوجود، وأخبره الحقّ سبحانه أنّ هذه المسألة لا تُقال إنّما تُباشر عمليّاً فأمره بما نعلم من هذه القصّة: وهو أن يُحضر أربعة من الطير بنفسه، ثمّ يضمّهنّ إليه ليتأكّد بنفسه من حقيقتها، ثمّ أمره أن يُقطّعهنّ

---

[1] تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الأسرة، 1992م، (15/ 9034).

[2] تأمّلات في سورة مريم، د. عادل أحمد الرويني، ص67.

أجزاء، ثمّ يفرق هذه الأجزاء على قمم الجبال، ثمّ بعد ذلك ترك له الخالق سبحانه أن يدعوهنّ بنفسه، وأن يصدر الأمر منه فتتجمّع هذه القطع المبعثرة وتدبّ فيها الحياة من جديد، وهذا من مظاهر عظمته سبحانه وتعالى أنّه لم يفعل، بل جعل من لا يستطيع ذلك يفعله ويقدر عليه[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260].

فقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾؛ سؤال عن الكيفيّة كما أنّ إبراهيم (عليه السلام) لمّا قال له ربّه ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾؛ أي: بقدرتي على إحياء الموتى، قال: ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: نعم أؤمن، ﴿وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؛ أي: إلى الكيفيّة التي يتمّ بها الإحياء[2].

إنّ زكريّا (عليه السلام) أراد أن يطمئنّ قلبه بمعرفة كيفيّة تحقّق الوعد[3].

ثمّ ذكر زكريّا (عليه السلام) حيثيّات تعجّبه من هذا السؤال، فقال.

2- ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾:

تعجُّب زكريّا (عليه السلام) تعجّب المؤمن بقدرة الله المطلقة حين أُجيب دعاؤه وفرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفيّة ما يولد له، والوجه الذي يأتيه منه الولد[4].

- ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾؛ لم تلد في أوّل عمرها مع كبرها وكبره، فتساءل متأثّراً بالأحوال المعتادة ولا مُستبعداً قدرة الله تعالى: كيف يكون لي ولد، وامرأتي عاقر لا تحل ولا تلد، وقد كبرت وضعفت؟[5]

- ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾؛ وهو السنّ الذي تعتو فيه العظام والمفاصل، أي: تيبس وتجف[6].

- ﴿عِتِيًّا﴾؛ العتيّ: النهاية في الكِبر واليُبس والجفاف، قال الشاعر:

إنّما يعذر الوليد ولا يعذر

---

[1] تفسير الشعراوي، (15/ 9035).

[2] تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (15/ 9036).

[3] التفسير الموضوعي، (5/ 151).

[4] التفسير المنير، (8/ 390).

[5] التفسير المنير، المصدر السابق، (8/ 390).

[6] التفسير الموضوعي، (5/ 150).

من كان في الزمان عتيّاً[1]

وهو حال لا سبيل إلى إصلاحها ومداواتها، فلا دواء للهرم والشيخوخة، ففي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ: ما أنزل الله من داء إلّا وأنزل له دواء[2]، ولأبي داود[3]، والترمذي[4]، بمعناه وزادا: غير داءٍ واحد، قالوا: ما هو؟ قال: الهرم.

ويُشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: 54]؛ فالضعف قرين الهرم والشيخوخة.

- ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾؛ وقد عتوت من الكبر فصرت نحيل العظام يابساً، فقال منه للعود اليابس: عات وعاس، وقد عتا يعتو عتو وعتيّاً، وكلّ متناه في كبر أو فساد، أو كفر فهو عات[5].

كان استفهام زكريّا (عليه السلام) على سبيل الاستعلام والاستخبار وعن كيفيّة من العلماء من قال لأنّه لم يكن يعلم أنّ الله تعالى سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى، فاستفهم عن الحقيقة ليعرفها ولا يمنع أن يكون المقصود بالاستفهام التعجب والسرور بهذا الأمر العجيب حيث رزقه الله الولد مع تقدّم سنّه وسنّ زوجته ثمّ حكى الله سبحانه ما ردّ به على استفهام زكريّا[6]، فقال.

سابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9].

1- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾:

(كذلك): خبر لمبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك.

---

[1] التدبر والبيان، (20/ 342).

[2] البخاري، رقم 5678.

[3] سنن أبي داود، رقم 3855.

[4] سنن الترمذي، رقم 2039.

[5] تفسير الطبري، (16/ 36).

[6] القصة في القرآن الكريم، ص690.

والمعنى: قال الله تعالى مجيباً على استفهام زكريّا، والأمر كما ذكرت يا زكريّا من كون امرأتك عاقراً، وأنت قد بلغت من الكبر عتيّاً، ولكنّ ذلك لا يحول بيننا وبين تنفيذ إرادتنا في منحك هذا الغلام، فإنّ قدرتنا لا يُعجزها شيء ولا تخضه لما جرت به العادات[1].

2- ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:

(ربّك) الذي خلقك ورزقك وربّاك وتعهّدك وتولّاك وهو سيّدك ومالكك وهو الذي يحييك ويميتك.

- ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ الضمير (هو) يعود على (غلام) في قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ وهو يعود إلى الولد مع وجود هذه الأحوال التي تجعله قريباً ﴿هَيِّنٌ﴾ سهل ليّن لا يُثير عجباً ولا استغراباً و ﴿هَيِّنٌ﴾ تُشير إلى أنّه لا غرابة فيه[2].

3- ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾:

هناك المقصود لا تعجبك يا زكريّا من أن يأتيك غلام وأنت وزوجك بتلك الحالة، فأنّي أنا الله الذي أوجدتك من العدم، ومن أوجدك من العدم، فهو قادر على أن يرزقك بهذا الغلام المذكور، فالآية الكريمة قد ساقت بطريق منطقي برهاني ما يدلّ على كمال قدرة الله تعالى، وما يزيد في اطمئنان قلب زكريّا (عليه السلام)[3].

وقد اطمأن زكريّا (عليه السلام) إلى بشرى ربّ العالمين وقوي اطمئنانه وزالت الغرابة في نفسه وأراد أن يوثق البشرى[4]، فسأل ربّه (جلّ وعلا) أن يجعل له علامة يستدلّ بها على بدء حمل زوجه[5].

---

[1] القصة في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص690.

[2] زهرة التفاسير، (9/ 4615).

[3] القصة في القرآن الكريم، ص690.

[4] زهرة التفاسير، (9/ 4615).

[5] التفسير الموضوعي، (5/ 152).

ثامناً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10].

1- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾:

- ﴿آيَةً﴾؛ أي: علامة على أنّ امرأته قد حملت في يحيى وكأنّ زكريّا (عليه السلام) يتعجّل الأمور ولا صبر له طوال تسعة أشهر، بل يُريد أن يعيش في ظلّ هذه النعمة، وكأنّها واقع لا ينفعك لسانه حامداً شاكراً عليها، وتظلّ النعمة في باله رغم أنّ ولده ما يزال جنيناً في بطن أمّه[1].

إنّ زكريّا (عليه السلام) قدّم الجار والمجرور في قوله (لي) آية؛ لإفادة التخصيص، فزكريّا يطلب من ربّه آية خاصّة به تدلّه على حمل امرأت، وفي قوله ﴿آيَةً﴾ للعموم، والمراد: أي علامة تدلّ على حمل زوجته[2].

وهذا درس عظيم نتعلّمه من زكريّا (عليه السلام) وهو شكر المنعم سبحانه وأداء حقّ النعمة، فبالشكر تدوم النعم وبالجحود والنكران تزول قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]، وكم من أُناس سُلبت منهم النعم بسبب بطرهم وجحودهم واستهتارهم[3].

2- ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾:

وقد ذكر الأيام في سورة آل عمران –كما مرّ معنا – والليالي في سورة مريم، للدلالة على أنّ العلامة هي ألّا يُكلّم الناس ثلاثة أيام بلياليها، وكان ذكر الليالي في هذه السورة لأنّها مكيّة، وما كان العرب الأميّون في مكّة يعرفون الأيام إلّا بالليالي، حيث يرون القمر فهو شهر الأميين، والأيام الثلاثة قد حبس الله تعالى لسانه عن النطق، فما كان يتكلّم إلّا بالإشارة، كما قال تعالى في سورة آل عمران ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41]؛ أي: بالإشارة، وأوضح الإشارات الكتابة[4].

وقوله ﴿سَوِيًّا﴾؛ أي: سويّ الخلق، سليم الحواس ليس بك من خرس أو بكم، ولكنّك ممنوع من الكلام بأمرنا وقدرتنا على سبيل خرق العادة[5].

---

[1] تفسير الشعراوي، (15/ 9039).

[2] تأملات في سورة مريم، ص81.

[3] تأملات في سورة مريم، المصدر السابق، ص82.

[4] زهرة التفاسير، (9/ 4615).

[5] القصة في القرآن الكريم، ص 491.

﴿سَوِيًّا﴾؛ حال من فاعل ﴿تُكَلِّمَ﴾ وهو زكريّا (عليه السلام) أي: حال كونك يا زكريّا سوي الخلق، سليم الجوارح، لا علّة تمنعك من ذلك سوى قدرتنا [1].

وفي ذكر الليالي والأيّام في سورتي مريم وآل عمران دلالة على أنّ زكريّا (عليه السلام) كان عاجزاً عن الكلام مع الناس طول مدة ثلاثة أيّام بلياليهنّ وهذا يدلّ على تكامل القصّة في السورتين، بل إنّ اختصاص كلّ موضع بما أشرنا إليه آنفاً ليدلّ على عدم التكرار في القصّة إلّا لهدف يخدم المعنى المراد[2].

ونلاحظ في الآيات الكريمة المتعلّقة بقصّة زكريّا (عليه السلام) أنّه طُلب من زكريّا في سورة آل عمران الذكر والتسبيح، ولم يُطلب منه ذلك في سورة مريم، لأنّ البشارة في آل عمران أعظم، فقد ذُكر فيها أربعة أوصاف ليحيى (عليه السلام) فقيل: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 39].

وأمّا في سورة مريم فلم يوصف إلّا بوصف واحد في البشارة وذلك في قوله سبحانه ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7].

ومما يدلّ على عظم البشارة أيضاً وكمالها في آل عمران، قوله تعالى: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾؛ فكان في أفضل مواطن وهيئات القرب من الله تعالى وأشرفها، لذلك استحقّ تمام البشارة وكمالها، في حين لم يُذكر ما يدلّ على صلاته في سورة مريم[3]. وفي قوله: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾؛ أي: سليم معافى سويّ التكوين، لا نقص فيك، ولا قصور في جارحة من جوارحك، وهكذا لا يكون عدم الكلام عيباً، بل آية من آيات الله (عزّ وجل).

وهناك فرق بين أمر كونيّ وأمر شرعيّ، الأمر الكونيّ هو ما يكون وليس لك فيه اختيار في ألّا يكون، والأمر الشرعيّ مالك فيه اختيار من الممكن أن تُطيعه فتكون طائعاً، أو تعصيه فتكون عاصياً.

وهذا الذي حدث لزكريّا (عليه السلام) أمر كونيّ، وآية من الله لا اختيار له فيها وكأنّ الحقّ سبحانه يعطينا الدليل على أنّه يوجد من لا مظنّة أسباب، وقد يُبقي الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبّب، فاللسان

---

[1] القصة في القرآن الكريم، المصدر السابق، ص491.

[2] تأملات في سورة مريم، ص85.

[3] تأملات في سورة مريم، ص86.

هنا موجود، وآلات النطق سليمة ولكنّه لا يقدر على الكلام، فيتأمّل طلاقة القدرة، فقد شاء الله سبحانه لزكريّا الولد بغير أسباب، وهنا منع مع وجود الأسباب، فكلا القدرتين سواء في قدرته تعالى ومشيئته[1].

ولمّا جاء الوقت المقدّر لتحقيق البشارة، وحُبس لسانه (عليه السلام) عن تكليم الناس، أكثر من التسبيح والعبادة شكراً لله (عزّ وجل) على ما أولاه وأنعم عليه، ولزم محراب عبادته، وما خرج منه إلّا ليحثَّ الناس على الإكثار من التسبيح والعبادة[2]، كما قال تعالى.

تاسعاً: قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11].

تفسير الآية الكريمة:

1- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾:

فخرج زكريّا على قومه من مصلّاه حين حُبس لسانه عن كلام الناس[3].

- ﴿الْمِحْرَابِ﴾؛ أي مكان العبادة والصلاة، وعادة ما يكون مرتفعاً على شرف عمّا حوله، وكان مُصلّى الأنبياء والصالحين، وسُمّي محراباً لأنه يحارب فيه الشيطان بكيده ووسوسته[4]، أو يُحارب التعب ويأنس فيه بالله والقرب منه، فيكون مشتقّاً من الحرب والتعب وجهاد النفس[5]. وقد ذمر المحراب أيضاً في قصّة داود (عليه السلام): ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: 21]، وقد وردت هذه اللقطة من قصّة زكريّا (عليه السلام) في آية أخرى دلّت على أنّ البشارة بيحيى كانت وهو في محرابه، حيث قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا﴾ [آل عمران: 39][6].

2- ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾:

- ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾؛ إنّ الوحي له معنى لغويّ ومعنى شرعي.

---

[1] تفسير الشعراوي، (15/ 904).

[2] التفسير الموضوعي، (5/ 152).

[3] تفسير الطبري، (16/ 53).

[4] تفسير الشعراوي، (15/ 9040).

[5] زهرة التفاسير، (9/ 4616).

[6] تفسير الشعراوي، (15/ 9040).

الوحي لغة: الإخبار بطريق خضّ وعلى هذا المعنى يأتي بطرق متعدّدة، فالله تعالى يوحي للرسل والأنبياء، يوحي لغير الرسل من المصطفين كما في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: 7]؛ أي: أخبرها بطريق خضّ، وهو طريق الإلهام ويوحي إلى الملائكة، ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: 12]. ويوحي للصالحين من أتباه الرسل: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: 111]. ويتعدّ الإعلام بخفاء إلى النحل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: 68]. بل يتعدّى الوحي إلى الجماد في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: 1-5].

وقد يُوحي الشياطين بعضهم إلى بعض ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]. ويُوحون إلى أوليائهم: ﴿الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: 121]؛ لأنّ الشيطان لا يأتي الإنسان إلّا بطريق خضّ، ووسوسة في خواطره[1]. أمّا الوحي الشرعي: فهو إعلام من الله وحده إلى نبيّ يدّعي النبوّة ومعه المعجزة، إذن فالوحي، إعلام خفي من الله للرسول[2].

– ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾؛ قال لهم بطريق الإشارة لأنّه لا يتكلّم ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

بكرة: أوّل النهار، عشيّاً: آخره.

يعني: طوّقوا النهار بالتسبيح بداية ونهاية، وكأنّ زكريّا (عليه السلام) قد بدت عليه علامات الفرح والانبساط بالبشرى، ورأى أنّ شكره لله وتسبيحه لا ينهض بهذه النعمة، فأمَر قومه أن يُسبّحوا الله معه ويشكروه معه على هذه النعمة، لأنّها لا تخصّه وحده، بل هي عامّة لكلّ القوم[3].

– وفي قوله: ﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾:

التسبيح: حقّ من حقوق الله تعالى على العباد يجب عليه إفراده به، وقد أمر الله عباده بهذه العبادة العظيمة تارة أمر إيجاب، وأخرى أمر استحباب، وخصّه الله بأنواع من الفضل، ووعد عليه الجزيل من الأجر.

---

[1] تفسير الشعراوي، (15/ 9041).

[2] تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (15/ 9041).

[3] تفسير الشعراوي، المصدر السابق، (15/ 9041).

والتسبيح عبادة مشتركة يؤدّيها جميع يؤدّيها جميع الكائنات في الأرض والسماوات، وهو عبادة لا تنتهي بانقضاء الدنيا، بل هي مستمرّة باقية في الجنّة دائمة بدوام أهلها الذين: يُلهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهون التنفّس[1].

قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: 10]، وهم يتلذّذون ويتنعّمون بكونهم: يُسبّحون الله بكرة وعشيّاً[2]، تلذُّذاً يفوق بالمآكل والمشارب والمناكح، وممّا يدلّ على فضل التسبيح وجلاله وقدره عند الله (عزّ وجل) أنّ التسبيح بتصاريفه المختلفة قد جاء في كتاب الله المجيد سبعاً وثمانين مرّة[3].

إنّ القرآن الكريم يصف لنا صورة مشرقة لهذا النبيّ العظيم وهو خارج من محاربه ملهماً قومه عن طريق الإشارة بالتسبيح بكرة وعشيّاً، وقد امتاز بشدّة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذّاتها، والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها، وترك مخالطة الخلق في تلك الأجواء الربّانيّة العامرة بذكر الله وتسبيحه وتحميده وتقديسه والأنس به.

وهذا درس يجب علينا أن نتعلّمه جميعاً، حيث ينبغي للمسلم أن يشغل وقته دوماً بالطاعة، وأن يرطّب لسانه بذكر ربّه، فكم من أوقات تُسرق من الأعمار أمام شاشات التلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي وفي المقاهي والنوادي والملاهي[4].

وصدق الرسول ﷺ القائل: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ[5].

وفي تقديم بكرة على العشيّ في قوله: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ في سورة مريم؛ لتتناسب مع ذكر الليل في قوله سبحانه ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ﴾ هذا أمر، وكان التقديم لأمر آخر هو الحرص على عدم ضياع أي وقت من دون ذكر وتسبيح وبيان هذا أنّ وقت العشيّ يبدأ من وقت صلاة الظهر إلى المغرب[6]، أي: من بعد الزوال إلى غروب الشمس، وممّا هو معلوم أنّ البكرة هي أوّل النهار إلى طلوع الشمس أو إلى الضحى، تأتي بعد

---

[1] الأوراد المأثورة، د. محمد أحمد المقدم، دار الخلفاء الراشدين، 2021م، ص59.

[2] الأوراد المأثورة من الكتاب والسنة، المصدر السابق، ص60.

[3] الأوراد المأثورة من الكتاب والسنة، المصدر السابق، ص60.

[4] تأملات في سورة مريم، ص88.

[5] البخاري، كتاب الرقاق، رقم 6049.

[6] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، (19/ 289)، روح المعاني، (3/ 152)، تفسير البيضاوي، (3/ 73).

الليل مباشرة، فأراد (سبحانه) أن لا يضبع وقت في غير ذكر، ولو قيل: عشيّاً وبكرة في هذا الموضع: لكانت البكرة الأولى مضت من دون تسبيح، فكان تقديم البكرة هنا أتمّ وأولى[1].

وللغرض السابق نفسه قُدّم العشيّ على الإبكار – في آل عمران – في بكرة ذلك اليوم قد مضت وبقي العشيّ، فلا بدّ من ابتداره للتسبيح والذكر فيه، فلو قدّم البكرة لذهب عشيّ اليوم الأول من دون تسبيح وذكر، فيكون قد ذهبت البكرة والعشيّ، فتقديم ما قدم هو الأولى والأدلّ على الشكر[2].

يُسدل الستار على قصّة زكريّا (عليه السلام) ذالكم النبيّ الكريم الذي عشنا معه مدار الصفحات السابقة في تفسير قصته التي جاءت في سورة مريم، وكعادة القصص القرآني، فإنّه لا يقف أمام الجزيئات والأحداث الصغيرة، وإنّما يتهم بالأحداث المهمّة، والمشاهد المؤثّرة، لذلك فإنّ السياق القرآني ينقل الحديث عن يحيى (عليه السلام) ولكنّه يطوي الحديث عن ولادته وطفولته[3]، قال تعالى.

عاشراً: قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾ [مريم: 12–15].

تفسير الآيات:

1– ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾:

يلحظ أنّ الآية الكريمة انتقلت بنا نقلة واسعة، وطوت فترة طويلة من حياة يحيى (عليه السلام)، فقد كان السياق يتحدّث عنه وهو يُشرى لوالده، وهو ما يزال في بطن أمّه جنيناً وفجأة يُخاطبه وكأنّه أصبح أمراً واقعاً، فقد بلغ مبلغ النضج وأصبح أهلاً لحمل مهمّة الدعوة[4].

---

[1] بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، ص134—135.

[2] بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، المصدر السابق، ص135.

[3] تأملات في سورة مريم، ص91.

[4] تفسير الشعراوي، (15/ 9042).

– ﴿يَا يَحْيَىٰ﴾؛ ناداه سبحانه بالبعيد إعلاء له وتشريفاً، وناداه باسمه محبّة له وتقريباً، وقد دلّ ذلك النداء على أنّه بلغ حدّ الخطاب[1].

– ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؛ بعزيمة وجدّ، وعن عقيدة وإيمان ولا تتوان ولا تقصّر في تبليغ دعوة الله[2].

– ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؛ بجدّ واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعلم بأوامره ونواهيه، هذا من تمام أخذ الكتاب بقوّة، فامتثل أمر ربّه وأقبل على الكتاب فحفظه وفهمه وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة[3]، ممّا ساعده على أخذ الكتاب بقوّة.

– ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؛ الكتاب هو التوراة الذي أنزله الله على موسى (عليه السلام)، فقد أبقاه الله كتاباً لأنبياء بني إسرائيل من بعده وأمره الله أن يأخذ كتاب الله الذي معه بقوّة، وأن يتدبّره بقوّة، وأن يُطبّق وينفّذ ما فيه بقوّة، وأن يدعو إليه بقوّة، وليس المراد بالقوّة هنا القوة الجسميّة البدنيّة، وإنّما المراد بها القوة المعنويّة، فوّة الفهم والعلم، وقوّة الالتزام والانضباط، وقوة الأداء والعمل، وقوة الدعوة والبيان[4].

– ﴿بِقُوَّةٍ﴾؛ بإخلاص في حفظه وحرص على العمل به، لأنّ العلم السماوي والمنهج الإلهي فقط، بل وتعمل به وإلّا فقد قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: 5]، فقد حمّلهم الله التوراة، فلم يحملوها ولم يعملوا بها[5].

– ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؛ لأنّ الكتاب فيه أوامر وفيه نواه، يأمر بالخير وينهاك عن الشرّ، فإنّ أمرك بالخير وأنت لا تفعله تحتاج إلى قوّة دفع تدفعك إلى الخير وكأنّك كنت ساكناً تحتاج إلى قوّة تحرّكك وإن نهاك عن الشرّ وأنت تفعله فأنت في حاجة إلى قوّة تمنعك وتوقف حركتك في الشرّ، والمنهج هو هذه القوّة التي تحرّكك إلى الخير وأنت ساكن وتُسكنك عن الشرّ وأنت متحرّك[6].

---

[1] زهرة التفاسير، (9/ 4617).

[2] دعوة الأنبياء الرسل في القرآن الكريم، د. بسام الصباغ، ص153.

[3] الثمين في قصص الأنبياء والمرسلين، زهير علي كاخي، ص148.

[4] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 148).

[5] تفسير الشعراوي، (15/ 9043).

[6] تفسير الشعراوي، (15/ 944).

- ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾؛ دعوة إلى الفهم والتدبر، والعزيمة والثبات، والجد والاجتهاد، والعلم والعمل، والالتزام والطاعة وهي سمات العقلاء والمصلحين والمفكرين والمتفوّقين والناشطين في الأعمال الفردية والجماعية في كلّ عصر وزمان[1].

2- ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾:

إن الذكاء والفطنة والحكمة التي يحصل بها معرفة الأحكام والحُكم بها في حال صباه[2]. وقد قال ابن كثير عن المراد بالحكم هنا: أي الفهم والعلم والجدّ والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه[3].

وإنّما أُطلق الحكم على العلم والعمل؛ لأنّ: أصل معنى (الحكم) المنع، والعلم النافع والعمل به يمنع الأقوال والأفعال من الخلل والفساد والنقصان[4].

وليس المراد بالحكم هنا القيادة والزعامة والرئاسة، فلم ينقل لنا أنّ يحيى (عليه السلام) كان حاكماً على بني إسرائيل[5].

وهناك من قال من العلماء: والحكم اسم للحكمة، والمراد بها هنا النبوّة والأحكام والمعرفة بها[6]، وصبيّاً: يحيى (عليه السلام) أُعطي النبوّة وهو صبي؛ لأنّ النبوّة رتبة عظيمة، فإنّما تُعطى عند بلوغ الأشد واتفق العلماء على أنّ يحيى أُعطي النبوّة قبل بلوغ الأربين سنة بكثير، ولعلّ الله لمّا أراد أن يكون شهيداً في مقتبل العمر باكره بالنبوّة[7].

3- ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾:

ولأنّ يحيى جاء إلى الدنيا حال كِبر وضعف والديه، وهو كطفل يحتاج من يشمله بالعطف والحنان، ويعوّضه حنان الوالدين، ويحتاج إلى من يعلّمه ويربيّه، لذلك تولّى الحقّ سبحانه وتعالى هذه المهمّة، فهو سبحانه

---

[1] شرعة الله للأنبياء، ص585.

[2] الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي عبد الرحمن، دار ابن حزم، 2016م، ص344.

[3] تفسير ابن كثير، (5/ 191).

[4] الثناء في القرآن الكريم، ص344.

[5] المسيح عيسى ابن مريم، ص105.

[6] شرعة الله للأنبياء، ص585.

[7] التحرير والتنوير، (16/ 76)، صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير، سليم الهلالي، 2002م، ص445.

خالقه ومُسمّيه ومتولّيه فوهبه حناناً منه سبحانه ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ من عندنا، لأنّ طاقة الحنان عند الوالدين قد نضبت[1].

- ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾؛ قال الدكتور عبد الحليم محمود – رحمه الله –: أي: رحمة من عندنا رحمنا بها زكريّا فوهبنا له هذا الولد[2].

وقال ﴿وَحَنَانًا﴾؛ أي: محبّة عليه ويحتمل أن يكون ذلك صفة لتحنُّن يحيى على الناس ولا سيما أبويه، وهو محبّتهما والشفقة عليهما وبرّه بهما[3].

وفي جعل حنانه (عليه السلام) من لدن الله تعالى إشارة إلى أنّه متجاوز المعتاد بين الناس؛ لذا فالتنكير في الآية ﴿وَحَنَانًا﴾؛ للتعظيم، وقد تتابع تفخيمان على هذه القصّة: تفخيم بالإضافة أو الإشارة إلى كونه من الله تعالى وتفخيم ذاتي أفاده التنوين[4].

قال جمهور المفسّرين: الحنان: الشفقة والرحمة والعطف والمحبّة، أي: أنّه عطوف على العباد، رحيم بهم[5].

والحنان صفة ضروريّة للنبيّ المكلّف رعاية القلوب والنفوس، وتأليفها واجتذابها إلى الخير والرفق[6]، ووصف حناناً بأنّه من لدن الله، إشارة إلى بلوغ المنتهى في الرحمة، لأنّ ما يهبه العظيم عظيم[7].

فقد كان يحيى (عليه السلام) على درجة عالية من رقّة القلب والرحمة بالآخرين والاشفاق عليهم وخصوصاً والديه، وهذه نعمة عظيمة أنعم الله بها على يحيى (عليه السلام).

4- ﴿وَزَكَاةً﴾:

أي: طهارة من الذنوب وصفاء نفس وبركة، وهذه كلّها نتيجة التربية الإلهيّة بمنهج الله الذي يرسم له حركته في الحياة: افعل كذا ولا تفعل كذا[8].

---

[1] تفسير الشعراوي، (15/

[2] قصص الأنبياء في رحاب الكون، د. عبد الحليم محمود، ص 283.

[3] قصص الأنبياء في رحاب الكون، المصدر السابق، ص283.

[4] تأملات في سورة مريم، ص95.

[5] تفسير القرطبي، (11/ 87)، فتح القدير، (3/ 384).

[6] في ظلال القرآن، (4/ 2304).

[7] روح المعاني، (8/ 392)، الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي عبد الرحمن، دار ابن حزم، 2016م، ص345.

[8] تفسير الشعراوي، (15/ 9045).

- ﴿وَزَكَاةً﴾؛ طهارة في القلب والأقوال والأفعال ومن الدنس والآثام[1]، وكان مقبلاً على الطاعة والعبادة ومحبّة الخير للناس.

5- ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾:

كان يحيى (عليه السلام) تقيّاً عابداً لله خائفاً منه مؤدّياً لفرائضه، مجتنباً محارمه، متسارعاً في طاعته وقوله ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ هو نتيجة للصفات السابقة التي وصف الله بها يحيى (عليه السلام) وثمرة لما آتاه الله منذ أن كان صبيّاً آتاه الله الحكم والفهم والعلم، وآتاه الحنان والرحمة والشفقة، وآتاه الزكاة والتزكية والطهارة، ونتيجة لكلّ ذلك صار يحيى (عليه السلام) تقيّاً عابداً خاشعاً، موصولاً بالله، مراقباً له يخشاه ويرجو في سرّه وجهره، وليله ونهاره[2].

6- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾:

كان يحيى (عليه السلام) برّاً بوالديه، وذكر برّه لوالديه مقصود هنا: لأنّه والديه كبيران عجوزان وهما بحاجة إلى برّ ابنهما بهما: لتقدمهما في العمر وحاجتهما إلى المساعدة وحسن المعاملة، لاسيما أنّهما رزقاً بابنهما على كبر وهذه من النهم العظيمة التي ينعم الله بها على الوالدين الكبيرين، عندما يوفق أبناءهما إلى البرّ بهما؛ لأنّهما في عمرهما المتقدّم يحتاجان إلى ذلك البرّ والإحسان[3].

إنّ برّ الوالدين من أعظم القربات وذلك لأنّه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23][4].

إنّ يحيى (عليه السلام) وضع صرحاً عظيماً في برّ الوالدين في عمق الحضارة الإنسانيّة فهما أساس الأسرة يجب احترامهما والاهتمام بهما وبالنظر للحضارة الحديثة نجد أنّها انتزعت عن الوالدين حقّهما وتركتهما لدور المسنّين وبهذا تكون الأسرة قد فقدت أهمّ أعمدتها وأركانها[5].

---

[1] تأملات في سورة مريم، ص95.

[2] القصص القرآني، الخالدي، (4/ 153).

[3] المسيح عيسى ابن مريم، ص106.

[4] دور الأنبياء في بناء الحضارة الإنسانية، ص247.

[5] دور الأنبياء في الحضارة الإنسانية، المصدر السابق، ص248.

إنّ برّ الوالدين من شرعة الله تعالى لأنبيائه (عليهم السلام) فطريق السائرين على منهجه الإحسان إليهم والتعطّف عليهما، والرفق بهما، والرعاية لأحوالهما، وعدم الإساءة إليهما، وإكرام صديقهما من بعدهما والبرّ في حقّهما وحقّ الأقربين من الأهل ضد العقوق وهو الإساءة إليهم والتضييع لحقوقهم[1].

هذا وقد عطف الله تعالى برّ يحيى (عليه السلام) بوالديه على كونه تقيّاً للدلالة على تمكّنه من هذا الوصف، والبرور: الإكرام والسعي في الطاعة والبرّ بفتح الباء وصف على وزن المصدر، فالوصف فيه مبالغة، والبَر بمعنى البار، وهو الكثير البرِّ، لأنّ البر بكسر الباء اسم مصدر لعدم جريه على القياس[2].

وقد وصف الله تعالى يحيى (عليه السلام) ببرّ الوالدين، ليكون ذلك شرعة الله تعالى له ولقومه بني إسرائيل، وإنّ برّ الوالدين من فضائل الأعمال، ومن شرعة الله تعالى في الإسلام، وتكرّر الأمر به في القرآن الكريم في آيات كريمة، مع التحذير من عقوقهما ولو كانا كافرين، وشدّد رسول الله ﷺ على الالتزام ببرّ الوالدين في أحاديث عظيمة مع الآثار الكثيرة في ذلك، واعتبر رسول الله ﷺ عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، ومن السبع الموبقات، لأنّ العاقّ لوالديه اللذين لهما الفضل الأوّل بعد الله تعالى في وجوده وتربيته ونشأته ورعايته والحفاظ عليه، فلن يكون بارّاً ومخلصاً لأحد في الحياة[3].

إنّ الحضارة الغربية التي يقودها الغرب تخلّت عن الوالدين وعن برّهما والإحسان إليهما، حتّى بالصلة معهما، ولذلك اخترعوا عيد الأم وعيد الأب للتذكير بهما ولو مرّة بالسنة، ولا يلتزم بذلك القليل، ولذلك انهارت الأسرة، وتبدّدت صلة الأرحام، وجفّ منبع العطف واللحنان والصلات الاجتماعية ممّا ينذر بخطر وفساد كبيرين[4].

7- ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾:

الجبّار: المتكبّر الذي لا يرى لأحد عليه حقّاً.

والجبار من الملوك: العاتي، وقيل: كلّ عات جبارّ وجبير.

- وقلب جبّار: لا تدخله الرحمة.

---

[1] موسوعة نظرة النعيم، (3/ 767).

[2] شرعة الأنبياء، ص591.

[3] موسوعة نضرة النعيم، مجموعة من العلماء، دار الوسيلة للنشر، جدة، ط4، 2018م، (3/ 763- 779).

[4] شرعة الله للأنبياء، ص592.

- وقلب جبّار: ذو كبر لا تدخله موعظة.

- ورجل جبّار: مسلّط قاهر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: بمسلّط فتقهرهم على الإسلام.

- والجبّار: القتّال في غير حق وفي التنزيل العزيز: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: 130].

وكذلك قول الرجل لموسى في التنزيل العزيز: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: 19]؛ أي: قتّالاً في غير الحقّ، وكلّه راجع إلى معنى التكبّر[1].

وفسّر عدد من أهل التفسير المراد ينفي هذه الصفة عن يحيى (عليه السلام) بقريب من ذلك[2].

قال القرطبي – رحمه الله – ﴿جَبَّارًا﴾: متكبّراً، وهذا وصف ليحيى (عليه السلام) يلين الجانب وخفض الجناح[3].

وقال ابن عاشور – رحمه الله –: الجبّار المستخف بحقوق الناس، كأنّه مشتقّ من الجبر وهو القسر والغضب[4].

وقال السعدي – رحمه الله –: لم يكن متجبّراً متكبّراً عن عبادة الله، ولا مترفّعاً على عباد الله ولا على والديه، بل كان متواضعاً، ومتذلّلاً مطيعاً أوّاباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحقّ الله، وحقّ خلقه ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها[5].

وارتبطت هذه الصفة بالسلاطين والملوط ونحوهم في لغة العرب وفي القرآن الكريم وفي سنّة النبيّ ﷺ وشواهد على ذلك عديدة[6].

قال هود (عليه السلام) منكراً على قومه: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: 130]، وبيّن الله (عزّ وجل) في عاقبة قوم هود أنّهم اتّبعوا الجبّارين فقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: 59]؛ فاتباع الجبارين سبيل مناقض لاتباع الأنبياء.

إنّ الله (عزّ وجل) نفى عن أنبيائه ورسله صفة التجبّر ووصف بها أعداء الأنبياء وسلاطين الجور.

---

[1] لسان العرب، (4/ 113- 114).

[2] أخلاق الأنبياء، د. محمد عبد الله الدويش، دار الحضارة، ط2، 2020م، ص288.

[3] تفسير القرطبي، (11/ 88).

[4] التحرير والتنوير، (16/ 77).

[5] تفسير السعدي، ص 638.

[6] أخلاق الأنبياء، ص289.

إنّ في النفس البشريّة ميلا إلى العلوّ والتسلط فحين يبلغ الإنسان مكانة ما، أو يحظى بسلطة، فقد تعجبه نفسه ويتسلّط ويتجبّر على عباد الله، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ [العلق: 6]، إنّ لدى الأنبياء (عليهم السلام) من العلم ما ليس لدى الناس، وهم من خير بيوت الناس نسباً ومكانة[1]، كما جاء في حديث هرقل: (وكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها)[2].

إنّ جعل صفة التواضع والطاعة لله في شخصيّة يحيى ونفي عنه التجبّر والعصيان، فلم يكن عصيّاً بالمرّة، وهذا من شرعة الله تعالى لسيّدنا يحيى (عليه السلام) ينفى هذه الصفات القبيحة عنه[3].

وبعدما وصف الله يحيى بصفات إيجابية كالتقوى والبرّ بالوالدين، ونفة عنه وصفين سلبيّين، ونزّهه عن نقيضتين، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

– ﴿جَبَّارًا﴾؛ صفة مبالغة من التجبّر، وهو التكبّر والاستعلاء والتعالي والانتفاش على الناس وظلم الآخرين واحتقارهم واضطهادهم.

– ﴿عَصِيًّا﴾؛ بمعنى صاحب المعصية، وعندما ننظر في هذه الآية الكريمة التي أخبرت عن يحيى (عليه السلام) فسوف نرى التناسب والتناسق والتقابل في الصفات المذكورة له.

قال تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: 12-14].

آتى الله يحيى (عليه السلام) أمرين، وأنعم عليه بنعمتين، وهما: الحنان والزكاة، ووصفه بوصفين إيجابيّين، هما ثمرة الحنان والزكاة، وهما: كان تقيّاً لله، وكان برّاً بوالديه، ونفى عند أمرين، قبيحين يتناقضان مع ما سبق، فلم يكن جبّاراً ولا عصيّاً، وهذه كلّها ثمرة للحكم الذي آتاه الله إيّاه وهو صبي ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾؛ وهذا كلّه تطبيق وتنفيذ لأمر الله له ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾[4].

هذا وإنّ خُلق التواضع يرفع من مكانة صاحبه، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه)، عن رسول الله ﷺ قال: ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلّا عزاً، وما تواضع أحد لله إلّا رفعه الله[5].

---

[1] أخلاق الأنبياء، المصدر السابق، 290.

[2] مسلم، رقم 1744.

[3] المسيح عيسى ابن مريم، ص107.

[4] المسيح عيسى ابن مريم، ص107.

[5] مسلم، رقم 2588.

ومن أعظم ما يُعاقب به الجبار أن يطبع الله على قلبه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35].

وهكذا، نجد قلب الجبّار لا يلين ولا يرحم ولا تتوالى عليه النذر، فلا يستجيب لطريق الهداية، ومآل الجبّارين إلى الخيبة والخسارة، قال سبحانه: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: 15]. وأمّا يوم القيامة فموعدهم النار[1]، ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: 16-17].

إنّ سيرة يحيى (عليه السلام) التي جاء ذكرها في القرآن الكريم تدلّ على التواضع والاقتداء به في ترك التجبّر والتكبّر على عباد الله، والترافع عليهم، بل الشفقة بهم الحرص على هدايتهم ودلالتهم على الصراط المستقيم وتوحيد الله (عزّ وجل) وإفراده بالعبادة؟

ولأنّ يحيى حرص على الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، والقيام بحقّ الله، وبحقوق عباده (سبحانه وتعالى)، فأكرمه الله بالتحية: السلام المتضمّن للأمان والسلامة من المكاره والشرور[2].

8- ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾:

وهذا خبر من الله سبحانه عن السلام الذي أضفاه على يحيى (عليه السلام).

- ﴿وَسَلَامٌ﴾؛ نكرة، والتنكير للتكثير والتفخيم والتعظيم، أي: أنّ الله جعله معوراً بالسلام المبارك في حياته كلّها، وأبرزت الآية السلام الذي تغشّاه في مواطن ثلاثة، هي بحاجة إلى السلام من الله، أكثر من غيرها من المواطن.

- ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾؛ أضفى الله عليه السلام يوم ولادته، ولذلك لم يمسّه الشيطان بسوء.

- ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾؛ أضفى الله عليه السلام والأمان يوم موته، فجعله منعّماً في قبره وعصمه من فتنة القبر، وأجاره من عذاب القبر.

- ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾؛ أضفى الله عليه السلام والأمان يوم القيامة، فأمّنه من الفزع في ذلك اليوم الذي يفزع فيه الآخرون، وأجاره من عذابه.

---

[1] أخلاق الأنبياء، ص293.

[2] الثناء في القرآن الكريم، ص346.

وأوحش ما يكون الإنسان في أماكن ثلاثة: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً ممّا كان فيه، ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحيى (عليه السلام) وخصّه بالسلام عليه في هذه المواطن: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[1].

كان زكريّا ويحيى (عليهم السلام) من آخر أنبياء بني إسرائيل، ولم يأت نبيّ بعدهما لنبي إسرائيل إلّا عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام)[2].

أمّا الحكمة والمناسبة من ذكر يحيى بن زكريّا (عليهم السلام) في سورة مريم لمّا ذكر الله قصّة ولادة يحيى بن زكريّا من عجوز عاقر، وشيخ قد بلغ من الكِبر عتيّاً، وذلك بمقتضى السنن الكونية، هو شيء خارق للعادة؛ لعقم المرأة وهرم الشيخ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات، فذكر ولادة عيسى (عليه السلام)، من غير أب وهي من أعجب من الأوّل بكثير[3].

---

[1] القصص القرآني، (4/ 153).

[2] القصص القرآني، (4/ 160).

[3] من قصص التنزيل، محمد الحجّار، ص504.

المبحث الرابع:

قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة الأنبياء:

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 89-90].

سميت بسورة الأنبياء لاشتمالها على قصصهم وذكر جهادها، وصبرهم وتضحيتهم في سبيل وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشريّة، فذكر فيها أسماء ستّة عشر نبيّاً، ولم يأت في سور القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام ذُكر فيها أسماء ثمانية[1].

واستخدمت السورة أسلوبين لإثبات العقيدة، الأوّل أسلوب التقرير والمجادلة كما في سورة الأنعام، والثاني أسلوب القصصي، كما في سورة الأعراف[2].

وتناولت السورة قصّة إبراهيم (عليه السلام) مع قومه الوثنيّين، في أسلوب مشوّق فيه من نصاعة البيان وقوّة الحجّة والبرهان ما يجعل الخصم يُقرّ بالهزيمة في خضوع واستسلام، وفي قصّته عبر وعظات وتابعت السورة الحديث عن الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) فتحدّثت عن إسحاق ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود وسليمان، وأيّوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وزكريّا، وعيسى، بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرّضوا لها، وتختمت ببيان رسالة سيّد المرسلين حبيبنا محمّد بن عبد الله رحمة للعالمين ﷺ[3].

وفي هذه السورة لمحة عابرة ولكنّها غنيّة بالدروس والعبر والفوائد عن زكريّا (عليه السلام) وشكواه لربّه، واستجابة الله دعاءه، وقد جاءت هذه اللمحة بعد ذكر ألوان من المعاناة أوذي بها الأنبياء، ثمّ صرفها الله عنهم وأحسن جزاءهم، وجاء الحديث عنه بعد يونس (عليه السلام)، ثم ذكر الله زكريّا حينما دعاه، يرجوه ألّا يتركه وحيداً دون ولد يرثه، ويشدّ عضده ويؤنس وحدته، مع اعترافه بأنّ الله سيرث الناس جميعاً من له

---

[1] مقاصد سور القرآن الكريم، منذر أبو شعر، ص134.

[2] الخارطة القرآنية، د. مشعل الفلاحي، ص155.

[3] مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، ص164.

ولد ومن لا ولد لع، فالملك كلّه لله، دعاه وأعطاه ابنه يحي بعد أن أصلح له زوجه، وجعلها قادرة على الإنجاب، وذلك بسبب دعائهم وعبادتهم لله طمعاً في حسن ثوابه، وخوفاً من أليم عقابه، وكانوا دائماً يخشون الله لعظمته وكانوا يتسابقون لفعل الخير[1].

وجاءت قصة مريم مع عيسى (عليهما السلام) بعد قصّة زكريّا مباشرة في سورة الأنبياء، ليُبيّن الله أنّ ولادة عيسى (عليه السلام) بغير أب لا تُعجز الله، فهذان زوجان لا يستطيعان الإنجاب بكلّ مقاييس البشر، ومع ذلك ينجبان بقدرة الله، فما الفرق بين ذلك وبين أنثى تنجب من غير أن يتّصل بها رجل؟

وإنّ الفاعل في الحالتين هو الله، ومقاييس البشر تنكر إمكانية حدوثه، ولكنّه يحدث بالقدرة الإلهيّة، فإذا اتّهم كافر مريم في عفّتها فماذا يقول في زوج زكريّا العقيم العجوز حينما تضع مولودها[2]، وقد بيّنا أنّ قصّة ولادة يحي (عليه السلام) إرهاص بميلاد عيسى[3].

إنّ الآيات الكريمة التي تحدّثت عن زكريّا (عليه السلام) في سورة الأنبياء وهو ينادي ربّه فيُستجاب له، كان ذلك امتداداً طبيعيّاً لدعوات الأنبياء الذين سبقوه، فقد تنوّعت الأدعية في سورة الأنبياء والدّاعون والدعاء، من حيث المبدأ واحد والمدعوّ وحد (سبحانه)، والاستجابة واحدة، وإن تعدّد الداعون وتنوّعت طلباتهم، فالنسق في الآيات أوضح من التوضيح، وأبين من التبيين، وأظهر من الإظهار، والحمد لله منزّل هذه الآيات وجاعلها آية في الاتساق بين هذه الآيات[4].

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

تفسير الآية الكريمة:

1- ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ﴾:

- الواو: كما نردد دائماً هي للعطف أقر. وتصحّ للاستئناف.
- ﴿وَزَكَرِيَّا﴾؛ في محل نصب على تقدر (واذكر زكريّا).

---

[1] من قصص القرآن، د. عصام الدين الهنامي، ص375.

[2] من قصص القرآن، المصدر السابق، ص376.

[3] من قصص القرآن، المصدر السابق، ص376.

[4] تفسير سورة الأنبياء، د. أحمد نوفل، دار الصحابة، ط1، 2014م، ص436.

- ﴿إِذْ﴾؛ الظرف المعهود المتكرّر في عقد الكلام، كحلقات الربط – هو أيضاً – مربوط مقترن بفعل مقدّر: (اذكر إذ).
- ﴿نَادَىٰ رَبَّه﴾؛ دعا سيّده ومولاه الذي يتعهّده، ويربّيه، ويرعاه، ويحفظه، ويحفظه، ويزكّيه، ويجيب دعاءه، ويكفله في شؤونه كلّها[1].

2- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾:

- ﴿رَبِّ﴾؛ أي: يا رب، يحذف ياء النداء، لاستشعار القرب.
- ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾؛ لا تتركني وحيداً في هذا العالم، في هذه الحياة، في هذه الدنيا في هذا البيت، بل ارزقني ذريّة آنس بها وتقرّ عيني[2]، وهذا الدعاء دعاء الفطرة التي لا تحول ولا تزول، ومن الفطرة حبّ الولد، والحنين إليه إن لم يوجد، أو غاب، أو فُقد، والأنبياء (عليهم السلام) بشر، فطرتهم فطرة البشر، وتوقهم إلى الولد، توق البشر وأهداف الأنبياء (عليهم السلام) ممن الولد لها أهداف يريدونهم للفطرة وللدين والدعوة[3].

إنّ زكريّا (عليه السلام) يعرف أنّ الله تعالى لا يؤخّر نفساً إذا جاء أجلها، وهو (عليه السلام) متعلّق بذكر ربّه، عاشق لاستمراره ودعائه، فإن كان الموت سيحرمه من ذلك، فقد تمنّى أن لا يتوقّف الذكر والخشوف والمسارعة في الخيرات في ذلك البيت المبارك، فنادى ربّه ودعاه دعاء خفيّاً ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.

فأنا أريد من بعدي أن يرثوا عني ذلك الدعاء والتهليل والتكبير والمسارعة في الخيرات؛ لئلّا ينقطع الذكر في هذا البيت[4].

---

[1] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص437.

[2] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص437.

[3] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص439.

[4] تفسير القرآن بالقرآن، د. طه العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2020م، ص544.

3- ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾:

هذا يلمّح إلى أنّ زكريّا (عليه السلام) طلب ولداً يرثه، كما في سورة مريم: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 6]؛ ليس يعني المال بالطبع – وقد وضّحنا ذلك – وإنّما يعني العلم والدعوة والدين والنبوّة والرسالة والإمامة[1].

- ﴿وَأَنْتَ﴾؛ يا رب.
- ﴿خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾؛ فإن لم أُرزق به، أو رُزِقتُه، فأنت على كل حال الوارث، الذي يرث الأرض ومن عليها، بل أنت خير الوارثين.

وما أجمل أدب الأنبياء (عليهم السلام): وأمّا لغتهم وتعبيرهم؛ فالأدب العالي الرفيع، وأمّا تعبير القرآن عمّا عبرّوه؛ فالإعجاز المطلق[2].

قال السعدي – رحمه الله –: وأنت خير الباقين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك منّي[3].

وقال الألوسي – رحمه الله –: وفيه مدح بالبقاء وإثار إلى فناء من سواه من الأحياء، وفي ذلك استمطار لسحائب لطفه (عزّ وجل)[4].

فالله سبحانه وتعالى، خير الباقين بيقين، وخير من يخلق خلقه بخير، وهو سبحانه أرحم بعباده من خلقه كلّهم أجمعين[5].

4- اسم الله (الوارث) من أسماء الله الحسنى:

ورد اسم ذكر (الوارث) في القرآن ثلاث مرات كلّها بصيغة الجمع، وهي:

- في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: 23].
- وقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

---

[1] تفسير سورة الأنبياء، ص437.

[2] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص437.

[3] تفسير السعدي، ص695.

[4] روح المعاني، (9/ 83).

[5] تفسير سورة الأنبياء، ص439.

- وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: 58].

وورد مرّة واحدة بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40].

والوارث: هو الباقي بعد فناء الخلق والمسترد لملاكهم وموارثهم بعد موتهم، ولم يزل الله باقياً مالكاً لأصول الأشياء كلّها يورثها من يشاء، ويستحقّ فيها من أحب[1].

ومن آثار الإيمان باسمه الوارث:

- السعي في هذه الدنيا للتقرّب من الله (عزّ وجل) وجنّته بالعلم النافع والعمل الصالح، وذلك للفوز بالجنّة التي لا يورثها الله (عزّ وجل) إلّا للمتّقين: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63]، واللهج بالدعاء الذي دعا به إبراهيم (عليه السلام) ﴿وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: 85].
- عدم الاغترار بقول الباطل، وانتفاشه فإنّ الله (عزّ وجل) له بالمرصاد، وسيأتي الوقت الذي يزهقه الله ويورث عباده المؤمنين ديار الكافرين يمكنهم فيها، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: 137].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105].

إنّ زكريّا (عليه السلام) يعلّمنا في دعائه العظيم ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ عدم الاغترار بالدنيا والحذر من الركون إليها لأنّ مآلها إلى الفناء ولا يبقى إلّا ما قدّمه العبد لنفسه يوم القيامة[2]، فالرسول الكريم ﷺ يقول: يقول ابن آدم مالي مالي، قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت[3].

---

[1] ولله الأسماء الحسنى، الجليل، ص183، مع الله، د. سليمان العودة، الإسلام اليوم، ط5، 2010م، ص291.

[2] ولله الأسماء الحسنى، ص184.

[3] مسلم في الزهد، رقم 2958.

ونرى زكريّا (عليه السلام) في دعائه وندائه تعلّقه بالله وحده والتوكّل عليه والتبرّؤ من الحول والقوّة والنظر إلى المالك الحقيقي وهو الله (عزّ وجل) فجميع الخلائق تموت ويزول عنهم ملكم ويبقى الحقّ المالك للوجود سبحانه ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ فيُجيب عن نفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وفي اسم الله (الوارث) حثّ لعباده المؤمنين على النفقة في سبيله وتذكير لهم بأنّهم مستخلفون فيما عندهم من الأموال ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: 7]، ثمّ بيّن لهم بعدها أنّ ما يُنفقون صائر إلى الله إذا ماتوا، لأنّ سبحانه له ميراث السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: 10][1].

وكم لله من العظَمَة، فالخلق كلّهم إلى فناء، ويبقى الله تعالى، فسبحانه ما أجلَّه ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: 26-27][2].

ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

تفسير الآية الكريمة:

وهذه الآيات نسق أوضح من أن يجلّى، فالدعاء تعقبه استجابة الدعاء، فأيّ نسق أوثق من هذا النسق في سلسلة الأنساق.

على أنّ هذه الآية بعد إجابة زكريّا (عليه السلام)، عقّبت ببيان علّة إجابة دعاء الأنبياء الكرام (عليهم السلام) أنّهم استجابوا لله فاستجاب دعاءهم، وكانوا يسارعون في الخيرات، فسارعت لهم بإجابة الطلبات والدّعوات، وكان الكرام الرسل يدعوننا في حالَي الرغَب والرهَب، فأجبناهم في ذلك كلّه، وكانوا خاشعين لنا، خاضعين لأمرنا، فكيف لا نكرم من كان كذلك؟

فهذه الآية تعقيب على زكريّا (عليه السلام) وقصّته، وقصّة من سبقوه جميعهم، أمّا مريم وابنها (عليهما السلام) فخصّهم بنسق خاصّ آخر، فجاء إكرامها، لا لأنّها طلبت ولداً، فأُجيب طلبها، بل لأنّها كانت

---

[1] مع الله، العودة، ص192.

[2] هذا ربي، خالد الخليوي، دار الإسلام، 2019م، ص190.

مُحصَنة فأحصنت فرجها، فأكرمها الله بولد من خيرة مَن خلق، وفق سنّة خاصّة أخرى، غير سنّة من سبق؛ ولذا أخّرها وفصّلها في نسق خاصّ، ضمن النسق العامّ من الإكرام فتأمّل.

ولا ننسى أنّ زكريّا (عليه السلام) هو من كفلها، فالترابط بين ذلك كلّه ضابط[1].

1- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾:

أي: أجبنا دعاء زكريّا ونداءه، وعبّر بزيادة السين والتاء، لتقوية الإجابة، وبنون العظَمَة، واللام المفيدة الخصوصيّة والتمليك، متّصلة بضميره.

ومن استجاب لله تعالى، استجاب الله له، والدعاء مدعاة للإجابة وسببها، وكلّ دعاء مستجاب؛ عاجلاً أو آجلاً، في الدنيا أو مؤجّلاً في الآخرة، فإن لم يجب الطلب فقد أجر طالبه، بأجر الدعاء الذي دعاه، فهو عبادة مطلوبة[2].

2- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾:

أي: أعطيناه بدون قانون التكوين الإنسانيّ، وبدون أسباب[3]، وكان ذلك بإصلاح الأسباب، فهو القادر على كلّ شيء دون أسباب، فسارع النصّ الحكيم بذكر إجابة دعاء زكريّا (عليه السلام) قبل ذكر تهيئة السبب ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ فلمّا جاء وقت الحدوث، سبق إصلاح الزوجة، وهو سنّة، وجاء يحيى على قدَر من الله هبة ومِنَّة، فسبحان من لا تنتهي لطائف كلامه وعجائب قدرته[4].

وتقديم ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾ على ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، لا شكّ هو الترتيب الأكمل، والأعلى، والأجمل، وله دلالته، ومنها، بإيجاز: فالتقديم ليتّصل النداء بالاستجابة على نسق من سبقوه من أهل الإنابة (عليهم السلام)، فقد قدّم البشرى به، كونه مطلوبه القوليّ والقلبيّ، قبل تهيئة أسبابه، إذ هو من لازمه السنيّ، أو تعطيله ممّن سُئِلَه جلّ جلاله[5].

والآية الكريمة فيها فوائد ودروس منها:

---

[1] تفسير سورة الأنبياء، ص440.

[2] تفسير سورة الأنبياء، ص445.

[3] تفسير الشعراوي، (9632/15).

[4] تفسير سورة الأنبياء، ص441.

[5] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص441.

– إنّ التقديم والتأخير؛ من أساليب الجمال في القرآن، منه تقديم البشرى بيحيى على السنّة الكونيّة، بتهيئة أسباب وقوعها.

– إنّ الله سبحانه قادر على كلّ شيء دون أسباب، فهو خالقها وهو معطّلها.

–عجائب قدرة الله تعالى، باب أمل مفتوح، لكلّ طالب من الله رغبة، أو تفريج عنه كربة.

– أوجب الكريم على نفسه إكرام من يقترب منه حبّاً، ويبذل بين يديه طاعته كلّ قربة.

– عطاءات الله المدهشة لا تتوقّف عند حدّ، ولا يحيطها قيد، بل هي مطلقة من كلّ قيد.

– كلّ جرف، وكلمة، وجملة، ورقم، وترتيب في القرآن؛ لحكمة مقصودة لذاتها، ودلالاتها، والبحث عنها واجب العلماء[1].

3– ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾:

بنون العظَمَة، أيضاً، لتعظيم المنّة، والزوج الصالحة: هي الودود الولود، وإصلاحها هنا أن تكون قابلة للحمل، ففي مثل سنّها لا تصلح كلّ أجهزة الحمل للحمل، ولا للرضاع، ولا لشيء من هذا، ولكلّ أمر حين، ولكلّ عُمْر مرحلته، فأصلحها الله، فعادت كأنّها في سنّ الحمل والولادة فتاة[2].

– ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾؛ قال ابن عبّاس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة: كانت عاقراً فجعلها ولوداً[3]، وقال آخرون: كانت سيّئة الخُلُق[4]، حيث كان في لسانها طول، فأصلحها الله[5] بأن رزقها حُسن الخُلُق[6]، وقد صوّب الطبريّ وابن كثير الأوّل، وذكر الطبريّ: "أنّ الله جلّ ثناؤه، لم يخصّص بعضاً دون بعض في كتابه، ولا على لسان رسوله ﷺ، فهو على العموم[7]، أي: إصلاح عامّ وليس إصلاح جوانب معيّنة[8].

---

[1] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص446.

[2] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص442.

[3] تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين، دار الكتب العلمية، 2007م، ص336.

[4] أنباء الأنبياء، د. أحمد بو شنار، دار المعتز للنشر والتوزيع، ط1، 2022م، ص522.

[5] أنباء الأنبياء، المصدر السابق، ص522.

[6] تفسير الطبري، (388/16).

[7] تاريخ الأنبياء، محمود عبده، ص336.

[8] تاريخ الأنبياء، المصدر السابق، ص336.

4- متى أصبحت امرأة زكريّا زوجاً؟

من روائع التعبير القرآنيّ في التفريق بين (زوج) و (امرأة) ما جرى في أخبار القرآن عن دعاء زكريّا (عليه السلام) أن يرزقه ولداً يرثه، فقد كانت امرأته عاقراً لا تُنجب، وطمع هو في آية من الله، فاستجاب له، وجعل امرأته قادرة على الحمل والولادة.

عندما كانت امرأته عاقراً أطلق عليها القرآن كلمة (امرأة)، قال تعالى: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: 5].

وعندما أخبره الله أنّه استجاب دعاءه، وسيرزقه بغلام، أعاد الكلام عن عقم امرأته، فكيف تلد وهي عاقر، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 40].

وحكمة إطلاق كلمة (امرأة) على زوج زكريّا (عليه السلام)، أنّ الزوجيّة بينهما لم تتحقّق في أتمّ صورها وحالاتها، رغم أنّه نبيّ، ورغم أنّ امرأته كانت مؤمنة، وكانا على وفاق تامّ من الناحية الدينيّة الإيمانيّة، عدم الانسجام والتوافق التامّ بينهما هو في عدم إنجاب امرأته، والهدف (النسليُّ) من الزواج هو النسلُ والذرّيّة. فإذا وُجِد مانع عند أحد الزوجين يمنعه من الإنجاب، فإنّ الزوجيّة لم تتحقّق بصورة تامّة، ولأنّ امرأة زكريّا (عليها السلام) عاقر، فإن الزوجيّة بينهما لم تتمّ بصورة متكاملة، ولذلك أطلق عليها القرآن كلمة (امرأة) وبعدما زال المانع من الحمل، وأصلحها الله، وولدت ابنه يحيى (عليه السلام)، فإنّ القرآن لم يطلق عليها (امرأة)، وإنّما أطلق عليها (زوجة)، ولأن الزوجيّة تحقّقت بينهما على أتمّ صورة قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: 89-90].

والخلاصة أنّ امرأة زكريّا قبل ولادتها بيحيى هي امرأة زكريّا في القرآن، لكنّها بعد ولادتها بيحيى هي زوجة وليست مجرّد امرأته[1].

وبهذا عرفنا الفرق الدقيق بين (زوج) و (امرأة) في التعبير القرآنيّ، وأنّهما ليس مترادفين[2].

---

[1] البيان في إعجاز القرآن، الخالدي، دار عمار، الأردن، 2018م، ص286.

[2] إعجاز القرآن البياني، المصدر السابق، ص286.

فيطلق على المرأة (زوج) إذا كانت الزوجيّة تامّة بينها وبين زوجها، وكان الاقتران والتوافق والانسجام تامّاً بينهما، بدون اختلاف دينيّ، أو جنسيّ، أو نفسيّ.

فإن لم يكن التوافق والانسجام كاملاً، ولم تكن الزوجيّة متحقّقة بينهما، فإنّ القرآن يُطلق عليها (امرأة) وليست زوجاً، كأن يكون الاختلاف دينيّ أو جنسيّ بينهما.

والمرأة عند تحقّق التزاوج والانسجام الدينيّ أو الجسميّ زوج لبعلها، وبينهما استكمال حاجاتهما النفسيّة والجسميّة والزوجيّة، وهذا هو الأصل في الكلام عن المرأة في القرآن.

ومن الأمثلة على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21].

– وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

وبهذا الاعتبار جعل القرآن حواء زوجاً لآدم، في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35].

وبهذا الاعتبار جعل القرآن نساء النبيّ ﷺ (أزواجاً) له في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6].

فإذا لم يتحقّق الانسجام والتشابه والتوافق بين الزوجين لمانع من الموانع، فإنّ القرآن يسمّي الأنثى امرآة وليس زوجاً.

قال القرآن: امرآة نوح وامرأة لوط، ولم يقل زوج نوح وزوج لوط، وهذا في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10].

إنّهما كافرتان، مع أنّ كلّ واحدة منهما امرأة نبيّ، وكفرها لم يحقّق الانسجام والتوافق بينها وبين بعلها النبيّ، ولهذا ليست زوجاً له، وإنّما هي امرأة تحته، ولهذا الاعتبار قال القرآن امرأة فرعون في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: 11]، بينها وبين فرعون مانع من تكامل الزوجيّة بينهما، فهي مؤمنة وهو كافر، ولذلك لم يتحقّق الانسجام، فهي امرأته وليست زوجة[1].

[1] إعجاز القرآن البياني، المصدر السابق، ص284.

5- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾:

- قال الزمخشريّ (رحمه الله) في قوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾: "الضمير للمذكورين من الأنبياء (عليهم السلام) أنّهم ما استحقّوا الإجابة إلى طلباتهم إلّا لمبادرتهم أبواب الخير ومسارعتهم في تحصيلها، كما يفعل الراغبون في الأمور الجادّون[1]".

فهذا حديث عامّ عن كلّ من سبقوا من الأنبياء الكرام (عليهم السلام).

- ﴿إِنَّهُمْ﴾؛ التوكيديّة.

- و ﴿كَانُوا﴾؛ المفيدة القِدَم في الشيء، والرسوخ فيه.

- ﴿يُسَارِعُونَ﴾؛ يسابقون.

- ﴿فِي الْخَيْرَاتِ﴾؛ في فعل الخيرات، مطلقة كلمة الخيرات، أي: كلّ عمل خير يعود نفعه على الناس، أو غير الناس، فالمؤمن نافح طيب، كالصّيّب الطيّب، وكنفح الطيب لا يكون منه إلّا كلّ طيّب وطيّب[2].

قال الرازيّ (رحمه الله) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: "وأراد بذلك زكريّا وولده وأهله، فبيّن أنّه آتاهم ما طلبوه، وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنّهم يسارعون في الخيرات، والمسارعة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يُمدَح المرء به، لأنّه يدلّ على حرص عظيم على الطاعة[3]".

6- ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾:

- ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾؛ أي: وكانوا كذلك يدعوننا، دون إعادة ﴿كانوا﴾، وعبّر عن ذاته سبحانه بنون العظَمَة، وهي نون المنن في هذه السورة[4].

- ﴿رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ رجاءً وخوفاً، خوفاً وطمعاً، تضرّعاً وخيفة، رجاءً واضطراراً[5].

والمعنى: أنّهم ضمّوا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: أحدهما: الفزع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرهبة من عقابه.

---

[1] الكشاف، (133/3).

[2] تفسير سورة الأنبياء، ص442.

[3] التفسير الكبير، (218،219/22).

[4] تفسير سورة الأنبياء، ص442.

[5] تفسير سورة الأنبياء، المصدر السابق، ص442.

والثاني: الخشوع، وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذِر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الإثم[1].

- ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾؛ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوّذون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضارّ الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون ولاهون ولا مدلون[2].

- ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾؛ وكانوا في أمرهم كلّه خاضعين خاشعين.

والخشوع: حالة من السكوت، مع التذلّل لله، والانكسار بين يديه، واستشعار عظَمَته، خشوعاً تسكن له الجوارح والجوانح[3].

- ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾؛ أي: خاضعين متذلّلين متضرّعين، وهذا لكمال معرفتهم بربّهم[4].

إنّ الذي يسارع في الخيرات ويدعو الله، والشعور يغمره بالرغب والرهب، وهو إذا أمسى كان خاشعاً لله، وإذا أصبح كان خاشعاً لله، أرأيت إلى مثل هذا يردّه الله خائباً إذا دعا؟

حاشا لله، وهو السميع للدعاء، المجيب لمن حقّق شروط العبوديّة، يقول الله سبحانه وتعالى في حديث قدسيّ عن سرّ استجابة الدعاء[5]:

"مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ :كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ[6]".

ثالثاً: زكريّا ويحيى (عليهما السلام) في موكب الأنبياء والمرسلين:

عرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل، يقوده ذلك الرهط من الرسل، من نوح إلى إبراهيم إلى خاتَم النبيّين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يعرض السياق هذا الموكب ممتدّاً موصولاً ، وبخاصّة منذ إبراهيم وبنيه من النبيّين، ولا يراعي التسلسل التاريخيّ من هذا العرض، كما يلاحَظ في مواضع أخرى، لأنّ المقصود

---

[1] التفسير الكبير، (218،219/22).

[2] تفسير السعدي، ص695.

[3] تفسير سورة الأنبياء، ص443.

[4] تفسر السعدي، ص695.

[5] قصص الأنبياء في رحاب الكون، ص280.

[6] البخاري، رقم6502.

هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخيّ، ومن جملة من ذكر في هذا الموكب من الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) زكريّا ويحيى، حتّى يُعلم أنّهما أنبياء كباقي الأنبياء[1]، وليس كما يدّعي النصارى بأنّ زكريّا (عليه السلام) ليس بنبيّ، بل هو رجل بارّ صالح، وكاهن، وهو والد القدّيس يوحنّا المعمدان[2]، يقصدون (يحيى عليه السلام).

إنّ الحجّة القاطعة في نبوّة زكريّا ويحيى في كتاب الله (عزّ وجلّ) في الذكر الحكيم، في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المنزل من عند الحكيم الحميد سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: 84-90].

وكانت التعقيبات علة هذا الموكب المبارك:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.
- ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

وكلّها تعقيبات تقرّر إحسان الرهط الكريم، واصطفاءه من الله، وهدايته إلى الطريق المستقيم.

وذِكْرُ هذا الرهط على هذا النحو، واستعراض هذا الموكب في هذه الصورة كلّه تمهيد للتقريرات التي تليه:

- ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ وهذا تقرير لينابيع الهدى من الأرض، فهدي للبشر يتمثّل فيما جاءت الرسل، وينحصر المستيقن منه والذي يجب اتّباعه في هذا المصدر الواجد، الذي يقرّر الله سبحانه أنّه هو هدى الله، وأنّه هو الذي يهدي إليه من يختار من عباده.

---

[1] المسيح عيسى بن مريم، ص233.

[2] الأنبياء والرسل في القرآن، د. علي العربي، دار ابن حزم، 2014م، ص103.

ولو أنّ هؤلاء العباد المهديّين حادوا عن توحيد الله وتوحيد المصدر الذي يستمدّون منه هداه، وأشركوا بالله في الاعتقاد أو العبادة أو التلقّي، فإنّ مصيرهم أن يحبط عنهم عملهم، أي: أن يذهب ضياعاً ويهلك كما تهلك الدابّة تراعى نبتاً مسموماً، فتنتفخ ثمّ تموت، وهذا هو الأصل اللغويّ للحبوط.

– ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾؛ وهذا التقرير الثاني، فقرّر في الأوّل مصدر الهدى، وقصره على هدى الله الذي جاءت به الرسل.

وقرّر في الثاني أنّ الرسل الذين ذكرهم والذين أشار إليهم هم الذين آتاهم الله الكتاب والحكمة والسلطان والنبوّة.

– ﴿وَالْحُكْمَ﴾؛ يجيء بمعنى الحكمة، كما يجيء بمعنى السلطان كذلك، وكلا المعنيين محتمل في الآية، فهؤلاء الرسل أنزل الله على بعضهم الكتاب كالتوراة مع موسى، والزبور مع داود، والإنجيل مع عيسى، وبعضهم آتاهم الله الحكمة، كداود وسليمان، وكلّهم أوتي السلطان على معنى أنّ ما معه من الدين هو حكم الله، وأنّ الدين الذي جاؤوا به يعمل سلطان الله على النفوس وعلى الأمور، فما أرسل الله الرسل إلّا ليطاعوا، وما أنزل الكتاب إلّا ليحكم بين الناس بالقسط، كما جاء في الآيات الأخرى، وكلّهم أوتي الحكمة وأوتي النبوّة، وأولئك هم الذين وكّلهم الله بدينهم، ويعلّمونه إلى الناس، ويقومون عليه، ويؤمنون به ويحفظونه، فإذا كفر بالكتاب والحكمة والنبوّة مشركو العرب: ﴿هَٰؤُلَاءِ﴾ فإنّ دين الله غنيٌّ عنهم، وهؤلاء الرهط الكرام والمؤمنون بهم حسب هذا الدين[1].

إنّها حقيقة قديمة امتدّت شجرتها، وموكب موصول تماسكت حلقاته، ودعوة واحدة حملها رسول بعد رسول، وآمن بها، ويؤمن من يقسم الله له الهداية، لما يعلمه من استحقاقه للهداية، وهو تقرير يسكب الطمأنينة في قلب المؤمن وفي قلوب العصبة المسلمة، أيّاً كان عددها.

إنّ هذه العصبة ليست وحدها، ليست مقطوعة من شجرة، إنّها فرع منشقّ من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وحلقة في موكب جليل موصول، موصولة أسبابه بالله وهداه.

[1] في ظلال القرآن، (1144/2).

إنّ المؤمن الفرد في أيّ أرض وفي أيّ جيل قويّ قويّ، وكبير كبير، إنّه من تلك الشجرة المتينة الشاهقة الضاربة الجذور في أعماق الفطرة البشريّة، وفي أعماق التاريخ الإنسانيّ، وعضو في ذلك الموكب الكريم الموصول بالله، وهداه منذ أقدم العصور[1].

- ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾؛ وهو التقرير الثالث: فهؤلاء الرهط الكرام يقودون موكب الإيمان هم الذين هداهم الله، وهُداهم الّي جاءهم من عند الله فيه القدوة لرسول الله تعالى ومن آمن به، فهذا الهدى وحده هو الّي يحتكم إليه، وهذا الهدي وحده هو الذي يدعو إليه ويبشّر به قائلاً لمن يدعوهم: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾، للعالمين لا يختصّ به قوم ولا جنس ولا قريب ولا بعيد، إنّه هدى الله لتذكير البشر كافّة، ومن ثمّ فلا أجر عليه يتقاضاه، وإنّما أجره على الله[2].

رابعاً: طرق الوحي:

1- طريق الوحي:

إنّ البشر يحصّلون علمهم بطريق الحواس أو العقل، أمّا علم الأنبياء تنقسم إلى أنواع ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: 51].

النوع الأوّل: أن يُلقي الله سبحانه المعنى في قلب النبي مباشرة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾.

ويكون ذلك في اليقظة والمنام وله صور عدّة:

---

[1] في ظلال القرآن، المصدر السابق، (1144/2).

[2] في ظلال القرآن، المصدر السابق، (1145/2).

– إلقاء الله معنى يفيضه على قلب رسوله في حالة اليقظة يستيقن معه أنّه من عند الله (عزّ وجل)، بحيث لا يجد فيه شكّاً، ولا يستطيع له دفعاً ويُسمّى هذا النوع من الوحي (النفث في الرّوع)، والرُّوع: القلب وفي الحديث: إنّ روح القدس نفث في رُوعي، أنّه لن تموت نفس حتّى تستوفي رزقها وأجلها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب[1].

وروح القدس: جبريل (عليه السلام).

ونفث في رُوعي: أي ألقى الوحي في قلبي.

– ومنها ما يكون رؤيا صادقة في النوم: ومن ذلك رؤيا إبراهيم (عليه السلام) وأمر الله إيّاه بذبح ولده، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102]. وفي صحيح البخاري، عن عائشة أمّ المؤمنين (رضي الله عنها) قالت: أوّل ما بُدي به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح[2].

والنوع الثاني: ما يكون مكالمة بين الله تعالى وبين رُسُله، وهو المراد من قوله تعالى ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164].

والنوع الثالث: ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل (عليه السلام)، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: 51].

وذلك أشهر أنواع الوحي، ويسمّيه العلماء: الوحي الجليّ ووحي القرآن كلّه من هذا النوع، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97].

---

[1] رواه ابن أبي شيبة في الزهد، رقم35473، وقال الحافظ في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، كتاب من قبل شهاب الدين احمد بن على بن حجر العسقلاني، دار العاصمة، السعودية، ط1، 1419هـ، (927)، فيه انقطاع.

[2] متفق عليه، رواه البخاري في التفسير، (4953).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: 192-195].

2- الفرق بين النبي والرسول:

اختلف العلماء في التفريق بين معنى النبي والرسول، على أقوال: فرأى بعضهم أنّهما سواء، فالنبيّ والرسول لفظان لمعنى واحد، ورأى البعض: أنّهما متفرّقان من وجه ويجتمعان من وجه، كما قال القاضي عياض: والصحيح والذي عليه الجمَّاء الغفير، أنّ كلّ رسول نبي وليس كلّ نبي رسولاً[1].

والراجح في الفرق بين النبيّ والرسول، أنّ الرسول من بُعث بشرع جديد، وأُمر بتبليغه، والنبيّ من أُمر بالتبليغ ولكن بشرع من سبقه من الرسل، كحال أنبياء بني إسرائيل الذين كُلِّفوا بتبليغ شريعة موسى (عليه السلام) والمراد بالشرع هنا، هو: التشريع الذي يحوي شيئاً جديداً لم يكن له في التشريع السابق، كما في حال عيسى (عليه السلام) فقد قال الله في شأنه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: 50].

3- أهمّ صفات الرسل ومنهم زكريّا ويحيى (عليهما السلام):

الرسل هم سفراء الله تعالى إلى الخلق لهدايتهم إلى الحقّ، ودعوتهم إلى الخير.

وهداية البشر مهمّة عظيمة، لا يصلح لها إلّا من توفّرت فيهم صفات رفيعة من الكمالات الإنسانيّة، فالرسول رجل اصطفاه الله من البشر واختصّه بالوحي، وأمره بتبليغه، فهو مصطفى، وموحى إليه، ومُبلّغ عن الله ومِن أهمّ صفاتهم المتعلّقة بالرسالة:

أ- الصدق:

فالرّسل صادقون في أقوالهم وأعمالهم، قال تعالى: على لسان الكافرين حين يُبعثون من قبورهم يوم القيامة: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52].

[1] الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الحديث، 2010م، (1،251)، تفسير القرطبي، (80/12).

والرسالة لا يصلح لها كذّاب والرسل مُبلّغون عن الله تعالى، وداعون إلى الحق قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: 105]. فيستحيل على النبيّ الكذب، وذلك بنقل وحي الله تعالى إلى الناس، فلو صدر منه الكذب لتسرّب شكّ الناس إلى الوحي الذي ينقله إليهم[1]. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: 44-47].

ب- الفطانة:

وهي أن يكون الرسول ذكيّاً عميق الفهم، حاضر البديهة، قويّ الحُجّة، سديد الرأي، ليس غبيّاً ولا بليداً، لأنّ الرسول يُربّي أمّته، ويجادل خصومه، ويقيم البراهين على صحّة ما جاء به[2].

ج- التبليغ:

لا بد لهذا الصادق الفَطِن أن يُبلّغ ما أوحي إليه من الأحكام والشرائع، وهذا مقتضى الرسالة، فقد قام يونس (عليه السلام) بتبليغ الرسالة حقّ التبليغ.

د- العصمة:

وهي حفظ الله تعالى رسله من المعاصي والذنوب، ليكونوا أسوة حسنة للناس، ولهذا نؤمن نحن المسلمين بعقيدة (عصمة الأنبياء) من الخطايا والرذائل التي تنافي تكليفهم هداية البشر، وتنفّر الناس منهم، وتجعلهم عرضة للانتقاد.

ومعنى العصمة: أنّهم لا يتركون واجباً، ولا يفعلون محرّماً، ولا يقترفون ما يتنافى مع الخُلُق الكريم، فأفعالهم وأقوالهم وأحوالهم دائرة بين الواجب والمندوب، فهم معصومون عن الكبائر وعن المنفّرات، ورسل الله (صلوات الله وسلامه عليهم) معصومون في تبليغ الوحي عن الكذب والنسيان والغفلة ومعصومون عن

---

[1] موسوعة الأعمال الكاملة، (378/8).

[2] موسوعة الأعمال الكاملة، المصدر السابق، (379/8).

الزيادة فيه أو إخفاء بعضه. وهم معصومون أيضاً من الوقوع في كبائر الذنوب، وعن الصغائر التي تدلّ على خساسة الطبع، صيانة لعلوِّ مكانتهم[1].

هـ- مكارم الأخلاق:

الرسل متّصفون بأرفع الكمالات الإنسانيّة، ويتحلّون بأسمى الأخلاق الفاضلة: كالكرم، والعدل، والشجاعة، والصبر، والعفّة، والأمانة، والحلم، والحياء، وسائر مكارم الأخلاق، ولذا فقد وصف الله تعالى نبيّنا الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. فالرسالة لا يصلح لها بخيل، ولا حقود، ولا حسود، وإنّما يصلح لها من اتّصف بكرم النفس وطهارتها، وتحلّى بالأخلاق الفاضلة، وإنّما خصّ الله رسله بهذه الصفات ليصحّ الاقتداء بهم، ولو لم يكونوا متميّزين بهذه الفضائل، معصومين من النقائص، لما كانوا أهلاً لاختصاص الله إياهم بوحيه، ولضعف ثقة الناس بهم ولضاعت الحكمة من رسالتهم[2].

هـ- الكمال في الخلقة الظاهرة والسلامة من الأمراض المنفّرة:

وكما يجب الإيمان بصدق الرسل وأمانتهم، وتبليغهم وفطانتهم وعصمتهم، فكذلك يجب الإيمان بكمال خلقتهم، فهم يتميّزون بسلامة أبدانهم ممّا تنفر منه الطباع السليمة، فلا يمرضون مرضاً منفّراً أو مُقعداً عم تبليغ رسالاتهم، كالجدري، والجذام، والبرص، والصرع، والحمّى، فإنّها قد تصيبهم؛ لأنّها لا تمنعهم من أداء رسالتهم، وقد كان النبي ﷺ يمرض، وتُصدّع رأسه، ومن ذلك ما رواه ابن مسعود: "دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك وعكاً شديداً، فمسسته بيديّ، وقلت: يا رسول الله إنّك توعك وعكاً شديداً، فقال ﷺ: أجل، كما يوعك رجلان منكم"[3].

---

[1] موسوعة الأعمال الكاملة، (8/381-382)، وللتوسع: العصمة في عقيدة أهل السنّة، منصور بن رشد التميمي، ص15، دراسات في التفسير الموضوعي، د. زاهر الألمعي، ص250، العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، ص44-46.

[2] موسوعة الأعمال الكاملة، (8/390).

[3] رواه البخاري، رقم (5660).

وما يُحكى عن سيّدنا أيّوب (عليه السلام) من أنّه اشتد به المرض، وصار الدود يخرج من بدنه، كذب وافتراء وتشويهات إسرائيليّة يتنزّه منصب النبوّة عنها[1].

4- الإيمان بالأنبياء والمرسلين:

الإيمان بأنبياء الله ورسله ركن من أركان الإيمان، فلا يتحقّق إيمان العبد حتّى يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ويصدّق بأنّ الله تعالى أرسلهم لهداية البشر وإرشاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنّهم بلّغوا ما أُنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة، ونصحوا الأمم، وجاهدوا في الله حقّ جهاده.

قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]. وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177]. ومن السنّة قول النبي ﷺ: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه، وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث[2].

والإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله لا يتمّ حتّى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصر، ومن قصّهم الله علينا ومن لم يقصصهم، فقد أخبرنا جلّ وعلا أنّ هناك أنبياء لم يقصصهم علينا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78]. فنؤمن بما سمّى الله في كتابه من رسله، ونؤمن بأنّ الله سوّاهم رسلاً وأنبياء لا يعلم أسماءهم إلّا الذي أرسلهم، ونؤمن بمحمد ﷺ، وإيمانك به غير إيمانك بسائر الرسل، إيمانك بسائر الرسل: إقرارك بهم وإيمانك بمحمد إقرارك به وتصديقك إيّاه دائباً على ما جاء به، فإذا اتّبعت ما جاء به أدّيت الفرائض وأحللت الحلال، وحرّمت الحرام، ووقفت عند الشبهات وسارعت في الخيرات[3].

---

[1] موسوعة الأعمال الكاملة، (391/8).

[2] البخاري، رقم (48).

[3] مجموع الفتاوى، (313/7).

ومن أطاع رسولاً واحداً فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحد منهم فقد عصى الجميع، لأنّ كلّ رسول يصدّق الأجر ويقول: إنّه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذّب الذي صدّقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته[1].

5- عدد الرسل:

أرسل الله سبحانه رسلاً إلى جميع الأمم، لا يعلم عددهم إلّا الله سبحانه، وقد قصّ القرآن الكريم علينا بعضاً منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164].

والآيات القرآنيّة تشير إلى أنّ الأنبياء والرسل أعدادهم وفيرة ومن دلائل ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ﴾ [المؤمنون: 44]. أي: متتابعين، ودلّت الآية على أنّ الرسل (عليهم السلام) تتابعوا واحداً تلو الآخر، ممّا يدلّ على كثرتهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: 36]، وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: 6]، و(وكم): هنا خبريّة، معناها التكثير، والمعنى: ما أكثر ما أرسلنا من الأنبياء في الأمم السابقة. وقد ورد ذكر خمسة وعشرين من الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهم: آدم أبو البشر، ونوح شيخ المرسلين، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل بن إبراهيم، وإسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان بن داود، وأيوب، ويونس، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، وزكريّا، ويحيى بن زكريّا، وعيسى، ومحمّد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

[1] مجموع الفتاوى، المصدر السابق، (180/19).

ومن هؤلاء الخمسة والعشرين أربعة من العرب وهم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد (صلّى الله عليهم أجمعين)، وقد وردت في بعض الأحاديث الضعيفة أعداد المرسلين، وهي أحاديث لا تقوم بها حجّة، ولا ينبغي لأهل العلم والإيمان أن يشغلوا الناس ويضيّعوا أوقاتهم بها.

وقد اختلف في (ذو القرنين، وتُبّع، والخضر) هل هم أنبياء أم لا؟

فذهب طائفة من أهل العلم إلى أنّ ذا القرنين نبي من الأنبياء وكذلك تُبّع، والأَولى أن يتوقّف في إثبات النبوّة لهما، لما صحّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال: ما أدري تُبّع أنبياء أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبياء كان أم لا[1].

وأمّا الخضر فقد رجّح الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي (رحمه الله) أنّه نبي، لقوله تعالى في آخر قصته: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: 82] أي: أنّه قد أوحى إليه فيه[2].

6- التفاضل بين الأنبياء والرسل:

وقد أخبر القرآن الكريم أنّ الله فضّل بعض الرسل على بعض، فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: 253]. والتفضيل راجع إلى اختيار الله تعالى، بمزايا وهبها الله لنبيّه أو لأمّته أو لرسالته.

وأفضل الرسل على الإطلاق هم أولو العزم، وأفضل أولو العزم هو رسولنا محمد ﷺ، إذ أنّه جمع كلّ ما تفرّق في الرسل السابقين ورسالاتهم من مزايا ومحاسن وكمالات، فهو أفضل المرسلين وسيّدهم، ورسالته أكمل الرسالات وأعمّها وأشملها وأمّته خير أمّة أُخرجت للناس، ودينه هو الذي ارتضاه الله لعباده إلى أن تقوم الساعة.

---

[1] رواه الحاكم في الإيمان، (36/1)، وصحّحه على شرط الشيخين.

[2] موسوعة الأعمال الكاملة، (402/8).

وأفضل أولي العزم بعد رسولنا محمد ﷺ، هو أبونا إبراهيم (عليه السلام) واختلف في ترتيب الثلاثة الباقين بعدهما[1].

7- أولو العزم من الرسل:

العزم: القوّة في الدين، والإمامة في الصّبر، والتقوى، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: 186].

والراجح إنّ أولي العزم من الرسل خمسة وهم: نبيّنا محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى (عليهم السلام). وقد خصّهم الله بالذكر في كتابه في بعض المواضع:

- كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا۷﴾ [الأحزاب: 7].

- وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: 13].

وفي الآيتين دليل على أنّ هؤلاء الخمسة هم أولو العزم؛ لأنّ الله تعالى ذكر الأنبياء ثمّ عطف عليهم هذه المجموعة، وعطف الخاصّ على العام يفيد أنّ للخاص زيادة في الفضل.

وخاطب الله تعالى نبيّه محمّداً بقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35].

أمّا سبب تسميتهم بذلك، فلما تميّزوا به من الهمّة العظيمة في الدعوة إلى الله، والصبر على ما نالهم من الأذى الشديد في سبيل الله، والثبات في مواجهة الباطل، والقوّة في الحقّ.

قال ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: 35]: "ذوو الحزم والصبر"، وقال الضحّاك: "ذوو الجِدِّ والصبر"[2].

---

[1] موسوعة الأعمال الكاملة، المصدر السابق، (402/8).

[2] تفسير البغوي (معالم التنزيل)، الحسين بن مسعود البغوي، دار طيبة، 2007م، (207/4).

وقد أثنى الله على أولي العزم من الرسل لما فيهم من جميل الخِلال، وعِظَم الصفات، كما قال تعالى عن نبيّه نوح (عليه السلام): ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: 3].

وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: 120-121]. وقال: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]. والخُلّة: هي كمال المحبّة.

وقال عن نبيّه عيسى (عليه السلام): ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: 45]. وخاطب خاتم رسله محمّداً ﷺ، بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: 21][1].

8- حكمة إرسال الرسل عامّة:

من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، أنّ الخلق بحاجة إلى الرسل ليُبلّغوهم ما يُحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء (عليهم السلام)، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رُسُلاً مبشّرين ومنذرين.

فالرسل بُعثوا يُهذّبون العباد ويُخرجونهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ويُحرّرونهم من رِقّ عبوديّة المخلوق، إلى حرّية عبادة ربّ العالمين الذي أوجدهم من العدم وسيفنيهم بعد الوجود، وبعثهم بعد الفناء، ليكونوا إمّا أشقياء وإمّا سُعداء.

ولو ترك الناس هملاً دون إنذار وتخويف، لعاشوا عيشة ضنكاً في جاهليّة جهلاء، وضلالة عمياء، وعادات منحرفة، وأخلاق فاسدة، وأصبحت الحياة مجتمع غاب، القويّ فيهم يأكل الضعيف، والشريف

[1] موسوعة الأعمال الكاملة، القرضاوي، الدار الشامية، ط1، 2022م، (404/8).

فيهم يذلّ الوضيع، وهكذا فاقتضت حكمته (جلّ وعلا) ألّا يخلق عباده سُدى ولا يتركهم هملاً، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36].

ومن رحمته (جلّ وعلا) بهم، أن منّ عليهم فبعث رُسُلاً مبشّرين ومنذرين يتلون عليهم آيات ربّهم، ويعلّمونهم ما يصلحهم، ويرشدونهم إلى مصدر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[1].

أ- قطع المعاذير في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: 165].

ب- إزاحة الغفلة والإعداد للهداية:

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: 119].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: 45-46].

وقال تعالى: ﴿مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: 2].

ج- رفع الاختلاف وردّ الناس إلى أصول يتّفقون عليها:

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 213].

د- إقامة القسط بين الناس:

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25].

[1] نوح عليه السلام والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية، علي محمد محمد الصلابي، دار ابن كثير، 2019م، ص81.

فهدف الرسل والرسالات السماويّة كلّها: إقامة العدل بين الناس، وليس المراد إقامة التعادل والتوازن بين بعضهم البعض فقط، بل بين القيم بعضها وبعض، والفضائل بعضها وبعض، والحقوق بعضها وبعض، فلا ينبغي أن يطغى حقّ على واجب، ولا أن يطغى رجل على امرأة، ولا أن يطغى حاكم على محكوم، ولا أن يطغى الفرد على المجتمع، والمجتمع على الفرد، أو أن تطغى المعاني الرُّوحيّة على المعاني المادّيّة، أو المادّيّة على الرُّوحيّة، إنّه التوازن، إنّه العدل الذي جاء به الرسل جميعاً:﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: 8-9]. لا طغيان، ولا إخسار، ولا تطفيف، ولا إفراط، ولا تفريط[1].

هـ- الأسوة الحسنة:

إنّ مهمّة الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) هي الدعوة إلى الله، وإلى الحقّ والخير، وتحويل هذه الدعوة إلى عمل وسلوك وتطبيق ليقتدي الناس بهم.

- قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90].

- وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: 21].

هذه أهمّ المهمّات التي يقوم بها الرسل (عليهم السلام) في هداية الناس إلى الحقّ والخير، وتحذيرهم من الباطل والشرّ، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ [الكهف: 56][2].

9- وظائف الرسل:

إنّ الرسل (عليهم الصلاة والسلام) غايات عظمى، ووظائف كبرى، وأهدافاً سامية، أجمل بعضها في النقاط التالية:

---

[1] موسوعة الأعمال الكاملة، (409/8).

[2] موسوعة الاعمال الكاملة، (409/8).

- تبليغ الشريعة الربّانيّة إلى الناس.
- تبيين ما أنزل من الدين.
- دلالة الأمم على الخير، وتبشيرهم بالثواب المعدّ إلى ما فعلوه وتحذيرهم من الشرّ وإنذارهم بالعقاب المعدّ إن اقترفوه.
- إصلاح الناس بالقدوة الطيّبة، والأسوة الحسنة في الأقوال والأعمال.
- إقامة شرع الله بين العباد وتطبيقه.
- شهادة الرسل على أممهم يوم القيامة قد بلغوهم البلاغ المبين.

فهذه بعض وظائف المرسلين التي تزيدهم شرفاً إلى شرفهم، وفضلاً إلى فضلهم، ويكفيهم فخراً أنّهم يُبلّغون عن ربّ العالمين، فسبحان من خصّهم بهذه الرتبة العليّة، ومنحهم هذه الوظيفة السنيّة، واصطفاهم واختارهم من بين سائر عباده، ليقوموا بهذه الخدمة المرضية[1]، ويمكن التوسّع في وظائف الرسل بالرجوع إلى كتابي (نوح عليه السلام والطوفان العظيم).

10- أمور تفرّد بها الأنبياء:

أ- الوحي:

خصّ الله الأنبياء دون سائر البشر بوحيه إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: 110].

وهذا الوحي يقتضي عدّة أمور، يقارفون بها الناس، فمن ذلك تكليم الله بعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وتعريف الله لهم شيئاً من الغيب، يقول الله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الجن: 26-27].

[1] النبوات، ابن تيمية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، 2006م، (1/28-29).

ومن ذلك الإسراء بالرسول ﷺ إلى البيت المقدس، والعروج به إلى السماوات العُلا، ورؤيته الملائكة والأنبياء، واطّلاعه على الجنّة والنار، ومن ذلك رؤيته للمعذَّبين في قبورهم، وسماعه تعذيبهم، وفي الحديث: "لولا ألّه تدافنوا لدعوت الله أن يُسمعكم عذاب القبر"[1].

ب- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم:

وممّا اختصّهم الله به أنّ أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام، فعن أنس (رضي الله عنه) في حديث الإسراء: "والنبيّ نائمة عينه، ولا ينام قلبه، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم"[2].

وهذا وإن كان من قول أنس إلّا أنّ مثله لا يُقال من قبل الرأي، كما يقول ابن حجر[3]، وقال ﷺ: "تنام عيني ولا ينام قلبي"[4].

ج- الأنبياء لا يورِّثون:

ممّا اختصّ الله به الأنبياء أنّهم لا يورِّثون، بل ما تركوه من الأموال يكون صدقة من بعدهم، فعن عائشة (رضي الله عنها): أنّ رسول الله ﷺ قال: "لا نُورِّث، ما تركناه صدقة"[5].

والحكمة من ذلك: أنّ الله تعالى صان الأنبياء عن أن يورِّثوا دَيناً، لئلّا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوّتهم بأنّهم طلبوا الدنيا وخلَّفوها لورَثَتهم[6].

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16]، فالمراد بهذا الإرث: العلم والنبوّة والملك، وليس المراد وراثة المالك، لأنّه قد كان له بنون غيره، فما كان ليُخصَّ بالمال دونهم، ولأنه قد ثبت في (الصحاح) من غير وجه، عن جماعة من الصحابة أنّ رسول الله ﷺ قال: "لا نُورِّثُ، ما تركناه فهو صدقة".

---

[1] صحيح مسلم، ك الجنة (200/4)، رقم (2868).

[2] صحيح البخاري، رقم (3570).

[3] فتح الباري، (670/6).

[4] فتح الباري، (/670)، رقم (3569).

[5] صحيح البخاري، رقم (6730).

[6] منهاج السنة، ابن تيمية، جامعة الأمام محمد بن سعود، الطبعة الأولى، 1996م، (195/4).

وفي لفظ: "إنّا معاشر الأنبياء لا نورّث"، فأخبر الصادق المصدوق أنّ الأنبياء لا تورّث أموالهم عنهم كما يورّث غيرهم، بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج، لا يخصُّون بها أقرباءهم، لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك، كما هي عند الذي أرسلهم واصطفاهم وفضّلهم[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: 6]، ليس المراد به إرث المال، إنّما إرث العلم والنبوّة، وفي الحديث: "وإنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنّما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر"[2].

د- تخيير الإنسان عند الموت:

ممّا تفرّد به الأنبياء أنّهم يُخَيَّرون بين الدنيا والآخرة، فعن عائشة (رضي الله عنها) قالت: سمعت رسول الله ﷺ: "ما من نبيّ يمرض إلّا خُيِّر بين الدنيا والآخرة، وكان في شكواه الذي قُبِض فيه أخذته بحّة شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: 69]، فعلمت أنّه خُيِّر"[3].

هـ- لا تأكل الأرض أجسادهم:

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله، أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم، فمهما طال الزمان وتقادم العهد تبقى أجسادهم محفوظة من البلى، وفي الحديث: "إنّ الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء"[4].

و- العصمة:

العصمة من الأمور التي خصّ الله تعالى بها أنبياءه ورسله (عليهم السلام) دون سائر البشر، وقد عرّفها الراغب الأصفهانيّ في المفردات فقال: حِفظه إيّاهم أوّلاً بما خصّهم به من صفاء الجوهر، ثمّ بما أولاهم من

---

[1] البداية والنهاية، (17/2).

[2] العصمة في ضوء عقيدة أهل السنة، منصور راشد التميمي، مكتبة الرشد، 2015م، ص42.

[3] صحيح البخاري، ك التفسير، رقم (4586).

[4] سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، عزة الدعاس، دار الحديث، حمص، سوريا، ط1، 1388هـ، رقم (1047).

الفضائل الجسميّة والنفسيّة، ثمّ بالنصرة وتثبيت أقدامهم، ثمّ بإنزال السكينة عليهم، وبحفظ قلوبهم، وبالتوفيق[1].

وقد أخذ الحافظ بن حجر تعريف الراغب بشيء من التصرّف فقال في الفتح: وعصمة الأنبياء (على نبيّنا وعليهم الصلاة والسلام) حِفظهم من النقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسيّة، والنصرة والثبات في الأمور، وإنزال السكينة[2].

ومن خلال معرفة الرسالة، والنبوّة، وصفات الأنبياء والمرسَلين، والحكمة من إرسالهم، ووظائفهم، وما تفرّدوا به، نتعرّف على صفات يونس (عليه السلام) أكثر، والحكمة من إرساله، والوظائف التي قام بها، وما تفرّد به.

ب- هل يُنبّأ الأنبياء قبل سنّ الأربعين؟:

يقول العلماء: الأنبياء لا يُنبؤون إلّا في سنّ الأربعين لكنّ هذا الغالب، ليس دائماً، لأنّ قوم إبراهيم (عليه السلام) قالوا: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: 60]، ومعنى (الفتى): صغير السن.

وقال تعالى في شأن سيّدنا يحيى بن زكريّا (عليهما السلام): ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: 12]. والحكم هو النبوّة، وسيّدنا عيسى ما زاد عمره عن ثلاث وثلاثين سنة[3].

ج- الرسالة اصطفاء:

الرسالة منحة إلهيّة يختصّ بها من يشاء من عباده، فضلاً منه ونعمة وليست الرسالة درجة علميّة يمكن الحصول عليها بالاجتهاد أو التعبّد أو التعلّم، وإنّما هي اصطفاء واختيار للرسّل من بين سائر الناس. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: 75]

---

[1] المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، 2009م، ص337.

[2] فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، مصر، ط1، 1390هـ، (51/11).

[3] موسوعة الأعمال الكاملة، القرضاوي، المصدر السابق، (372/8).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].

د- الرسول يوحى إليه:

إنّ أخصّ ما يُميّز الرسول عن سائر البشر، أنّه يوحى إليه من الله (عزّ وجل)، فالرسول لا يصدر فيما يُبلّغه إلى الناس عن نفسه ورأيه، وإنّما يتلقّى ذلك بوحي من الله (عز وجل). قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: 110].

والوحي لغة: الإعلام في سرعة وخفاء.

واصطلاحاً: إعلام من الله لنبيّه بطريقة غير معتادة لدى البشر، تفيد الرسول العمل اليقيني القاطع بما أعلمه الله به[1].

خامساً: زكريّا (عليه السلام) على نهج الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام):

إنّ نبيّ الله زكريّا (عليه السلام) امتداد طبيعي لدعوة يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم، ودعوة الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) قائمة على توحيد الله وإفراده بالعبادة ومحاربة الشرك التي هي دين الإسلام.

وإنّ الإسلام هو دين الله الخالد الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي فرضه على البشر، منذ خلقهم، جاء به آدم ونوح وإدريس وإبراهيم وآل إبراهيم وآل عمران، وأنّه تمّ برسالة خاتم النبيّين، وأنّ هذا الدين جاء به النبيّون لأنّه هو الدين الوحيد، الذي يدعو إلى الوحدانيّة الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك. وهو الدين الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام العامّة التي لا تتغير بتغيّر الزمان أو المكان أو بتغير أحوال الناس في سلسلة حياتهم الإنسانية على وجه الأرض مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم، ومهما تغيّرت مهنهم وحِرفهم وثقافتهم في الحياة الدنيا[2].

---

[1] موسوعة الأعمال الكاملة، القرضاوي، المصدر السابق، (373/8).

[2] الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، دار ابن حزم، 2014م، ص318.

إنّ جميع الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) قد بعثهم الله بعقيدة الإسلام التي كانب تتلاءم مع البشريّة والإنسانيّة على مرّ القرون والعصور مع اختلاف البيئات، وبالرغم من تقلّبات الزمان وتغيّر عقليّات الناس قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، ولم يشأ الله تعالى بفضله ورحمته وكرمه أن يترك خلقه في ظلامات الجهل، تعبث بهم الأهواء وتضلّهم المطامع والأغراض، فأرسل إليهم الأنبياء، والمرسلين (عليهم السلام) على توالي القرون والعصور، يُبيّنون لهم سُبُل الرشاد، ويمدّونهم بالتعاليم التي تُقوّي عزيمتهم، ويُزوّدونهم بالأفكار الصالحة التي يستطيعون أن يهتدوا بهديها والتي تُساعدهم على التمييز بين الظلام والنور، وبين الهداية والضلال، وبين الطريق المستقيم والطريق المعوج الذي يؤدّي إلى الهلاك والفشل والدمار[1].

1- أصول الإيمان:

اِتّفقت جميع الرسالات السماويّة على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل (عليهم الصلاة والسلام) ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، لأنّها تتحدّث كلّها عن مقرّرات ثابتة لا يقوم الإيمان إلّا بها، فهي حقائق ثابتة لا تتطوّر ولا تتغيّر ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع، وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكّد هذه الحقيقة:

- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].
- وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر: 65-66].
- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

وإن عقيدة الإيمان التي أمر الله بها الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام)، ودعوا إليها مُخلصين، تشمل عناصر أساسيّة، تُطهّر القلب من بذور الشرك والوثنيّة، وتربطه بالله عقيدة صافية[2]. ولا شكّ أنّ كلّاً من زكريّا ويحيى كان من أنبياء بني إسرائيل الذين أوحى الله إليهم أن يدعوا قومهم إلى الإيمان به واتّباه رسله اعتناق العقائد الصحيحة واجتناب عبادة الآباء والأجداد وحثّهم على عبادة الله وحده لا شريك له[3].

---

[1] الارتباط الزمني والعقائدي بين ن الأنبياء والرسل، المصدر السابق، ص219.

[2] دراسات في التفسير الموضوعي، الألمعي، ص315.

[3] الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، ص292.

حيث أن في مناداة زكريّا (ربّ) بلفظ (ربّ) يدلّ على إيمانه بالربوبيّة التي دعا إليها قومه، قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38].

وقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: 3].

وقال: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [آل عمران: 40].

وقال: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ [آل عمران: 41].

وطبيعي أنّ الدعوة إلى الإيمان بربّ العالمين شملت الدعوة إلى الإيمان بوحدانيّة الله الذي وصفه زكريّا بأنّه ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89]، وبأنّه ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38]، والذي لو كان يؤمن بغيره لدعاه دونه.

ولقد كان زكريّا يَعلم أنّ الله هو الفعّال لما يُريد، وأنّه هو الذي بدأه وخلقه من العدم. ودعا زكريّا قومه إلى عبادة الله وحده وإلى تعظيمه وتسبيحه من دون سواه، ولذلك حين خرج على قومه من المحراب أمرهم أن يُسبّحوا الله، وأن يظلّوا على ذلك إلى آخر الحياة، وكانت دعوة زكريّا تشمل بوجود الملائكة، فقد أرسلهم الله إليه يبشّرونه بيحيى، كما بشّرت من قبل جده إبراهيم (عليه السلام).

وتشمل دعوة زكريّا الإيمان بالمعجزات، وبأنّ الله قادر على كلّ شيء، وإلّا لما قال: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: 38].

وهو يعلم كلّ العلم أنّه بلغ من السنّ مبلغاً ينقطع فيه النسل، وتنعدم فيه الوظيفة التناسليّة انعداماً كليّاً، بل خاصّة أنّه يعلم أنّ امرأته عاقر لا تحمل، وأنّ أعضاءها التناسليّة غير قابلة للتلقيح والحمل، لقد دعا زكريّا ربّه وهو على يقين تام وإيمان عظيم بقدرة الله المطلقة، وأنّه يفعل ما يشاء، فأكرمه الله بالمعجزات الباهرات الدالّة على قدرة الله وعلم الله وحكمة الله ومشيئة الله (عزّ وجل) وطبيعيّ أن يدعو زكريّا الناس إلى الإيمان برسالة الرسل جميعاً وهو إذ يفعل ذلك إنّما يفعل ما يؤمن به، فهو يؤمن بيعقوب ويوسف، وموسى وهارون، وداود وسليمان، والأنبياء الذين سبقوه، بل كان يؤمن بنبوّة انبه عندما بشّرته الملائكة بذلك ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وكلّ نبيّ يؤمن بكلّ الأنبياء والمرسلين جميعاً الذين سبقوه والذين جاؤوا من

بعده، وهو الميثاق الذي أخذه الله على النبيّين[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81].

ويشمل الإيمان بالرسالة والنبوّة الإيمان بالكتب المنزّلة، ولهذا قال الله ليحيى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12].

وكان يؤمن بالتوراة بكلّ ما جاء فيها من العقائد الصحيحة والأحكام التي سنّها الله، ولقد جاءت عقائد البعث والحساب والجنّة والنار، وكلّ ما يتعلّق باليوم الآخر فيما يُشير إليه قوله تعالى من يحيى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15]، ونعتقد أنّ الله تعالى لم يذكر هذه الآية الكريمة في شأن يحيى إلّا لأنّ يحيى يؤمن بالبعث، ونعتقد أنّ هذه العقيدة الإيمان باليوم الآخر دعا إليها زكريّا ويحيى (عليهما السلام) قومهما وأنّهم سيحيون بعد الموت ويُحاسبون على أعمالهم، وأنّ الله سيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّة الخلد، خالدين فيها، وأنّه سيُدخل الذين كفروا وعصوا طريق الرسل والأنبياء نار جهنّم خالدين فيها[2].

ولا شكّ أنّه كان على اطّلاع بتاريخ الأنبياء والمرسلين وابتداءً من قصّة آدم (عليه السلام) وعداوة الشيطان لبني آدم، وعصيانه لأمر ربّه وتوعّده بإضلال الناس أجمعين، وبسيرة نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وغيرهم من الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه.

2- أصول الشرائع:

وقد اتّفقت الشرائع في أصول التشريع غالباً، لأنّ مصدر التشريع واحد فقد شرع الله لعباده ما يُصلح شأنهم على امتداد رحلة بشريّة، وأرسل الله في كلّ أمّة رسولاً بشيراً ونذيراً، ليُجدّد ما اندرس في معالم أصول الدين ويصيف بأمر الله ما يُناسب كلّ قوم من شرائع من فروع الدين ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، إذن الاختلاف في فروع الشرائع وفي ميادين التطبيق العمليّة في كثير من الأصول، ولكن يبقى الجوهر واحداً في رسالات الأنبياء، فكلّ شريعة تصدّق ما قبلها من الشرائع، وتمهّد لما بعدها، وجاء القرآن الكريم مصدّقاً

[1] الارتباط الزمني والعقائدي بين ن الأنبياء والرسل، المصدر السابق، ص295.

[2] الارتباط الزمني والعقائدي بين ن الأنبياء والرسل، المصدر السابق، ص297.

لما بين يديه من الكتب السابقة، ومُهيمناً عليها بما يشمل عليه من استيعاب لجوانب الكون كلّها وما يصلح البشريّة إلى قيام الساعة[1].

3- أصول الأخلاق والفضائل:

اتّصف الأنبياء (عليهم الصلاة والسلام) بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل وفي مقدّمتها: الصدق، والأمانة، والفطانة، والبيان وغيرها. ومن الأخلاق الجامعة التي اتفقت عليها الرسل في كلّ الديانات السماويّة، الإحسان إلى الوالدين، النهي عن قتل الأولاد، الابتعاد عن الفواحش وعدم الاقتراب منها ما ظهر منها وما بطن، والنهي عن قتل النفس بغير حق، وتحريم أكل مال اليتيم، والإيفاء بالكيل والميزان، والعدل وقول الحق، والوفاء بالعهود، والكرم، والصدق، والشجاعة ...إلخ.

إنّ قصّة زكريّا (عليه السلام) مليئة بالدروس والعبر والفوائد، وقد وقفنا مع الكثير منها، كأهميّة التوكّل على الله ودعائه والإيمان بقدرته المطلقة، فهو الفعّال لما يُريد، وأهميّة الإكثار من ذكر الله ومن تسبيحه وتحميده، لأنّه بذكر الله تطمئن القلوب وتسكن النفوس، وتُغسل الخطايا والذنوب، وأنّ العقلاء وأهل الإيمان من الناس يلجؤون إلى خالقهم (عزّ وجل) لكي يرزقهم الذريّة الصالحة والأولاد الراشدين، الذين يُخلصون عبادتهم لله، ويبذلون أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الحقّ، ونشر الفضائل، ونبذ الرذائل، وأنّ الدعاء متى صدر من قلب سليم ولسان صادق، كان مرجوّ القبول، وجدير الإجابة[2].

سادساً: أهمّ صفات زكريّا (عليه السلام) ووفاته:

1- أهمّ صفات زكريّا (عليه السلام):

عاش زكريّا (عليه السلام) على الوفاء بالعهد، وحافظاً للعقيدة، وكان همّه تحقيق التوحيد والدعوة إليه وإفراد الله بالعبادة والطاعة، وأمله هداية الناس وردّهم إلى جانب الصواب، وكان دأبه التنقّل بين محرابه وعمله في النجارة، سعياً وراء الرزق الحلال، فإذا أصاب مالاً سدّ رمق الجائع ومسح دمعة البائس، وقضى حاجة

[1] دراسات في التفسير الموضوعي، الألمعي، ص37.

[2] أنباء الأنبياء، أحمد محمد أبو شنار، ص528.

المضطر، ثمّ رجع إلى محرابه راغباً في فضل الله، صامتاً إلّا عن ذكر الله (عزّ وجل)، هكذا عاش زكريّا حياة رائعة، حافلة بالمآثر الفاضلة، والمزايا الحسنة، فقد كان قنوعاً، رضيّ النفس، نقيّ الضمير[1].

وقد استجاب الله دعائه ووهب له يحيى (عليه السلام) وقد ذكرت مجموعة من الصفات في القرآن الكريم تجسّدت في شخص زكريّا (عليه السلام) منها:

نبيّ، ومُبشّر، وعبد لله، وموهوب، ومُنادى، وصالح، وكافل، وإن هذه هي أهمّ الصفات التي ذكرت في القرآن الكريم، من أراد التوسّع، فليرجع إلى كتاب صفات الأنبياء من قصص القرآن، مثل كتاب "يونس وزكريّا ويحيى" للدكتور عقيل حسين عقيل[2].

2- وفاة زكريّا (عليه السلام):

لم يخبرنا القرآن عن زكريّا (عليه السلام) إلّا أنّه كان نبيّاً رسولاً، وأنّه دعا طالباً منه الولد الوارث، وأنّه كان إماماً في قومه، وحوله مجموعة من اتباعه المؤمنين، وأنّه كان داعية يدعوهم إلى الله تعالى. ولم يزد الحديث الصحيح على ما ذكره القرآن إلّا أنّه كان (نجّاراً) يعمل ويأكل من عمل يده[3]. ولم يتحدّث القرآن عن وفاته، ولم يرد حديث صحيح مرفوع عن رسول الله ﷺ يبيّن كيفيّة وفاته، فلا نعرف عن وفاته شيئاً.

وقد تحدّثت الإسرائيليات عن كيفيّة وفاة زكريّا (عليه السلام)، وعن لحاق اليهود الكافرين به ليقتلوه، واختفائه منهم داخل شجرة، وبقاء طرف ثوبه خارجاً بارزاً، وعن إرشاد الشيطان اليهود إليه، ثمّ نشرهم الشجرة بالمنشار، وقطع جسم زكريّا قطعتين[4]، وقد ردّ الكثير من العلماء على الموضوعات والإسرائيليّات في قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام)، ومن مثل هذه الروايات روى مرفوعاً، من حديث إسحاق بن بشر الكاهلي – وهو كذّاب – إلى ابن عبّاس (رضي الله عنه) يرفعه إلى النبيّ ﷺ: أنّ لقى زكرّيا ليلة المعراج، وسأله عن مقتل يحيى فذكر القصّة السابقة التي عرضناها، ثمّ قال له – فيما يزعمون – (فما بلغ صبرك؟) قال زكريّا (عليه السلام): ما افتلت من صلاتي، فلمّا حمل رأسه إليها فوضعه بين يديها، فلمّا أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه، فلمّا أصبحوا قالت بنو إسرائيل: قد غضب إله زكريّا لزكرّيا، فتعالوا حتّى

---

[1] قصص الأنبياء في القرآن الكريم، سميح عاطف، ص614.

[2] صفات الأنبياء من قصص القرآن يونس وزكريا ويحيى، ص173 إلى 212.

[3] القصص القرآني، (4/ 153).

[4] القصص القرآني، (4/ 154).

نغضب لملكنا فنقتل زكريّا، فخرجوا في طلبي ليقتلوني، وجاءني النذير فهربت منهم، وإبليس أمامهم يدلّهم علي، فلمّا تخوّفت أن لا أعجزهم عرضت لي بشجرة فنادتني، وقالت: إليّ إليّ وانصدعت لي، ودخلت فيها، وجاء إبليس حتّى أخذ بطرف ردائي والتأمت الشجرة، وجاءت بنو إسرائيل، فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة، هذا طرف ردائه دخلها بسحره، فقالوا: نحرق هذه الشجرة، فقال إبليس: شُقّوه بالمنشار شقّاً. قال: فشققت مع الشجرة بالمنشار. فقال له: هل وجدت له مسّاً أو وجعاً؟

قال: إلّا أنما وجدت ذلك الشجرة التي جعل الله روحي فيها[1].

قال ابن كثير – رحمه الله –: هذا سياق غريب، وحديث عجيب، ورفعه منكر، وفيه ما ينكر على كلّ حال ولم يُرَ في شيء من أحاديث الإسراء ذِكر زكريّا (عليه السلام) إلّا في هذا الحديث، وإنّما المحفوظ عند بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء: (فمررت بابني الخالة يحيى وعيسى)[2].

أ_ قال الشيخ حامد أحمد الطاهر البسيوني: في الحديث إسحاق بن بشر الكاهلي وهو كذاب، وأصل الكلام مروي عن وهب بن منبه من الإسرائيليّات التي نقلها كما عند ابن عساكر[3]، في مختصر تاريخ دمشق[4].

ب– وقال الدكتور محمّد الفقي: وقد اختلفت الرواية عن وهب بن منبّه، هل مات زكريّا (عليه السلام موتاً أو قُتل قتلاً على روايتين، فروى عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه أنّه قال: هرب من قومه فدخل شجرة، فجاؤوا فوضعوا المنشار عليهما فلمّا وصل المنشار إلى أضلاعه أنّ فأوحى الله إليه، لئن لم يسكن أنينه لأقلبنّ الأرض ومن عليها، فسكن أنينه حتّى قطع باثنتين[5]، وهذا لا يثبت بل هو منكر وفيه ما ينكر.

وقد روى إسحاق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب أنّه قال: الذي انصدعت له الشحرة هو شَعْيا، فأمّا زكريّا فمات موتاً طبيعياً، والله أعلم بما كان، وبما يكون[6].

---

[1] صحيح قصص القرآن، حامد أحمد البسيوني، دار الحديث للطبع والنشر، 2005م، ص456.

[2] صحيح قصص القرآن، المصدر السابق، ص456.

[3] صحيح قصص القرآن، ص456.

[4] مختصر تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر، 2014م، (9/ 50).

[5] قصص الأنبياء، محمد الفقيه، مكتبة وهبة، 1989م، ص415.

[6] قصص الأنبياء، المصدر السابق، ص415.

ج– وقال الدكتور عثمان الخميس: عن وفاة زكريّا (عليه السلام): فالمشهور أنّه قُتل كما قال الله تعالى في وصف بني إسرائيل أنّهم كانوا يقتلون الأنبياء، فذكر أنّهم قتلوا زكريّا (صلوات الله وسلامه عليه) في قصّ مريم، وذلك لأنّهم اتهموه بمريم فقتلوه لذلك بعد أن فرّ منهم[1].

وعلّق الدكتور عمر أحمد عمر على من قال أنّ زكريّا قُتل قبل يحيى في روايات لا يثبت منها شيئاً، فقال: غير أنّي لا أميل إلى تصديق رواية أنّ يحيى قُتل قبل أبيه، لأنّ زكريّا رغب في الولد ليكون وارثاً له من بعد، والله (تبارك وتعالى) أكرم من أن يمكّن أعداءه منه في حياته ويلوّعه بفقده، ويجعله فرداً حزيناً على وفاته بعد أن قرّت به بعينه وسكنت به نفسه[2].

د– وقال الدكتور الخالدي – رحمه الله–: ولا نقول بهذه الإسرائيليّات، ولا نرضى ذكرهم مع المفسّرين والمؤرّخين المسلمين لها، ولا نقبل أن نفسّر بها كلام الله، ولا نعتمدها في الحديث عن وفاة نبيّ الله زكريّا (عليه السلام) ولا نقول شيئاً في وفاة زكريّا (عليه السلام)، فنقول بما قال به القرآن، ونسكت عمّا سكت عنه القرآن، أيّ: لا نقول: قتل اليهود الكفّار زكريّا (عليه السلام)، ندري هل مات زكريّا مقتولاً على أيدي اليهود أو مات موتاً عاديّاً.

وليس معنى هذا أن ندافع عن اليهود المجرمين، أو أن نقوم بتبرأتهم من قتل الأنبياء، فهم مجرمون وسفاكون، وقد أخبرنا الله أنّهم قتلوا بعض الأنبياء، وهذا يقين وصدق.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: 61].

وخاطب الله اليهود قائلاً لهم: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: 87].

اليهود قتلة الأنبياء وهذه حقيقة قرآنيّة صادقة، ويكفيكم هذا جريمة وشناعة ويكفينا هذا لنكرههم ونُبغضهم ونقاتلهم. أمّا تعيين الأنبياء الذين قتلوهم، وتحديدُ أسمائهم وأعدادهم وكيفيّات قتلهم، فهذا الذي لم يذكره القرآن، ولم يبيّنه حديث رسول الله.

---

[1] فبهداهم اقتده، ص436.

[2] رسالة الأنبياء، (2/ 261).

والخلاصة أنّنا نتوقّف في حديث الإسرائيليّات عن تفاصيل مقتل زكريّا (عليه السلام)، ولا نقول شيئاً في وفاته (عليه السلام)، لسكوت القرآن والحديث الصحيح عن ذلك، هذا عن زكريّا (عليه السلام) ونهايته[1].

سابعا: يحيى (عليه السلام) في الأحاديث النبوّية:

ورد في السنّة النبويّة مجموعة من الأحاديث في ذكر نبيّ الله يحيى (عليه الصلاة والسلام) منها:

1- من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه):

عن رسول الله ﷺ، قال: خلق الله يحيى بن زكريّا في بطن أمّه مؤمناً، وخلق الله فرعون في بطن أمّه كافراً[2].

2- وقال رسول الله ﷺ:

الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة إلّا ابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريّا، وفاطمة سيّدة نساء أهل الجنّة، إلّا ما كان من مريم بنت عمران[3].

3- ومن حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما):

قال: قال رسول الله ﷺ: لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يحيى بن زكريّا، ما همّ بخطيئة، فأحسبه قال: ولا عملها[4].

4- عن مالك بن صعصعة:

نبيّ الله ﷺ حدّثهم عن ليلة أُسري به: ثمّ صعد حتّى أتى السماء الثانية فاستفتح، قيل من هذا؟ قال جبريل: قيل: ومن معك؟ قال محمّد: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، فلمّا خلصت فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فنسلّم عليهما، فسلّمت، فردّا، ثمّ قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيّ الصالح[5].

---

[1] القصص القرآني، (4/ 159).

[2] أخرجه الطبراني في الكبير، رقم 10543، السلسلة الصحيحة، رقم 831.

[3] مشكل الآثار، الطحاوي، (2/ 393) الأحاديث الصحيحة، صالح العلي، رقم 268.

[4] الأحاديث الصحيحة في أخبار وقصص الأنبياء، صالح إبراهيم العلي، دار القلم، 2007م، رقم 269.

[5] الأحاديث الصحيحة، إبراهيم العلي، رقم 270.

ثامناً: وصيّة الله ليحيى بن زكريّا (عليهم السلام):

عن الحارث الأشعريّ: أنّ النبيّ ﷺ قال: "إنّ اللهَ أمرَ يحيى بنَ زَكريَّا بخمسِ كلماتٍ أن يعملَ بِها ، ويأمرَ بني إسرائيل أن يعمَلوا بِها ، وإنَّهُ كادَ أن يُبْطِئَ بِها، فقال عيسى: إنَّ اللهَ أمَرَكَ بخَمسِ كلماتٍ لِتَعمَلَ بها وتَأمُرَ بَني إسرائيلَ أن يَعمَلوا بها، فإمَّا أن تَأمُرَهم، وإمَّا أنْ آمُرَهم، فقال يحيى: أخشى إن سبَقتَني بها أن يُخسَفَ بي أو أُعذَّبَ، فجمَع النَّاسَ في بيتِ المقدِسِ، فامتَلأَ المسجدُ وقعَدوا على الشُّرُفِ، فقال: "إنَّ اللهَ أمَرني بخَمسِ كلماتٍ أن أَعمَلَ بِهِنَّ، وآمرُكم أن تَعمَلوا بهنَّ، أوَّلُهنَّ: أن تَعبُدوا اللهَ ولا تُشرِكوا به شيئًا، وإنَّ مَثلَ مَن أشرَكَ باللهِ كمثَلِ رجلٍ اشترى عبدًا مِن خالصِ مالِه بذهَبٍ أو ورِقٍ، فقال: هذه داري وهذا عمَلي، فاعمَلْ وأدِّ إليَّ، فكان يعمَلُ ويُؤدِّي إلى غيرِ سيِّدِه، فأيُّكم يَرضى أن يكونَ عبدُه كذلك؟! وإنَّ اللهَ أمركم بالصَّلاة، فإذا صَلَّيتُم فلا تَلتَفِتوا؛ فإنَّ اللهَ يَنصُبُ وجهَه لوجهِ عبدِه في صلاتِه ما لم يَلتفِتْ، وآمرُكم بالصِّيامِ؛ فإنَّ مَثلَ ذلك كمثَلِ رجلٍ في عِصابةٍ معَه صُرَّةٌ فيها مِسكٌ، فكلَّهم يَعجَبُ أو يُعجِبُه ريحُها، وإنَّ ريحَ الصَّائمِ أطيبُ عندَ اللهِ مِن ريحِ المسكِ، وآمرُكم بالصَّدقةِ؛ فإنَّ مثَلَ ذلك كمثَلِ رجلٍ أسَره العدوُّ، فأوثَقوا يدَه إلى عنُقِه، وقدَّموه لِيَضرِبوا عُنقَه، فقال: أنا أَفْديه منكم بالقليلِ والكثيرِ، ففدَى نفسَه منهم، وآمرُكم أن تَذكُروا اللهَ؛ فإنَّ مَثلَ ذلك كمَثلِ رجلٍ خرَج العدوُّ في أثَرِه سِراعًا حتَّى إذا أتى على حِصنٍ حَصينٍ، فأحرَز نفسَه منهم، كذلك العبدُ لا يُحرِزُ نفسَه مِن الشَّيطانِ إلَّا بذِكْرِ اللهِ". قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: وأَنا آمرُكُم بخَمسٍ اللَّهُ أمرَني بِهِنَّ، السَّمعُ والطَّاعةُ والجِهادُ والهجرةُ والجَماعةُ، فإنَّهُ مَن فارقَ الجماعةَ قيدَ شبرٍ فقد خلَعَ رِبقةَ الإسلامِ من عُنقِهِ إلَّا أن يراجِعَ، ومن ادَّعى دَعوى الجاهليَّةِ فإنَّهُ من جُثى جَهَنَّم، فقالَ رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ وإن صلَّى وصامَ؟ فقالَ: وإن صلَّى وصامَ، فادعوا بدَعوى اللَّهِ الَّذي سمَّاكمُ المسلِمينَ المؤمنينَ، عبادَ اللَّهِ[1]".

في هذا الحديث الشريف خماسيّتان، وهو بحقّ من جوامع الكلم، اشتمل عليه من روائع الأخلاق وفضائل العبادات، وأصول الخير لحفظ الفرد والجماعة، وهو حديث عجيب في ترتيبه كذلك.

فالخماسيّة الأولى جاءت لتهذيب الفرد وإصلاح نفسه وخلقه، وسموّ روحه وفكره، والخماسيّة الثانية جاءت للمحافظة على الجماعة، وتقوية الملّة، وهكذا نجد هذا الحديث الشريف يجمع عناصر العزّة وأسباب

[1] سنن الترمذي، رقم2863، الأحاديث الصحيحة، رقم267.

السعادة، ذلكم أنّ الجماعة لا تنمو ولا تبلغ هدفها الخيّر، ولا تُمنح العزّة والمَنعة إلّا إذا كان أفرادها قد مُنحوا القدرة على التغلّب على خطرات السوء ونوازع النفوس، ونوازع الشيطان، واستطاعوا أن يهذّبوا أنفسهم بعد ذلك بالتحلية بعظيم العبادات[1].

كما أنّنا نلاحظ:

قدّم لنا رسولنا محمّد ﷺ من خلال هذا الحديث يحيى (عليه السلام) داعياً إلى الله، آمراً بني إسرائيل بالمعروف، حيث أمرهم بعبادة الله وحده، وبالصلاة والصدقة، والصيام، وذكر الله، واستخدام ضرب الأمثال ليوضّح ما يأمرهم به، وهذا من فصاحته وعلمه ونجاحه في الدعوة إلى الله.

وكان عيسى (عليه السلام) شاهداً على يحيى وهو يُبلّغ قومه هذه الأوامر، بل لعلّه كان معه عندما دعاهم إلى ذلك الاجتماع الكبير الحاشد في بيت المقدس، حيث أمرهم بما أمره الله به.

واللّطيف أنّ رسولنا محمّداً ﷺ أضاف على الأوامر الخمسة الصادرة عن يحيى (عليه السلام) خمسة أخرى، وأمرنا نحن بها كلّها، أي صِرنا مأمورين بالأوامر العشرة، باعتبارها توجيهات وأوامر إسلاميّة: عبادة الله، والصلاة، والصدقة، والصيام، وذكر الله، والجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله[2].

تاسعاً: الوجود التاريخيّ ليحيى (عليه السلام):

نحن كمسلمين يكفينا ما قاله القرآن الكريم، وثبت عن النبيّ العظيم ﷺ عن يحيى بن زكريّا (عليهما السلام)، وعقيدتنا لا تهتزّ وثابتة أكثر من ثبوت الجبال في كلّ المعتقدات التي جاءت في الذكر الحكيم وفي سنّة خاتَم النبيّين، ورحمة الله للعالمين، وقد أكثر الملاحدة من التشكيك في الثوابت، وانتشرت بشهادتهم للطعن في الحقائق التاريخيّة الثابتة، وتصدّى لهم الكثير من العلماء والباحثين، ومن أشهرهم: الدكتور سامي العامريّ في كتابه (الوجود التاريخيّ للأنبياء وجدل البحث الأركيولوجيّ: شبهات وردود)، فبيّن في كتابه القيّم: أنّ الدلالة التاريخيّة عن وجود يحيى (عليه السلام) قويّة، ألزمت الدارسين أن يُجمعوا على حقيقة حياته في القرن الأوّل الميلاديّ[3].

---

[1] خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر، 2011م، ص280.

[2] القصص القرآني، (157/4).

[3] الوجود التاريخي للأنبياء، د. سامي العامري، رواسخ، ط1، 2021م، ص235.

قال الدكتور سامي العامريّ: "كان الوجود التاريخيّ ليحيى (عليه السلام) مُسَلَّماً به في الغرب، حتّى ظهرت مؤخّراً النزعة الشكوكيّة الغالية التي ترفض كل الأناجيل بين قلّة من الملاحدة، ولا يزال، في الحقيقة، الإجماع قائماً بين الأكاديميّين دارسي الأناجيل أنّ يحيى (عليه السلام) شخصيّة تاريخيّة عاشت في فلسطين في القرن الأوّل، وأنّه كانت لها علاقة بالمسيح (عليه السلام)، وهو ما يظهر مثلاً في دراسة (في ندوة يسوع) التي تمثّل أشهر تجمّع ليبرالي للنقّاد في العقود الأخيرة يبحث في مصداقيّة أخبار الأناجيل المتعلّقة بالمسيح (عليه السلام) وبيحيى (عليه السلام).

وقد نشر هذا الفريق العلميّ كتاباً تحت عنوان: (يوحنّا المعمدان ويسوع: تقرير ندوة يسوع): وقد انتهت هذه الندوة إلى إعلان اليقين بوجود يحيى (عليه السلام) بتصويت أفرادها جماعيّاً باللون الأحمر جواباً على سؤال تاريخيّة شخصيّته[1]".

علماً أنّ عادة (ندوة يسوع) أن تدرس النصوص محلّ البحث، ثمّ يصوّت المشاركون في الدراسة باختيار لون من أربعة ألوان:

- الأحمر: يقين.
- الزهريّ: راجح.
- الرماديّ: ممكن (مع شكّ).
- الأسود: مرجوح.

وقد سبق لها أن قرّرت في ضوء الاقتراع بالألوان السابقة في كتابها: (الأناجيل الخمسة: ماذا قال يسوع حقّاً؟)[2]:

أنّ 18% فقط من الأقوال المنسوبة إلى المسيح تصحّ نسبتها إليه، كما انتهت في كتابها (أعمال يسوع: ماّ قال يسوع حقّاً؟)[3].

إلى أنّ 16% فقط من الأفعال المنسوبة إلى المسيح في الأناجيل تصحّ أن تكون تاريخيّة[4].

---

[1] الوجود التاريخي للأنبياء، المصدر السابق، ص235.

[2] الوجود التاريخي للأنبياء، المصدر السابق، ص236.

[3] الوجود التاريخي للأنبياء، المصدر السابق، ص236.

[4] الوجود التاريخي للأنبياء، المصدر السابق، ص236.

وجاء ذكر يحيى (عليه السلام) في الأناجيل الأربعة باسم يوحنّا المعمدان، مرّات كثيرة مع تداخل ذلك أحياناً مع تفاصيل قصّة المسيح (عليه السلام) على صورة تقطع أنّ أصحاب هذه الأناجيل التي كُتبت في القرن الأوّل كانوا ينقلون عن تراث حاسم في شهادته لتاريخيّة هّا النبيّ، وقد ذُكرت احوال يحيى (عليه السلام) في مشاهد مختلفة، وبيّنها الدكتور سامي العامريّ في جداول في كتابه المذكور، ثمّ قال: "تمنع أن يكون خير وجوده (عليه السلام) اختلافاً لأغراض لاهوتيّة محضة[1]".

وقالت الناقدة كاثرين مرفي في كتابها (يوحنّا المعمدان): "كشف تحليل النقد التحريري المقاطع المحرّفة من النسّاخ المتأخّرين في الإنجيل، وفي أثناء ذلك كشف العناصر المركزيّة في التراث، والتي تحمل درجة عالية من القيمة التاريخيّة، وبيّنت أهمّ العناصر الموثوقة:

- الوجود التاريخيّ ليحيى (عليه السلام).
- تعميد يحيى (عليه السلام) للمسيح.
- ممارسة يحيى (عليه السلام) الدعوة في منطقة حكمها هيرودس أنتيباس.
- كان يحيى (عليه السلام) يعمّد في بريّة نهر الأردن.
- كان يحيى (عليه السلام) يمهّد بدعوته لشخص تالٍ يأتي بعده، ولا نستطيع، كما تقول، أن نجزم أنّه عيسى (عليه السلام).
- كان ليحيى (عليه السلام) تلاميذ يصومون ويعمِّدون.
- كان يحيى (عليه السلام) يعلّم تلاميذه الصلاة[2]".

وخلاصة قول الدكتور سامي العامريّ:

- إجماع النقّاد على تاريخيّة يحيى (عليه السلام).
- ذكرُ يحيى (عليه السلام) في الأناجيل في سياقات مختلفة، بعضها جوهريّ في سيرة المسيح، حجّة على منع القول باختلاق خبر يحيى (عليه السلام) كلّه.
- ما ذكره المؤرّخ يوسيفوس عن يحيى (عليه السلام) شهادة أصيلة وقويّة قريبة من أيّام هذا النبيّ[3].

---

[1] الوجود التاريخي للأنبياء، المصدر السابق، ص236.

[2] الوجود التاريخي للأنبياء، المصدر السابق، ص241.

[3] الوجود التاريخي للأنبياء، المصدر السابق، ص248.

عاشراً: وفاة يحيى (عليه السلام) وما قيل فيها:

فصّلت الإسرائيليّات كثيراً في مقتل يحيى (عليه السلام) على أيدي الملك اليهوديّ، واستهوت هذه التفصيلات المفسّرين والمؤرّخين، فأوردوها في كتبهم[1]، واعتمد عليها الكثير من المعاصرين.

1- الشيخ عبد الوهّاب النجّار (رحمه الله) قال:

"كان يحيى (عليه السلام) بارعاً في الشريعة الموسويّة، ومرجعاً مهمّاً لكلّ من يستفتي في أحكامها، وكان أحد حكّام فلسطين يقال له (هيرودس)، وكانت له بنت أخ يقال لها (هيروديا) بارعة الجمال، أراد عمّها أن يتزوّج منها، وكانت البنت وأمّها تريدان ذلك، غير أنّ يحيى لم يرضَ عن هذا الزواج لأنّه محرم؛ وعرف عنه أنّه معارض في ذلك، فانتهزت أمّ الفتاة إخراج فتاتها إلى عمّها، في زينتها، ورفضت أمامه، فسرّ منها، وطلب منها أن تقول ما تتمنّاه ليعمله لها، وكانت أمّها لقّنتها أنّها، إذا قال لها عمّها ذلك، تطلب منه رأس يحيى بن زكريّا في هذا الطبق، ففعلت ووفّى لها عمّها الحاكم بذلك، وقتل يحيى[2]".

2- قال الدكتور عثمان الخميس:

"لم تستمرّ دعوة يحيى كثيراً، صلوات الله وسلامه عليه، وقد كان في سنّ الشباب، فقد قرّر ملكهم في ذلك الزمان أن يتزوّج إحدى محارمه: خالته، أو عمّته، أو بنت أخيه، أو بنت أخته، لا يُعلم لكنّها من محارمه التي يحرم عليه أن يتزوّجها، فسُئل يحيى عن ذلك فقال: "حرام هي لا تحلّ"، وكانت المرأة تريد الملك، فجاءت الملك في يوم من الأيّام حتّى أغرته وصار هيّناً ليّناً معها، فقالت: أريد منك شيئاً واحداً، قال: كلّ ما تريدينه أعطيتك إيّاه، ماذا تريدين؟ قالت: أريد رأس يحيى، قال: أو غير ذلك، اطلبي غيره، قالت: ليس إلّا ذلك، ما أريد إلّا رأس يحيى، هذا مهري منك، وعندها أطرق قليلاً ثمّ قال: لك ذلك، ثمّ أمر بيحيى، صلوات الله وسلامه عليه، فقُتل وقُدِّم رأسه، صلوات الله وسلامه عليه، مهراً لتلك البغيِّ[3]".

---

[1] القصص القرآني، (158/4).

[2] قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة النصر، 1998م، ص480.

[3] فبهداهم اقتده، عثمان الخميس، ص436.

3- محمّد أحمد جاد المولى:

في كتاب (قصص القرآن)، تأليف محمّد أحمد جاد المولى، محمّد أبو الفضل إبراهيم، وعليّ محمّد البيجاويّ، والسيّد شحاته، كان رأيهم على نفس المنوال السابق، حيث قالوا عن يحيى (عليه السلام): "واشتهر بالعلم حتّى أحصى مسائل التوراة، واستجلى غوامضها، وأحاط بأصولها وفروعها، وأضحى فيصل أحكامها، وقاضي معقولها، وعُرف بين الناس أنّه جريء في الحقّ، شديد على الباطل، لا يخشى في الله لومة، ولا صولة عاتٍ ظالم، نقول إليه يوماً أنّ هيرودس حاكم فلسطين، قد هوى هيروديا بنت أخيه، إذ كانت بين عينيه بارعة الشكل، فتّانة المحاسن، جميلة التكوين، وأنّه قد عزم على زواجها، والدخول بها، وظاهرته على ذلك أمّها وذوو قرباها، فأعلن يحيى أنّ ذلك زواج باطل لا تقرّه شريعة، وتأباه روح الكتاب، وقال: "إنّي لا أعترف به، وأجهر باستنكاره"، وشاع رأيه في المدينة، وفي القصور، وفي الخدور، وفي أماكن اللهو، وفي مواطن العبادة، وبلغ هيروديا ما جهر به يحيى، وما اشتهر به بين الناس، فسخطت عليه في نفسها، وأضمرت العداوة، وأبطنت الغلّ، ثمّ استحال غيظها إلى حزن وكمد، وهمّ وأسى، وخافت أن تذهب هذه القالة برجائها المعسول، وربّما صرفت عمّها عن الزواج، ولكنّها عزمت أن تستعين بحسنها وجمالها، فلعلّ جمالها ينيلها غرضها، ويحقّق غايتها، فتجمّلت ما استطاعت أن تتجمّل، وعُنيت بزينتها ما قُدّر لها أن تعنى، ودخلت على عمّها قسيمة ونسيمة، حسنة الشارة، جميلة الهيئة، فاقتُنص بحبال فتنتها، واختُلب بعذوبة منطقها، ثمّ سألها: أيّ أمنية تتمنّين؟ قولي فأنا رهن إشارتك، قيدٌ بكلماتك، قالت: إن رضي الملك فلست أبغى إلّا رأس يحيى بن زكريّا، ذلك الذي سمّع بالملك وبي في كلّ مكان، وغمزه في كلّ ناد، إن رضي الملك بذلك فإنّي قريرة العين، هادئة البال، منقوعة العليا، فأجاب لداعي الهوى، وأصاح لكلمة الجمال، وأهمّ عن نداء الضمير، وهُتاف الوجدان، وما هي إلّا ساعات حتّى كان رأس يحيى بين يديها، فشفت غلّها، وأطفأت وقْدت غيظها، ولكنّها استنزلت لعنة الله عليها وعلى بني إسرائيل[1]".

[1] قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، دار الجيل، 2011م، ص243.

4- وقال الأستاذ أحمد بهجت:

"ووقع الصدام بين يحيى والسلطات الحاكمة في ذلك الوقت، وكان أحد ملوك ذلك الزمان طاغية، ضيّق العقل، غبيّ القلب، يستبدّ برأيه، وكان الفساد منتشراً في بلاطه، وكان يسمع أنباء متفرّقة عن (يحيى) فيُدهش لأنّ الناس يحبّون أحداً بهذا القدر، وهو ملك ورغم ذلك لا يحبّه أحد.

وكان هذا الملك يريد اغتصاب زوجة أخيه، وكانت لها ابنة جمعت مع فتنة الأنوثة شهرة ذائعة في الرقص، وتقول الحكايات: إنّها كانت ترقص وهي ترتدي سبعة أردية، تخلع رداء مع كلّ رقصة، حتى ترقص رقصتها الأخيرة عارية.

وسأل الملك (يحيى) هل يجوز له أن يتزوّج زوجة أخيه؟ فقال يحيى (عليه السلام): "لا يجوز"، وراح الملك يحدّث (يحيى) بأنّه يريد الزواج منها، وعلى (يحيى) أن يجد له فتوى ترضيه، ورفض (يحيى) أن يوافق الملك على رغبته، قال له حكم الشريعة، ونركه وانصرف، وزاد غضب الملك على (يحيى)، فأمر بسجنه، واغتصب الملك زوجة أخيه، وكانت ابنتها الراقصة قد شاهدت (يحيى) وهو يحدّث الملك، وأحسّت بنبل وجهه، وجمال روحه، وجلال شخصيّته، وأحبّته الراقصة، وذهبت إليه في سجنه، وشاهدته يجلس منخرطاً في الصلاة والبكاء، راقبته وهو يصلّي حتّى فرغ، ألقت بنفسها تحت قدميه وسألته أن يحبّها كما تحبّه.

قال يحيى: "ليس في قلبي مكان لحبّ غير الله"، نهضت المرأة يائسة، وانصرفت عنه وقد امتلأ قلبها بكراهيّته، وعادت إلى قصر الملك، كان العشاء قد انتهى، وبدأ الملك بشرب الخمر، وبدأت تسقيه حتّى أحسّ أنّ رأسه مثل بالونة ضخمة، وأنّه سيطير بعد قليل، هنالك نهضت الراقصة وأسرعت ترتدي ثياب الرقص وعادت إلى الملك، نظر الملك إليها وأحسّ أنّ رأسه يزداد تهوية ويخلو، وفي أثناء سكرته ومجونه ورقصها، توقّفت في لحظة نشوته وقالت للملك: أريد أن أسأل مولاي شيئاً، قال الملك المخمور الطاغية: طلّ شيء تطلبينه سأعطيه لك الآن، قالت المرآة: أريد رأس (يحيى بن زكريّا).

تردّد الملك، وأصرّت المرأة، واستجاب لها في النهاية، وأصدر أمره إلى قائد الحرس الملكيّ، وارتفعت الأيدي الآثمة بالسيوف، وهبطت على العنق النبيل، ومضى النبيّ الكريم إلى الشهادة[1]".

[1] أنبياء الله، ص373،374.

لقد فصّلت الإسرائيليّات كثيراً عن وفاة يحيى (عليه السلام)، وتأثّرت بها كتب التاريخ والتفاسير وغيرها، وصوّرت أقلام الأدباء هذه الحادثة معتمدة على تلك الروايات التي تصوّر أنّ الملك استجاب لطلب تلك المرأة الشريرة، ونفذ طلبها، وأمر جنوده أن يقدّموا لها رأس يحيى على طبق من ذهب، وغضب الله عليهم وإيقاع المذبحة لهم[1].

5- قال الدكتور محمّد عبده نور الدين:

"لم ينصّ القرآن الكريم أو السنّة الصحيحة على حقيقة نهاية يحيى بن زكريّا (عليهم السلام)، كما لم تحمل الآثار والأخبار الأخرى رواية معقولة ومقبولة عن هذا الأمر، تستند إلى ثوابت ومضامين دينيّة وتاريخيّة، لكم ما شاع تحمل رواية العهد الجديد في هذا الأمر، مع تباين في بعض السياق أو الصيغة، ممّا لا يؤثّر على تطابق المعنى والمضمون[2].

إنّ القرآن الكريم لم ينصّ على قتله، ولا أشار إلى ذلك، وكذلك السنّة، بل إنّ حديث القرآن الكريم عن زكريّا ويحيى يدلّ على عدم قتله، وأنّه سيموت موتاً لا قتلاً: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15].

والقرآن الكريم فرّق بين حالات الموت وحالات القتل، فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران: 158].

وقال (عزّ وجلّ): ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144][3].

وقال: إنّ الرواية العربيّة التي شاعت عند بعض المفسّرين والمحدّثين والمؤرّخين في هذا الأمر هي من الإسرائيليّات التي دخلت في التراث الإسلاميّ، وخاصّة وأنّ أصلها موجود في مصادر الإسرائيليّات[4]، وقال: لا تتّسق استجابة الله لنبيّه زكريّا ببشارته بغلام يرثه ويرث آل يعقوب في النبوّة والعلم، وبولايته لأبيه وهو شيخ كبير وهن منه العظم، واشتعل رأسه شيباً، ثمّ يقتل في حياة أبيه[5].

---

[1] القصص القرآني، (158/4).

[2] تاريخ الأنبياء، ص342.

[3] تاريخ الأنبياء، المصدر السابق، ص343.

[4] تاريخ الأنبياء، المصدر السابق، 345.

[5] تاريخ الأنبياء، المصدر السابق، ص345.

وقال: إنّ الله سمّاه يحيى، وتسمية الله له بهذا الاسم لها معناها، فسمّاه يحيى ليحيى، لا ليقتل في حياة أبيه كما يُفهم من السياق والمعنى واللفظ، ولم يجعل الله ذلك لأحد قبله[1].

6- قال الدكتور صلاح الخالدي (رحمه الله):

"عاش يحيى (عليه السلام) نبيّاً داعياً إلى الله سبحانه وتعالى إلى أن وفاه الأجل، وغادر هذه الدنيا إلى الله، قال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15].

ولم يرد في القرآن ولا في الحديث الصحيح كلام عن كيفيّة وفاة يحيى (عليه السلام)، فوفاته من (مهمّات القرآن) التي لا نتعرّض لها بتفصيل أو بيان[2].

ثمّ ألا يتعارض القول بقتل ملك اليهود ليحيى (عليه السلام) مع قول الله عنه: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15].

قد قرّر الله أنّه منح يحيى السلام في حياته، وركّز على تحقيق السلام في ثلاثة مواطن:

- عند ميلاده.
- وعند وفاته.
- وعند بعثه حيّاً يوم القيامة.

وهذه معناه أنّه نال السلام والأمن والأمان من الله في هذه المواطن، وأنّ الله عصمه فيها من الأخطار والآفات.

فإذا كان اليهود والكافرون يريدون قتله، فإنّ الله سيحميه منهم، وسيمنحه السلام والأمن والأمان[3].

إنّ الآية المذكورة تشير لنا أنّ يحيى (عليه السلام) مات موتاً عاديّاً، مات بسلام وأمان، وليس قتلاً على يد ملك اليهود، كما تذكر الإسرائيليّات والروايات، هذا ما نفهمه من الآية، ونردّ به تلك الإسرائيليّات، ونقرّر بعد هذا أنّ وفاته من مهمّات القرآن التي لا سبيل إلى بيانها[4]، ونركّز أنّه مات ولم يقتل ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

---

[1] تاريخ الأنبياء، المصدر السابق، ص345.

[2] القصص القرآني، (157/4).

[3] القصص القرآني، المصدر السابق، (158/4).

[4] القصص القرآني، المصدر السابق، (158/4).

الخلاصة

في سجلّ النبوّة المبارك، تتلألأ سيرة زكريّا ويحيى عليهما السلام كنموذجين نقيّين للعبودية الصادقة والرسالية المخلصة، حيث امتزجت في حياتهما حرارة الدعوة، وصفاء العقيدة، وصبر المصلحين على الأذى في سبيل الله. إنهما من آخر أنبياء بني إسرائيل قبل بعثة المسيح عليه السلام، وقد اصطفاهما الله في بيئة فلسطين المليئة بالصراعات السياسية والانحرافات العقدية، ليكونا شاهدين على أن الرسالة الحقّة لا تنكسر أمام فساد الواقع، وأن وعد الله لعباده الصالحين لا يتخلّف.

ولقد سجّل القرآن الكريم قصتهما في أبهى صور الإيمان واليقين، فجاءت آيات سورتي *آل عمران* و*مريم* لتخلّد مشاهد المناجاة الخاشعة، والدعاء المفعم باليقين، وتلك اللحظات التي تتنزّل فيها البشرى من السماء على قلب نبيّ شيخ كبير، فتتحوّل المستحيلات إلى ممكنات بقدرة الله، ويأتي الولد الذي يحمل الرسالة ويكمل المسيرة. وفي نهاية المطاف، وصلت لمجموعة من النتائج والخلاصات، وأهمها:

1. وُلد زكريّا (عليه السلام) بفلسطين من أرض الشام، وعاش بأرض الجليل من مناطق فلسطين، وكانت فلسطين إقليماً مفتوحاً لجميع الأمم الشرقيّة والغربيّة.
2. فلسطين هي المنطقة التي يذكر أهل الكتاب أنّ إبراهيم الخليل (عليه السلام) هاجر إليها، مع العلم أنّهم لم يذكروا أنّه هاجر بسبب أذى قومه له، ومحاولتهم قتله بعد أن دعاهم إلى عبادة الله.
3. وفي فلسطين رُزق إبراهيم (عليه السلام) بإسماعيل ثمّ إسحاق (عليهما السلام)، وهو إسرائيل الذي يُنسب إليه بنو إسرائيل.
4. إنّ زكريّا ويحيى (عليهم السلام) من آخر أنبياء بني إسرائيل، ولم يأت بعدهما إلّا عيسى (عليه السلام).
5. إنّ ما عرضه القرآن من قصّة زكريّا ويحيى (عليهما السلام)، هو تأثّر زكريّا لما رأى من الكرامات عند مريم البتول، حيث دعا ربّه، وذكر له شيخوخته وحاجته للولد، واستجاب الله له.

6. إنّ الآيات الكريمة المتعلّقة بقصّة زكريّا وكفالته لمريم (عليها السلام) في سورة آل عمران تحدّثت عن بيان حال المؤمنين بربّهم، سواء في حديثها عن امرأة عمران مع ربّها ومناجاته في شأن وليدتها، وفي حديث مريم مع زكريّا (عليه السلام)، وفي دعاء زكريا ونجواه لربّه.
7. وآل عمران اصطفاهم الله وهم من آل إبراهيم، ولكنّهم خُصُّوا بالذكر من باب ذكر الخاص بعد العام، تشريفاً وتكريماً.
8. كان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمنه، وكان رجلاً صالحاً، وكانت له زوجته صالحة طيّبة طاهرة خيّرة نقيّة وفيّة، ومطيعة لزوجها، ومطيعة لربّها، وكان من نتائج هذا الزواج المبارك، إكرام المولى (عزّ وجل) لهم من مريم (عليها السلام).
9. لقد أرادت امرأة عمران أن يكون ما في بطنها منذوراً لله، موقوفاً لعبادة الله خالصاً لدين الله، محرّراً من كلّ قيد يُقيّده في هذه الحياة، وألّا تستعبده الدنيا وما فيها، وألّا ينشغل شاغل عن عبادة الله تعالى.
10. لم يكن للشيطان سبيل لمريم وابنها عيسى، ولم يكن له سلطان عليهما، فحفظهما الله من وساوسه ونزعاته، بل إنّه لم يمسّ مريم حين ولادتها، ولم يمسّ عيسى أيضاً حين ولادته.
11. لقد سألت امرأة عمران ربّها أن يحفظ الوليدة ابنة الأطهار الأبرار من مكائد الشيطان وتسويله لتتم النعم بخلوصها لربّ العالمين، وزادت من مناجاتها في مقام أنسها بربها أن يتعدّى حفظه ورعايته وصونه وكرامته هذه الوليدة البريئة الطاهرة لتشمل ذرّيتها مهما امتدّت عروقها.
12. أرشدنا الرسول ﷺ إلى تحصين ذريتنا من الشيطان الرجيم، فالإنسان إذا ما جاء أهله، ومجيء الأهل مظنّة حصول الولد، فيقول الإنسان إذا جاء أهله: (اللهم جنّبني الشيطان وجنب الشيطان ما روقتني)، فإن كان بينهما ولداً لم يضرّه الشيطان، ولم يُسلّط عليه.
13. علم الله تعالى إخلاص امرأة عمران في ندائها لربّها، فقد كانت عارفة بأسرار النداء والدعاء فنادت ربّها قائلة (رب) فهي طلبت من الربّ التربية من البداية إلى النهاية، وكان في دعائها تضرّع وانكسار لنفسها بين يدي ربّها حيث كان نذرها بناءً على أن يكون ذكراً يحصل منه القوة والخدمة والقيام بذلك

ما يحصل من أهل القوّة والأنثى بخلاف ذلك فجبر الله قلبها وتقبّل نذرها، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتمّ من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم ما يحصل بالذكر.

14. كانت الحالة السياسيّة في فلسطين في عصر المسيح عيسى بن مريم ويحيى وزكريا (عليهم السلام) – من أسوأ ما يكون، وأبلغ منها في السوء الحالة الاجتماعيّة، وذلك بسبب السلطة المعلّقة التي كانت بيد الحكّام حيث ضاع النظام مع القانون، فحدث تفاوت كبير بين الحكّام والمحكومين، فكانت الثروة والترف، والطغيان من ناحية، والفقر والهوان من ناحية أخرى.

15. كان عصر عيسى (عليه السلام) هو العصر الذي عاش فيه يحيى وزكريّا (عليهم السلام)، كما أنّ الأفكار والمعتقدات السائدة في تلك البيئة وما حولها، كان لها أثر كبير على العقيدة المسيحيّة بعد عيسى (عليه السلام).

16. إنّ بناء سليمان (عليه السلام) للهيكل هو مجرّد أكذوبة من أكاذيب اليهود، والدليل على ذلك: أنّه لا يوجد مصدر موثوق به يثبت بناء سليمان (عليه السلام) لهذا الهيكل، فالقرآن الكريم قصّ علينا قصّة سليمان مع بلقيس والهدهد والنملة والجن، وبعض هذه الأحداث تبدو أقلّ أهميّة من الهيكل فلماذا لم يتكلّم القرآن عن الهيكل؟

17. إنّ ما عرضه القرآن من قصّة زكريّا ويحيى (عليهما السلام)، هو تأثّر زكريّا لما رأى من الكرامات عند مريم البتول، حيث دعا ربّه، وذكر له شيخوخته وحاجته للولد، واستجاب الله له، وأرسل الملائكة تبشّره بيحيى، وهو يصلّي في المحراب، وأزالت استغرابه بالإشارة إلى قدرة الله المطلقة على فعل ما يريد، وقدّمت له آية معجزة يقدّمه لقومه، ولمّا وُلد يحيى وصار شابّاً أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوّة.

18. تاريخ فلسطين حافل بالأحداث، ففي الألف الثالثة قبل الميلاد هاجر إلى هذه المنطقة – والتي سمّيت فلسطين فيما بعد – أفواج من القبائل العربيّة، وكان الفينيقيّون أسبق الجماعات هجرة إلى هذه المنطقة، وقد وجدوا على شاطئ البحر المتوسّط شمال غرب فلسطين مكاناً جيّداً للاستقرار، فأقاموا، وأنشؤوا أهمّ مدنهم: صيدا وصور.

19. تُوفي موسى (عليه السلام) بعد أن ربّى جيلاً جديداً من بني إسرائيل، وساعده في ذلك فتاه يوشع بن نون، ونجح نجاحاً عظيماً في تربية ذلك الجيل، وتوفّي موسى (عليه السلام) في التيه، وأجمع العلماء على أنّ فترة التيه كانت (40 سنة) استنتاجاً أنّ مدّة عهد القضاة (120) سنة.

20. وقد كان داود (عليه السلام) ملكاً نبيّاً، وعلّمه الله (جلّ جلاله) صناعة الزّرد وعدّة الحرب، وكان أوّل من جمع بين الملك والنبوّة، وكان من أسمى أهدافه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان ينهج مع الظلمة والعصاة منهجاً جديداً شديداً، تظهر فيه معالم القوّة والردع وإعلاء كلمة الحقّ، وترك داود (عليه السلام) منهجاً ربانيّاً ملتزماً بشرع الله (عزّ وجل) في سياسة الملك، وقيادة الناس، والتعامل مع النفوس، وإعمار البلدان، وتطوير الصناعات والمرافق.

21. إنّ مملكة داود وسليمان (عليهما السلام) كانت قائمة على العدل والحق، وكان باب الاجتهاد مفتوحاً للوصول للحكم العادل. وقد نُقل عن داود وسليمان (عليهما السلام) أحكام كثيرة في القضاء وفصل الخصومات، فكانوا ملوكاً وقضاة وأنبياء وحُكاماً حقيقيّن.

22. وقد كتب الله لداود (عليه السلام) نجاحاً بعيد المدى في أن يخلّص قومه الإسرائيليّين من جالوت وجنوده، وفي أن يحقق لهم الاستقلال التام وأن يوجد لنفسه نفوذاً في بلاد الشام.

23. إنّ القرآن الكريم بيّن أكثر الحقائق الدامغة عن سيرة داود وسليمان (عليها السلام)، فردّ على التشويه اليهوديّ لهذين النبيين العظيمَين، ولقد شوّهوا صورة سليمان (عليه السلام) واتهموه بالكفر بالله، وأنّه انحاز وراء الأصنام، وقالوا: إنّ سليمان ما حكم مُلكه إلّا بالسحر والاستعانة بالشياطين، وكذلك شوّهوا أباه داود (عليه السلام) وقالوا إنّه استعبدهم وجعل النيِّر فوق رقابهم وتناسوا أنّه نبيّ مرسل، وحفيد أنبياء مرسلين، وقالوا عنه استدان الأموال، وأرهق الناس بالضرائب، ليبني هيكلهم المزعوم.

24. لقد علم الله تعالى إخلاص امرأة عمران في ندائها لربّها، فقد كانت عارفة بأسرار النداء والدعاء فنادت ربّها قائلة (رب) فهي طلبت من الربّ التربية من البداية إلى النهاية، وكان في دعائها تضرّع وانكسار لنفسها بين يدي ربّها حيث كان نذرها بناءً على أن يكون ذكراً يحصل منه القوة والخدمة والقيام بذلك

ما يحصل من أهل القوّة والأنثى بخلاف ذلك فجبر الله قلبها وتقبّل نذرها، وصارت هذه الأنثى أكمل وأتمّ من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم ما يحصل بالذكر.

25. توضح قصّة زكريا أنّ من شروط إجابة الدعاء؛ هي اليقين في الإجابة وعدم الاستعجال والخشوع والذلّ لله أثناء الدعاء وأكل الحلال، فقد كان زكريّا (عليه السلام) نجاراً يأكل الحلال من كدّ يمينه، والتوسل إلى الله بأسماء الله الحسنى.

26. الإيمان بأنّ الله (عزّ وجل) يسمع ويرى، هي مِن آثار الإيمان بالسميع. ومراقبة الله (عزّ وجل) فيما يقوله الإنسان سواء أسرّ القول أو جهر به، سواء كان ذلك في جماعة أو في خلوة؛ من الإيمان بالله تعالى سميعاً بصيراً. وهذا الإيمان يثمر في القلب الخوف من الله (عزّ وجل) والمحافظة على اللسان من أن ينطق بما يستحق الله تعالى، فالله تعالى يسمع ذلك والملائكة تكتبه، ومن تعبّد الله تعالى بهذا الاسم الكريم جنّب لسانه الفحش من القول؛ من سبّ، وسخرية، وغيبة ونميمة، وبهتان، ولهو باطل أو نشر لباطل يُضلّ به الناس.

27. ثناء الله تعالى على يحيى، بأنّه حصور، ليس كما قال بعضهم: إنّه كان هيوباً أو لا ذكر له، بل أنكر هذا حُذاق المفسّرين ونقّاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب لا يليق بالأنبياء (عليهم السلام)، وإنّما معناه أنّه معصوم من الذنوب، أي: لا يأتيها، كأنّه حُصر عنها.

28. كان لزكريّا (عليه السلام) مساعٍ عظيمة في الدعوة إلى الله لأنّه نبيّ مرسل من عند الله، ولقي من عنت قومه بني إسرائيل ما حدث فعلاً، ولكنّ القرآن يركز على شكوى زكريّا في قصّته من القعم وخوفه أن يموت دون أن يعقب ولداً.

29. كان التطبيب وإصلاح الزوجة من شرعة الله تعالى لزكريّا (عليه السلام)، فقد بلغ من الكبر عتيّاً، ولم يُرزق بولد، وكانت امرأته عاقراً لا تنجب حتّى دعا الله بأن يرزقه الذريّة الصالحة والولد الذي يرثه في الدعوة، فاستجاب الله دعاءه وأصلح له زوجة ورزقه بولده يحيى، فكان العقم داء وجاء الدعاء وسيلة، وتمّ الشفاء بإذن الله تعالى، وأنجبت الزوجة ولداً.

30. كانت المدّة التي لم يُكلّم الناس بها زكريّا (عليه الصلاة السلام) من غير علّة أو مرض، بل كان عدم قدرته على تكليمهم؛ هو المعجزة التي بيّنها الله له هذه المدّة كانت ثلاثة أيّام بثلاث ليال.

31. إن المقصود بطهارة مريم هو طهارتها بالإيمان الكبير العظيم العميق بالله (عزّ وجل) والطاعة لله سبحانه تعالى، وطهارتها من الكفر والمعصية، وطهارتها بالأخلاق الحميدة والصفات الحسنة من الأحلاق الذميمة والصفات القبيحة، ومن مسيس الرجال بأيّ حال من الأحوال، ومن تهمة اليهود حيث برّأها المولى من افتراءاتهم، وجاءت براءتها على لسان المسيح (عليه السلام) وهو في المهد.

32. إنّ ظاهر القرآن الكريم والأحاديث النبويّة يقتضيان إلى أنّ مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة، ثمّ بعدها في الفضيلة فاطمة بنت محمّد ﷺ، ثمّ خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) ثمّ آسية بنت مزاحم.

33. الكمال في شيء ما يكون حصوله للكمال أولى من غيره، والنبوّة ليست أولى للنساء؛ لأنّ مبناها على الظهور، والدعوة إلى الله مع الاختلاط بجميع طبقات الشعب، على اختلاف عناصرها، وتباين مشاريعها، ومناهجها، وحالهم الاستتار، ولا تكون النبوّة في حقّهنّ كمالاً، بل الكمال في حقهنّ الصدّيقيّة، وهي مرتبة عظيمة قريبة من النبوّة.

34. الحكمة من تخصيص الرجال بالنبوّة دون النساء على اعتبار أنّ النبوّة عبء ثقيل وتكليف شاق، لا تتحمّله طبيعة المرأة بتركيبها البيولوجي والنفسي، ولهذا كان جميع الأنبياء من الذكور؛ لأنّ مهام الرسالة مضيئة تحتاج إلى مصابرة ومجاهدة، وتتطلّب الكفاح والسفر، وخوض المعارك وتحمّل المشاق.

35. لم يرد في القرآن ولا في السنّة وصف مريم عليها السلام بالنبوّة، وإنّما جاء وصفها بأوصاف أخرى تدلّ على صلاحها وطُهرها وصدّيقتها، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: 75].

36. امتثلت مريم (عليها السلام) التوجيهات الربّانية، فكانت حياتها طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله تمهيداً للأمر العظين الخطير، ألا وهو مولد عيسى (عليه السلام) من غير أب آية للعالمين على قدرة الله المطلقة وحكمته البالغة وإرادته النافذة، وعلمه الذي وسع كلّ شيء سبحانه وتعالى.

37. القرآن الكريم يُعطي الصورة الصحيحة بعلم في دقائق حال عيسى ونشأته وأمّه وهذا معيّن للباحثين عن الحقيقة في معرفة قصّى عيسى (عليه السلام) الصحيحة بعكس الأناجيل التي يؤمن بها النصارى فإنّها متعارضة ومتناقضة، وفي بعضها ما يؤكّد افتراءات اليهود على السيدة مريم.

38. إنّ ما ورد في الأناجيل في شأن عيسى (عليه السلام)، وفي شأن مريم متضارب متناقض بعيد عن الحقيقة منحرف عن الصواب، حتّى شُرَّاح الأناجيل قد أصابتهم الحيرة ووقعوا في أخطاء وتناقضات وهم يشرحون الأناجيل، وقصّة يوسف النجّار قصّة متضاربة متناقضة مدسوسة مكذوبة، وليس له أيّ صلة بمريم (عليها السلام).

39. لم يكن لعيسى عليه السلام إخوة لا ذكور ولا إناث، وتخرصات الإنجيل ليس لها سند من التاريخ، وعيسى وُلد من مريم العذراء التي لم يكن لها زوج.

40. أخبره الله (عزّ وجل) نبيه المصطفى ﷺ بأنّ مريم البتول، أمّ عيسى (عليه السلام) كانت أفضل النساء، واختارها الله، وفضّلها على نساء العالمين، وبيّن ذلك لمن حوله، وحديث القرآن الكريم عن مريم ومكانتها وتفضيلها وقصّة ابنها المسيح دليل على أنّ القرآن الكريم كلام الله.

41. توجد في القرآن صورة باسم سورة مريم، وهي السورة التاسعة عشرة من القرآن الكريم، واسم هذه السورة هو تكريم لمريم، أمّ المسيح عيسى (عليه السلام)، ومثل هذا التكريم أيضاً لم يسبغ على مريم في إنجيل المسيحيين.

42. سورة مريم مكيّة، وغرضها تقرير التوحيد وتنزيه الله (عزّ وجل) عمّا لا يليق به، وتثبيت عقيدة الإيمان والجزاء، ومحور هذه السورة يدور حول التوحيد والإيمان بوجود الله ووحدانيّته، وبيان منهج المهتدين، ومنهد الضالين وسُمّيت السورة بسورة مريم لاشتمالها على قصّتها مفصّلة.

43. تحدّثت سورة مريم عن هموم زكريّا (عليه السلام) تجاه دين الله تعالى، وحرصه على توريث ذلك لأبنائه، ولذلك طلب من الله تعالى في دعائه أن يرزقه ولداً ليقوم بهذه المهمّة ثمّ الحديث عن فقه قصّة مريم وبيان حقيقة أمرها والحديث عن قصّة إبراهيم مع والده، ثمّ الإشارة إلى حال الأنبياء، ثمّ عرضت النهايات لكلّ فريق، وأثر الشياطين في ردّ الناس عن دينهم ومنهجهم.

44. رسمت سورة مريم وسورة آل عمران شخصيّات زكريّا ويحيى في القرآن من خلال نصّين أساسيّين هما: الآيات من الثانية إلى الخامسة عشرة من سورة مريم المكيّة، والآيات من الثانية والثلاثون إلى الحادية والأربعين، ومع اختلافهما في الأسلوب وطريقة العرض، إلّا أنّهما يُقدّمان صورة تكاد تكون متطابقة للشخصين من حيث السمات المعروضة، ومن حيث المواقف التي قدّمت الشخصيّة أثناءها، ومع ذلك فإنّ كلّاً من النصّين يُقدّم إضاءة لطيفة للنصّ الآخر تعيّن على فهم أعمق للشخصية وظروفها.

45. زكريّا وابنه يحيى (عليهما السلام) يمثّلان نموذجاً حيّاً لقدرة الله على الإحياء مع غياب بعض الشروط المألوفة، وهي أوّل مراتب القدرة المعجزة، فإنّ سورة مريم تبدأ مباشرة بعرض النموذج الحيّ لهذا الضرب من الشخوص أثناء تفاعلها بهذا الحدث المعجز.

46. عرضت مقدّمة سورة مريم شخصيّة زكريّا (عليه السلام) في لحظة من لحظات اتصالها بربّها لحظة الدعاء والمناجاة، ورسمت الآية الكريمة نموذجاً حيّاً عميقاً للشيخوخة البشريّة بصورة عامّة وللشيخوخة المؤمنة بصورة خاصّة، ولقد اكتسب هذا النموذج حيويته بسبب تعبيره عن نفسه من خلال أحساس مجرّب وسلوك في لحظة بوح غير مسبوقة.

47. العبوديّة مقام كريم ودرجة سامية، يوصف بها المقرّبون. والعبوديّة لله تعالى غنى ورفعة وعزّ، وأمّا العبوديّة لغيره – سبحانه – فهي فقر وذل وضعه. فما أسوأ أن يكون الإنسان عبداً للشيطان، عبداً لشهواته، عبداً لهواه، عبداً للمال، عبداً للمنصب والمال والسلطان، يبيع في سبيل ذلك دينه ومبادئه.

48. أخفى زكريا عليه السلام لخوفه من قومه أن يلوموه على طلب الولد، في حالة لا يُمكن فيها الولد عادة لكبر سنّه وسنّ امرأته، وكونها عاقراً. وهناك من قال: إنّه أخفاه لأنّه طلب أمر دنيوي، فإن أجاب الله دعاءه فيه نال ما كان يُريد وإن لم يُجبه لم يعلم ذلك أحد، إلى غير ذلك من الأقوال.

49. كان دعاء زكريّاء (عليه السلام) بينه وبين الله (عزّ وجل) بلا واسطة ولا حرف النداء وإنّ ربّه لسميع ويرى من غير دعاء ولا نداء، ولكنّ المكروب يستريح إلى البثّ ويحتاج إلى الشكوى، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستحبّ لهم أن يدعوه وأن يبثّوه ما يضيق به صدورهم.

50. إنّ زكريّا (عليه السلام) يريد أن يكون ابنه الوارث راضياً مرضيّاً رضيّاً، وأن تُبنى شخصيّته على الرضا، وعندما يكون رضيّاً سيكون فرحاً سعيداً مسروراً، وستكون علاقته بالآخرين قائمة على السعادة واليسر والرضا، سيحبّهم ويحبّونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه وتألف ويؤلّف.

51. كان دعاء زكريّا بالولد الصالح ليكون عوناً له على دعوته وتقرّ عينه بطاعته لربّه، وهذا من مطالب، وأدعية عباد الرحمن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

52. بيّن الله لنا السبب الذي لأجله استجاب الله دعاءه، وكأنّه سبحانه يقول لنا: من أراد أن يستجيب الله كما استجاب الله دعاء زكريّا، فليكن مثل زكريّا، بأن يجتهد في المسارعة في الخيرات، والدعاء لله رغباً ورهباً، وأن يُخلص خشوعه وانقياده واستسلامه لله (عزّ وجل).

53. ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ (يحيى) مشتقّ من الحياة، وأنّه على وزن الفعل المضارع، تقول: حَيا، يحيا، كما تقول: عاش، يعيش، وإمات، يموت. وممن قال باشتقاقه الإمام الراغب، حيث قال في حكمة تسميته بهذا الاسم: وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾؛ فقد نبّه أنّه سمّاه بذلك من حيث إنّه لم تُمِته الذنوب، كما أماتت كثيراً من ولد آدم، لا أنّه كان يُعرف بذلك الاسم فقط.

54. إن الراجع هو أنّ اسم (يحيى) ليس مشتقّاً، لأنّه اسم علم أعجميّ، وهو ممنوع من الصرف، للعلميّة والعجمة.

55. إنّ زكريّا ويحيى ومريم وعيسى (عليهم السلام) أشخاص إسرائيليّون وليسوا عرباً، وعاشوا بين اليهود في الأرض المقدّسة، ولغة اليهود لغة عبريّة وليست عربيّة، وأسماء أشخاصهم أسماء عبريّة أعجميّة وليست عربية، فهذه الأسماء أعجميّة وليست مشتقّة، ولا نبحث لها عن معنى اشتقاقي في العربيّة.

56. ذكرت الأناجيل ليحيى بن زكريا في العهد الجديد قصّة جرت بينه وبين عيسى (عليه السلام)، لكنّ مؤلّفي الأناجيل لم يُسمّوه يحيى، إنّما سمّوه (يوحنّا المعمدان).

57. هناك فرق بين أمر كونيّ وأمر شرعيّ؛ الأمر الكونيّ هو ما يكون، وليس لك فيه اختيار في ألّا يكون، والأمر الشرعيّ مالك فيه اختيار من الممكن أن تُطيعه فتكون طائعاً، أو تعصيه فتكون عاصياً. وهذا

الذي حدث لزكريّا (عليه السلام) أمر كونيّ، وآية من الله لا اختيار له فيها وكأنّ الحقّ سبحانه يعطينا الدليل على أنّه يوجد من لا مظنّة أسباب، وقد يُبقي الأسباب سليمة صالحة ولا يظهر المسبّب.

58. إن التسبيح هو حقّ من حقوق الله تعالى على العباد يجب عليه إفراده به، وقد أمر الله عباده بهذه العبادة العظيمة تارة أمر إيجاب، وأخرى أمر استحباب. وخصّه الله تعالى بأنواع من الفضل، ووعد عليه الجزيل من الأجر. وإن التسبيح عبادة مشتركة يؤدّيها جميع يؤدّيها جميع الكائنات في الأرض والسماوات، وهو عبادة لا تنتهي بانقضاء الدنيا، بل هي مستمرّة باقية في الجنّة دائمة بدوام أهلها الذين: يُلهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهون التنفّس.

59. إنّ القرآن الكريم يصف لنا صورة مشرقة لهذا النبيّ العظيم (زكريا) وهو خارج من محرابه، ملهماً قومه عن طريق الإشارة بالتسبيح بكرة وعشيّاً. وقد اِمتاز بشدّة الزهد في الدنيا والإعراض عن لذّاتها، والرغبة عن زينتها وجاهها وسلطانها، وترك مخالطة الخلق في تلك الأجواء الربّانيّة العامرة بذكر الله وتسبيحه وتحميده وتقديسه والأنس به.

60. اتفق العلماء على أنّ يحيى أُعطي النبوّة قبل بلوغ الأربين سنة بكثير، ولعلّ الله لمّا أراد أن يكون شهيداً في مقتبل العمر باكَرَه بالنبوّة.

61. إن الحنان صفة ضروريّة للنبيّ المكلّف رعاية القلوب والنفوس، وتأليفها واجتذابها إلى الخير والرفق. ووصف يحيى بأنه (حناناً) وهو من لدن الله، إشارة إلى بلوغ المنتهى في الرحمة، لأنّ ما يهبه العظيم عظيم.

62. كان يحيى (عليه السلام) تقيّاً عابداً لله خائفاً منه مؤدّياً لفرائضه، مجتنباً محارمه، متسارعاً في طاعته. وقول الله تعالى عنه: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾؛ هو نتيجة للصفات السابقة التي وصف الله بها يحيى (عليه السلام) وثمرة لما آتاه الله منذ أن كان صبيّاً آتاه الله الحكم والفهم والعلم، وآتاه الحنان والرحمة والشفقة، وآتاه الزكاة والتزكية والطهارة.

63. كان يحيى (عليه السلام) برّاً بوالديه، وذكر برّه لوالديه مقصود هنا: لأنّه والديه كبيران عجوزان وهما بحاجة إلى برّ ابنهما بهما: لتقدمهما في العمر وحاجتهما إلى المساعدة وحسن المعاملة، لاسيما أنّهما

رزقاً بابنهما على كبر وهذه من النهم العظيمة التي ينعم الله بها على الوالدين الكبيرين، عندما يوفق أبناءهما إلى البرّ بهما؛ لأنّهما في عمرهما المتقدّم يحتاجان إلى ذلك البرّ والإحسان.

64. إنّ برّ الوالدين من أعظم القربات، وذلك لأنّه لا عبادة بعد تعظيم الله تعالى مثل تعظيم الوالدين، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23].

65. إنّ يحيى (عليه السلام) وضع صرحاً عظيماً في برّ الوالدين في عمق الحضارة الإنسانيّة، فهما أساس الأسرة يجب احترامهما والاهتمام بهما وبالنظر للحضارة الحديثة، نجد أنّها انتزعت عن الوالدين حقّهما وتركتهما لدور المسنّين، وبهذا تكون الأسرة قد فقدت أهمّ أعمدتها وأركانها.

66. إنّ برّ الوالدين من شرعة الله تعالى لأنبيائه (عليهم السلام) فطريق السائرين على منهجه الإحسان إليهم والتعطّف عليهما، والرفق بهما، والرعاية لأحوالهما، وعدم الإساءة إليهما، وإكرام صديقهما من بعدهما والبرّ في حقّهما وحقّ الأقربين من الأهل ضد العقوق، وهو الإساءة إليهم والتضييع لحقوقهم.

67. إنّ الحضارة الغربية التي يقودها الغرب تخلّت عن الوالدين وعن برّهما والإحسان إليهما، حتّى بالصلة معهما، ولذلك اخترعوا عيد الأم وعيد الأب للتذكير بهما ولو مرّة بالسنة، ولا يلتزم بذلك القليل، ولذلك انهارت الأسرة، وتبدّدت صلة الأرحام، وجفّ منبع العطف والحنان والصلات الاجتماعية ممّا يُنذر بخطر وفساد كبيرين.

68. آتى الله يحيى (عليه السلام) أمرين، وأنعم عليه بنعمتين، وهما: الحنان والزكاة، ووصفه بوصفين إيجابيّين، هما ثمرة الحنان والزكاة، وهما: كان تقيّاً لله، وكان برّاً بوالديه، ونفى عند أمرين، قبيحين يتناقضان مع ما سبق، فلم يكن جبّاراً ولا عصيّاً، وهذه كلّها ثمرة للحكم الذي آتاه الله إيّاه وهو صبي: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾؛ وهذا كلّه تطبيق وتنفيذ لأمر الله له ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾.

69. إنّ سيرة يحيى (عليه السلام) التي جاء ذكرها في القرآن الكريم تدلّ على التواضع والاقتداء به في ترك التجبّر والتكبّر على عباد الله، والترافع عليهم، بل الشفقة بهم الحرص على هدايتهم ودلالتهم على الصراط المستقيم وتوحيد الله (عزّ وجل) وإفراده بالعبادة.

70. حرص يحيى عليه السلام على الصفات الحميدة والأخلاق الكريمة، والقيام بحقّ الله، وبحقوق عباده (سبحانه وتعالى)، فأكرمه الله بالتحية، وهي السلام المتضمّن للأمان والسلامة من المكاره والشرور.

71. أوحش ما يكون الإنسان في أماكن ثلاثة: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً ممّا كان فيه، ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يُبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله يحيى (عليه السلام) وخصّه بالسلام عليه في هذه المواطن: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

72. كان زكريّا ويحيى (عليهم السلام) من آخر أنبياء بني إسرائيل، ولم يأت نبيّ بعدهما لنبي إسرائيل إلّا عيسى ابن مريم (عليه الصلاة والسلام).

73. الحكمة والمناسبة من ذكر يحيى بن زكريّا (عليهم السلام) في سورة مريم، أنّه لمّا ذكر الله قصّة ولادة يحيى بن زكريّا من عجوز عاقر، وشيخ قد بلغ من الكِبر عتيّاً، وذلك بمقتضى السنن الكونية، هو شيء خارق للعادة؛ لعقم المرأة وهرم الشيخ، أعقبها بما هو أبلغ وأروع في خرق العادات، فذكر ولادة عيسى (عليه السلام)، من غير أب وهي أعجب من الأوّل بكثير.

74. سميت سورة الأنبياء بذلك لاشتمالها على قصصهم وذكر جهادها، وصبرهم وتضحيتهم في سبيل وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشريّة، فذكر فيها أسماء ستّة عشر نبيّاً، ولم يأت في سور القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام ذُكر فيها أسماء ثمانية.

75. تناولت سورة الأنبياء قصّة إبراهيم (عليه السلام) مع قومه الوثنيّين، في أسلوب مشوّق فيه من نصاعة البيان وقوّة الحجّة والبرهان ما يجعل الخصم يُقرّ بالهزيمة في خضوع واستسلام. وفي قصّته عبر وعظات وتابعت السورة الحديث عن الرسل الكرام (عليهم الصلاة والسلام) فتحدّثت عن إسحاق ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود وسليمان، وأيّوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وزكريّا، وعيسى، بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرّضوا لها، وتختمت ببيان رسالة سيّد المرسلين حبيبنا محمّد بن عبد الله رحمة للعالمين ﷺ.

76. في سورة الأنبياء لمحة عابرة، ولكنّها غنيّة بالدروس والعبر والفوائد عن زكريّا (عليه السلام) وشكواه لربّه، واستجابة الله دعاءه، وقد جاءت هذه اللمحة بعد ذكر ألوان من المعاناة أوذي بها الأنبياء، ثمّ

صرفها الله عنهم وأحسن جزاءهم، وجاء الحديث عنه بعد يونس (عليه السلام)، ثم ذكر الله زكريّا حينما دعاه، يرجوه ألّا يتركه وحيداً دون ولد يرثه، ويشدّ عضده ويؤنس وحدته، مع اعترافه بأنّ الله سيرث الناس جميعاً من له ولد ومن لا ولد لع، فالملك كلّه لله، دعاه وأعطاه ابنه يحيى بعد أن أصلح له زوجه، وجعلها قادرة على الإنجاب، وذلك بسبب دعائهم وعبادتهم لله طمعاً في حسن ثوابه، وخوفاً من أليم عقابه، وكانوا دائماً يخشون الله لعظمته وكانوا يتسابقون لفعل الخير.

77. جاءت قصة مريم مع عيسى (عليهما السلام) بعد قصّة زكريّا مباشرة في سورة الأنبياء، ليُبيّن الله أنّ ولادة عيسى (عليه السلام) بغير أب لا تُعجز الله، فهذان زوجان لا يستطيعان الإنجاب بكلّ مقاييس البشر، ومع ذلك ينجبان بقدرة الله، فما الفرق بين ذلك وبين أنثى تنجب من غير أن يتّصل بها رجل؟ وإنّ الفاعل في الحالتين هو الله، ومقاييس البشر تنكر إمكانية حدوثه، ولكنّه يحدث بالقدرة الإلهيّة، فإذا اتّهم كافر مريم في عفّتها فماذا يقول في زوج زكريّا العقيم العجوز حينما تضع مولودها.

78. إنّ الآيات الكريمة التي تحدّثت عن زكريّا (عليه السلام) في سورة الأنبياء وهو ينادي ربّه فيُستجاب له، كان ذلك امتداداً طبيعيّاً لدعوات الأنبياء الذين سبقوه، فقد تنوّعت الأدعية في سورة الأنبياء والدّاعون والدعاء، من حيث المبدأ واحد والمدعو، وحد (سبحانه)، والاستجابة واحدة، وإن تعدّد الداعون وتنوّعت طلباتهم، فالنسق في الآيات أوضح من التوضيح، وأبين من التبيين، وأظهر من الإظهار، والحمد لله منزّل هذه الآيات وجاعلها آية في الاتساق بين هذه الآيات.

79. إنّ زكريّا (عليه السلام) يعرف أنّ الله تعالى لا يؤخّر نفساً إذا جاء أجلها، وهو (عليه السلام) متعلّق بذكر ربّه، عاشق لاستمراره ودعائه، فإن كان الموت سيحرمه من ذلك، فقد تمنّى أن لا يتوقّف الذكر والخشوف والمسارعة في الخيرات في ذلك البيت المبارك. فنادى ربّه ودعاه دعاء خفيّاً ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.

80. عرض القرآن الكريم موكب الإيمان الجليل، يقوده ذلك الرهط من الرسل، من نوح إلى إبراهيم إلى خاتَم النبيّين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يعرض السياق هذا الموكب ممتدّاً موصولاً، وبخاصّة منذ إبراهيم وبنيه من النبيّين، ولا يراعي التسلسل التاريخيّ من هذا العرض، كما يلاحَظ في مواضع أخرى،

لأنّ المقصود هنا هو الموكب بجملته، لا تسلسله التاريخيّ، ومن جملة من ذكر في هذا الموكب من الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام) زكريّا ويحيى، حتّى يُعلم أنّهما أنبياء كباقي الأنبياء.

81. إنّ الحجّة القاطعة في نبوّة زكريّا ويحيى في كتاب الله (عزّ وجلّ) في الذكر الحكيم، في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المنزل من عند الحكيم الحميد سبحانه وتعالى.

82. قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ۖ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: 84-90].

83. إنّ البشر يحصّلون علمهم بطريق الحواس أو العقل، أمّا علم الأنبياء فينقسم إلى أنواع ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: 51].

84. اختلف العلماء في التفريق بين معنى النبي والرسول، على أقوال: فرأى بعضهم أنّهما سواء، فالنبيّ والرسول لفظان لمعنى واحد، ورأى البعض: أنّهما متفرّقان من وجه ويجتمعان من وجه، كما قال القاضي عياض: والصحيح والذي عليه الجمّاء الغفير، أنّ كلّ رسول نبي وليس كلّ نبي رسولاً. والراجح في الفرق بين النبيّ والرسول، أنّ الرسول من بُعث بشرع جديد، وأُمر بتبليغه، والنبيّ من أُمر بالتبليغ ولكن بشرع من سبقه من الرسل.

85. الرّسل صادقون في أقوالهم وأعمالهم، قال تعالى: على لسان الكافرين حين يُبعثون من قبورهم يوم القيامة: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52].

والرسالة لا يصلح لها كذّاب والرسل مُبلّغون عن الله تعالى، وداعون إلى الحق قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: 105].

86. الرسل متّصفون بأرفع الكمالات الإنسانيّة، ويتحلّون بأسمى الأخلاق الفاضلة: كالكرم، والعدل، والشجاعة، والصبر، والعفّة، والأمانة، والحلم، والحياء، وسائر مكارم الأخلاق، ولذا فقد وصف الله تعالى نبيّنا الكريم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

87. يجب الإيمان بصدق الرسل وأمانتهم، وتبليغهم وفطانتهم وعصمتهم، فكذلك يجب الإيمان بكمال خلقتهم. فهم يتميّزون بسلامة أبدانهم مما تنفر منه الطباع السليمة، فلا يمرضون مرضاً منفّراً أو مُقعداً عن تبليغ رسالاتهم، كالجذام، والبرص، والصرع. وأما الأمراض التي لا تمنعهم من أداء رسالتهم، كالحمّى، فقد تصيبهم.

88. الإيمان بأنبياء الله ورسله ركن من أركان الإيمان، فلا يتحقّق إيمان العبد حتّى يؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين، ويصدّق بأنّ الله تعالى أرسلهم لهداية البشر وإرشاد الخلق، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأنّهم بلّغوا ما أُنزل إليهم من ربهم البلاغ المبين، فبلّغوا الرسالة وأدّوا الأمانة، ونصحوا الأمم، وجاهدوا في الله حقّ جهاده.

89. الإيمان بأنبياء الله تعالى ورسله لا يتمّ حتّى يؤمن العبد بجميعهم من غير حصر، سواء من قصّهم الله علينا ومن لم يقصصهم، فقد أخبرنا جلّ وعلا أنّ هناك أنبياء لم يقصصهم علينا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: 78].

90. من أطاع رسولاً واحداً فقد أطاع جميع الرسل، ومن آمن بواحد منهم فقد آمن بالجميع، ومن عصى واحد منهم فقد عصى الجميع، لأنّ كلّ رسول يصدّق الآخر، ويقول: إنّه رسول صادق، ويأمر بطاعته، فمن كذّب الذي صدّقه، ومن عصاه فقد عصى من أمر بطاعته.

91. أرسل الله سبحانه رسلاً إلى جميع الأمم، لا يعلم عددهم إلّا الله سبحانه، وقد قصّ القرآن الكريم علينا بعضاً منهم، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: 164].

92. ورد ذكر خمسة وعشرين من الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم، وهم: آدم أبو البشر، ونوح شيخ المرسلين، وإدريس، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل بن إبراهيم، وإسحاق بن إبراهيم، ويعقوب بن إسحاق، ويوسف بن يعقوب، وشعيب، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان بن داود، وأيوب، ويونس، واليسع، وذو الكفل، وإلياس، وزكريّا، ويحيى بن زكريّا، وعيسى، ومحمّد (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين).

93. أفضل الرسل على الإطلاق هم أولو العزم، وأفضل أولو العزم هو رسولنا محمد ﷺ، إذ جمع كلّ ما تفرّق في الرسل السابقين ورسالاتهم من مزايا ومحاسن وكمالات، فهو أفضل المرسلين وسيّدهم، ورسالته أكمل الرسالات وأعمّها وأشملها وأمّته خير أمّة أُخرجت للناس، ودينه هو الذي ارتضاه الله لعباده إلى أن تقوم الساعة.

94. من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل، أنّ الخلق بحاجة إلى الرسل ليُبلّغوهم ما يُحبّه الله ويرضاه، وما يغضب منه ويأباه، وكثير من العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، هذا مع وجود الأنبياء (عليهم السلام)، فكيف يكون الحال لو لم يُرسل الله تعالى رُسُلاً مبشّرين ومنذرين.

95. إنّ نبيّ الله زكريّا (عليه السلام) هو امتداد طبيعي لدعوة يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم، ودعوة الأنبياء والمرسلين قائمة على توحيد الله وإفراده بالعبادة ومحاربة الشرك التي هي دين الإسلام.

96. إنّ الإسلام هو دين الله الخالد الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي فرضه على البشر، منذ خلقهم، جاء به آدم ونوح وإدريس وإبراهيم وآل إبراهيم وآل عمران، وأنّه تمّ برسالة خاتم النبيّين، وأنّ هذا الدين جاء به النبيّون لأنّه هو الدين الوحيد، الذي يدعو إلى الوحدانيّة الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك.

97. إنّ جميع الأنبياء والمرسلين قد بعثهم الله بعقيدة الإسلام التي كانب تتلاءم مع البشريّة والإنسانيّة على مرّ القرون والعصور مع اختلاف البيئات، وبالرغم من تقلّبات الزمان وتغيّر عقليّات الناس قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

98. اتّفقت جميع الرسالات السماويّة على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل (عليهم الصلاة والسلام) ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، لأنّها تتحدّث كلّها عن مقرّرات ثابتة لا يقوم الإيمان إلّا بها، فهي حقائق ثابتة لا تتطوّر ولا تتغيّر ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع.

99. دعا زكريّا قومه إلى عبادة الله وحده وإلى تعظيمه وتسبيحه من دون سواه، ولذلك حين خرج على قومه من المحراب أمرهم أن يُسبّحوا الله، وأن يظلّوا على ذلك إلى آخر الحياة، وكانت دعوة زكريّا تشمل بوجود الملائكة، فقد أرسلهم الله إليه يبشّرونه بيحيى، كما بشّرت من قبل جده إبراهيم (عليه السلام).

100. عاش زكريّا (عليه السلام) على الوفاء بالعهد، حافظاً للعقيدة، همّه تحقيق التوحيد والدعوة إليه وإفراد الله بالعبادة والطاعة، وأمله هداية الناس وردّهم إلى جانب الصواب، وكان دأبه التنقّل بين محرابه وعمله في النجارة، سعياً وراء الرزق الحلال، فإذا أصاب مالاً سدّ رمق الجائع ومسح دمعة البائس، وقضى حاجة المضطر، ثمّ رجع إلى محرابه راغباً في فضل الله.

101. لم يخبرنا القرآن عن زكريّا (عليه السلام) إلّا أنّه كان نبيّاً رسولاً، وأنّه دعا طالباً منه الولد الوارث، وأنّه كان إماماً في قومه، وحوله مجموعة من اتباعه المؤمنين، وأنّه كان داعية يدعوهم إلى الله تعالى.

102. كان الوجود التاريخيّ ليحيى (عليه السلام) مُسَلَّماً به في الغرب حتّى ظهرت مؤخّراً النزعة الشكوكيّة الغالية التي ترفض كل الأناجيل بين قلّة من الملاحدة، ولا يزال، في الحقيقة، الإجماع قائماً بين الأكاديميّين دارسي الأناجيل أنّ يحيى (عليه السلام) شخصيّة تاريخيّة عاشت في فلسطين في القرن الأوّل، وأنّه كانت لها علاقة بالمسيح (عليه السلام)، وهو ما يظهر مثلاً في دراسة (في ندوة يسوع) التي تمثّل أشهر تجمّع ليبرالي للنقّاد في العقود الأخيرة يبحث في مصداقيّة أخبار الأناجيل المتعلّقة بالمسيح (عليه السلام) وبيحيى (عليه السلام).

103. فصّلت الإسرائيليّات كثيراً في مقتل يحيى (عليه السلام) على أيدي الملك اليهوديّ، واستهوت هذه التفصيلات المفسّرين والمؤرّخين، فأوردوها في كتبهم، واعتمد عليها بعض المعاصرين، بغض النظر عن دقتها التاريخية.

104. لم ينصّ القرآن الكريم أو السنّة الصحيحة على حقيقة نهاية يحيى بن زكريّا (عليهم السلام)، كما لم تحمل الآثار والأخبار الأخرى رواية معقولة ومقبولة عن هذا الأمر، تستند إلى ثوابت ومضامين دينيّة وتاريخيّة، لكم ما شاع تحمل رواية العهد الجديد في هذا الأمر، مع تباين في بعض السياق أو الصيغة، ممّا لا يؤثّر على تطابق المعنى والمضمون.

105. إنّ القرآن الكريم لم ينصّ على قتله، ولا أشار إلى ذلك، وكذلك السنّة، بل إنّ حديث القرآن الكريم عن زكريّا ويحيى يدلّ على عدم قتله، وأنّه سيموت موتاً لا قتلاً: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15].

106. عاش يحيى (عليه السلام) نبيّاً داعياً إلى الله سبحانه وتعالى إلى أن وفاه الأجل، وغادر هذه الدنيا إلى الله، قال تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15].

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم.
2. آباء وأبناء ملامح تربوية في القرآن، فاروق حمادة، الدار الشامية، ط1، 1900م.
3. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، 2009م.
4. الأحاديث الصحيحة في أخبار وقصص الأنبياء، صالح إبراهيم العلي، دار القلم، 2007م.
5. إحياء علوم الدين، محمد الغزالي، دار ابن حزم، 1900م.
6. أخلاق الأنبياء، محمد عبد الله الدويش، دار الحضارة، ط2، 2020م.
7. الارتباط الزمني والعقائدي بين الأنبياء والرسل، محمد وصفي، دار ابن حزم، 2014م.
8. الاستذكار، ابن عبد البر، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م.
9. الأسرار البلاغية في الفرائد القرآني، عبد الله عبد الغني، دار الحضارة، ط1، 2012م.
10. الأسفار المقدسة قبل الإسلام، صابر طعيمة، دار الكتب، لبنان، 2013م.
11. أسماء الأنبياء ودلالاتها ومعانيها، خالد محمد حمد، نور حوران للدراسات والنشر والتراث، دار العراب للدراسات، ط1، 2016م.
12. أضواء البيان، الشنقيطي في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عالم الفوائد، 2013م.
13. أنباء الأنبياء، أحمد بو شنار، دار المعتز للنشر والتوزيع، ط1، 2022م.
14. أنبياء الله، أحمد بهجت، دار الشروق، 1905م.
15. الأنبياء الملوك داود وسليمان عليهما السلام وهيكل سليمان المزعوم، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، ط1، 2024.
16. الأنبياء والرسل في القرآن، علي العربي، دار ابن حزم، 2014م.
17. إنجيل متى: الإصحاح الثالث، يوحنا المعمدان.
18. الأوراد المأثورة، محمد أحمد المقدم، دار الخلفاء الراشدين، 2021م.
19. الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني، دار الكتب العلمية، ط2، 2003م.

20. الإيمان بالرسل والرسالات، علي محمد الصلابي، دار المعرفة، 2015م.
21. البداية والنهاية، ابن كثير، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2015م.
22. البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، أبو الفضل السكسكي، دار الكتب العلمية، 2004م.
23. بلاغة الكلمة في التفسير القرآني، فاضل السامرائي، دار ابن كثير، ط2، 2016م.
24. بنو إسرائيل منذ وفاة سليمان، عبد الرحمن الخطيب، 2007م.
25. البيان في إعجاز القرآن، الخالدي، دار عمار، الأردن، 2018م.
26. تاريخ الأنبياء، محمود عبده نور الدين، دار الكتب العلمية، 2007م.
27. تاريخ الديانة اليهودية، محمد خليفة بن حسن أحمد، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1998م.
28. تاريخ الفكر المسيحي، القس حنا الخضري، دار الثقافة، دار الطباعة القومية، 2007م.
29. تاريخ الكنيسة في العهود الأولى، جون وليمر، دار الثقافة، 2019م.
30. تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر،2006م.
31. تاريخ مختصر الدول، غريغوريوس المطلي، دار الرائد اللبناني، بيروت، ط2، 2007م.
32. تأملات في سورة مريم، عادل أحمد صابر الرويني، جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، 2011م.
33. تجريد المقول ممن المنقول في ظلال القرآن، نخبة من العلماء، مؤسسة الريان للطباعة والنشر، 2017م.
34. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 2007م.
35. تحريف رسالة المسيح، بسمة أحمد، دار القلم، دمشق، ط1، 2000م.
36. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، ط1، 2014م.
37. التسبيح في الكتاب والسنة، محمد إسحاق، دار المنهاج، 2006م.
38. التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط10، 1988م.
39. تفسير ابن المنذر، النيسابوري، دار المآثر المدينة النبوية، ط1، 2002م.
40. تفسير ابن كثير، ابن كثير، دار ابن حزم، ط1، 2000م.
41. تفسير البغوي، الحسن بن مسعود البغوي، دار طيبة، 2007م.

42. تفسير البيضاوي، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1418هـ.
43. تفسير الزهراوين، محمد صالح المنجد، مجموعة زاد للنشر، ط1، 2016م.
44. تفسير السعدي، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة، 2007م.
45. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، مكتبة الأسرة، 1992م.
46. تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، ط1، 1994م.
47. تفسير الطبري، محمد بن جرير الطبري، مؤسسة الرسالة، ط1، 1994م.
48. تفسير القرآن الثري الجامع، محمد الهلال، دار المعارج، ط1، 2022م.
49. تفسير القرآن الكريم، عبد الله شحاتة، دار غريب، القاهرة، ط2، 2000م.
50. تفسير القرآن بالقرآن، طه العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2020م.
51. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار النوادر للنشر والتوزيع، 2013م.
52. التفسير المنير، وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط1، 1991م.
53. التفسير الموضوعي، طهماز، دار القلم، ط2، 2014م.
54. تفسير النابلسي، راتب النابلسي، مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع، ط1، 2019م.
55. تفسير النسفي، أبو البركات عبد الله أحمد، مكتبة نزار مصطفى الباز، 2009م.
56. تفسير سورة الأنبياء، أحمد نوفل، دار الصحابة، ط1، 2014م.
57. التفسير والبيان لأحكام القرآن، عبد العزيز الطريفي، مكتبة دار المباهج، ط1، 1438هـ.
58. توضيح الكافية الشافية، السعدي، أصول السلف، ط1، 2000م.
59. التيسير في التفسير، أبي نصر القشيري، دار اللباب، ط1، 2022م.
60. الثمين في قصص الانبياء والمرسلين، زهير علي كافي، دار المأمون، 2003م.
61. الثناء في القرآن الكريم، هتون سامي عبد الرحمن، دار ابن حزم، 2016م.
62. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مؤسسة الرسالة، ط1، 2006م.
63. جذور الإرهاب اليهودي في أسفار العهد القديم، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، 2018م.
64. حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، الخالدي، دار النفائس للنشر والتوزيع، 2007م.

65. الحق الواضح المبين، السعدي، دار ابن القيم، ط2، 2987م.
66. الخارطة القرآنية، مشعل الفلاحي، دار القلم، ط1، 2022م.
67. خماسيات مختارة في تهذيب النفس الأمارة، فضل حسن عباس، دار النفائس للنشر، 2011م.
68. داود في الأسفار اليهودية، مي مدهون، 2018م.
69. دراسات تاريخية في القرآن الكريم، محمد بيومي، دار النهضة العربية، ط2، 1988م.
70. دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود عبد العزيز، أصول السلف، 2006م.
71. دراسات في التفسير الموضوعي، زاهر الألمعي، مكتبة فهد الوطنية، ط4، 2007م.
72. دراسات في التوراة، عطية الشوادفي، مطبعة الشروق، 1936م.
73. دراسات في متشابه النظم في قصص القرآن الكريم، عبد الغني عوض الراجحي، 2018م.
74. دراسات معاصرة في العهد الجديد والعقائد النصرانية، محمد علي البار، دار القلم، 2008م.
75. دعاء الأنبياء والرسل، محمد محمود أحمد، مركز الكتاب للنشر، ط1، 1998م.
76. دعوة الأنبياء والرسل في القرآن، بسام الصباغ.
77. دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، مطبعة المدني، القاهرة، ط3، 1992م.
78. دور الأنبياء في بناء الحضارة الإنسانية، عامر القيسي، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن، 2015م.
79. رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر، دار الحكمة، 1997م.
80. روح المعاني، الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994م.
81. زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، 1987م.
82. سفر التكوين في ميزات القرآن الكريم، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2014.
83. سفر موسى.
84. السلسلة الصحيحة، الألباني، مكتبة المعارف، 2006م.
85. سنن ابن ماجه، ابن ماجه القزويني، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، 2013م.
86. سنن ابن ماجه، ابن ماجه القزويني، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، 2006م.

87. سنن أبي داود، أبو داود الأزدي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1996م.
88. سنن الترمذي، أبو جعفر الترمذي، دار التأصيل، ط1، 2014م.
89. السنن الكبرى، البيهقي، دار الكتب العلمية، ط3، 2003م.
90. السيرة النبوية، ابن هشام، دار الصحابة للتراث، طنطا، 2007م.
91. الشخصيات القرآنية، نزيه محمد اعلاوي، دار الصفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 2019م.
92. شرعة الله للأنبياء في القرآن الكريم والسنة النبوية، محمد مصطفى الزحيلي، دار ابن كثير، 2018م.
93. الشفا في حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1988م.
94. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، مكتبة البشرى، 2016م.
95. صحيح الترمذي والألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 2000م.
96. صحيح قصص الأنبياء، ابن كثير، سليم الهلالي، 2002م.
97. صحيح قصص القرآن، حامد أحمد البسيوني، دار الحديث للطبع والنشر، 2005م.
98. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1991م.
99. العصمة في الفكر الإسلامي، حسن حميد، طيبة الدمشقية للطباعة والنشر، 2007م.
100. العصمة في ضوء عقيدة أهل السنة، منصور راشد التميمي، مكتبة الرشد، 2015م.
101. علوم القرآن، عدنان محمد زرزور، دار الأعلام، 2010م.
102. عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، دار الكتب العلمية، ط1، 1996م.
103. فبهداهم اقتده، عثمان الخميس، دار إيلاف الدولية، ط1، 2010م.
104. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، 2010م.
105. فتح الباري في شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، مصر، ط1، 1390هـ.
106. فتح البيان، صديق خان، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، 1992م.
107. فتح القدير، الإمام الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 2007م.
108. الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبد المجيد الشرفي، دار المنار الإسلامي، 2007م.

109. الفكر الديني اليهودي أطواره ومذاهبه، حسن ظاظا، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، 1971م.
110. فلسطين التاريخ المصور، طارق سويدان، شركة الإبداع الفكري، 2012م.
111. في صحبة الرسل الكرام، عبد المقصود عسكر، دار البشير للثقافة، 2000م.
112. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، 2018م.
113. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط32، 2003م.
114. قاموس الكتاب المقدس، بطرس وآخرون، مكتبة المشعل الإنجيلية، بيروت، 1964م.
115. قصة الحضارة، ول ديورانت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم دار الجيل للطباعة والنشر، 2012م.
116. القصة في القرآن الكريم، عصام الدين الهنامي، مركز فائق للخدمات العلمية، 2023م.
117. القصة في القرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ط1. 1905م.
118. قصص الأنبياء في القرآن، يونس وزكريا ويحيى، عقيل حسين عقيل.
119. قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، مطبعة النصر، 1998م.
120. قصص الأنبياء، عمرو خالد، دار المعرفة، 2014م.
121. قصص الأنبياء، محمد الفقيه، مكتبة وهبة، 1989م.
122. قصص التوراة والإنجيل في ضوء القرآن والسنة، عمر سليمان الأشقر، دار النفائس، 2014م.
123. قصص القرآن في رحاب الكون، عبد الحليم محمود، دار المعارف، 2007م.
124. قصص القرآن، محمد أحمد جاد المولى، دار الجيل، 2011م.
125. القصص القرآني، الخالدي، دار القلم، 2009م.
126. الكشاف، الزمخشري، دار الريان للتراث، القاهرة، ط3، 1987م.
127. كلام في اليهود، محمد علي دولة، دار القلم، دمشق، ط1، 2013م.
128. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
129. ليدبروا آياته المجموعة الثالثة، مركز تدبر للاستشارات، دار الحضارة، 2010م.
130. مجالس النور، محمد عياش الكبيسي، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2010م.

131. مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، 2004م.
132. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، عبد الحق بن غالب الأندلسي المحاربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1422هـ.
133. مختصر تاريخ دمشق، ابن عساكر، دار الفكر، 2014م.
134. المدخل إلى تاريخ العهد الجديد، القس فهيم عزيز، دار الجيل للطباعة، 2007.
135. مدخل إلى تاريخ المسيحية والعهد الجديد، محمد شاهين، مدونة التاعب، 2012م.
136. المرأة في القصص القرآني، أحمد الشرقاوي، دار السلام، 2021م.
137. مريم والمسيح، محمد متولي الشعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، 2015م.
138. مستدرك الحاكم على الصحيحين، الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990م.
139. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م.
140. المسيح عيسى ابن مريم، الحقيقة كاملة، علي محمّد الصلابي، دار ابن كثير، ط1، 2019م.
141. مشكل الآثار، الطحاوي، مؤسسة الرسالة، ط1. 1994م.
142. مصادر النصرانيّة دراسة ونقد، عبد الرزاق بن عبد المجيد، دار التوحيد للنشر، الرياض، ط1، 2007م.
143. مصنف ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن أبي شيبة الكوفي العبسي، دار التاج، لبنان، ط1، 1989م.
144. المطالب العالية، ابن حجر، دار العاصمة، السعودية، ط1، 1419هـ.
145. مظاهر الوثنية في عقائد أهل الكتاب، محمد إبراهيم الجيوشي، 2006م.
146. مع الله، سليمان العودة، الإسلام اليوم للنشر، ط5، 2010م.
147. معجم الحضارات السامية، هنري عبود، لبنان، ط2، 1411م.
148. معجم الطبراني، أبو القاسم الطبراني، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، 1994م.
149. مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ.
150. المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مكتبة القلم، ط1، 1412هـ.

151. مقاصد القرآن الكريم ومحتوياته، عبد الله التليدي، 2021م.
152. مقاصد سور القرآن الكريم، منذر أبو شعر، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2021م.
153. مقدّمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، 2006م.
154. من أنباء القرى، أحمد الكبيسي، مؤسسة الرسالة العالمية، ط1، 2007م.
155. من قصص التنزيل، محمد الحجار، دار البشائر، 1999م.
156. منهاج السنة، ابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، ط1، 1986م.
157. موسوعة الأعمال الكاملة، القرضاوي، الدار الشامية، ط1، 2022م.
158. الموسوعة التنفيذية للفلسفة اليهودية، عبد المنعم حنفي، مكتبة مدبولي، ط1، 1980م.
159. موسوعة نضرة النعيم، مجموعة من العلماء، دار الوسيلة للنشر، جدة، ط4، 2018م.
160. النبوات، ابن تيمية، أضواء السلف، الرياض، ط1، 2000م.
161. النصرانية من التوحيد إلى التثليث، محمد أحمد الحاج، دار القلم، ط1، 1992م.
162. نقد التوراة، أحمد حجازي السقا، مكتبة النافذة، 2008م.
163. نوح والطوفان العظيم، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير، 2019م.
164. هذا ربي، خالد الخليوي، دار الإسلام، 2019م.
165. الهيكل المزعوم بين الوهم والحقيقة، د. عبد الناصر قاسم الفرا، 2001م.
166. الوجود التاريخي للأنبياء، د. سامي العامري، رواسخ، ط1، 2021م.
167. وقفات في حياة الأنبياء، خالد عبد العليم، دار ابن كثير، 2014م.
168. ولله الأسماء الحسنى، عبد العزيز الجليل، القسطاوي، ط1، 1439هـ.
169. اليهودي، أحمد شلبي، دار العلوم، القاهرة، ط3، 1988م.

فهرس المحتويات

المبحث الأوّل:

الجذور التاريخيّة للبلاد التي عاش فيها زكريّا ويحيى (عليهما السلام) وحديث القرآن عنهم .. 9

أوّلاً: تاريخ فلسطين: 9

ثانياً: عهود بني إسرائيل: 11

1- عهد القضاة: 11

2- المدّة الزمنيّة بين موسى وداود (عليهما السلام): 13

3- عهد الملوك: 14

4- عهد الانقسام (زوال ملك بني إسرائيل): 16

ثانياً: تداول الإمبراطوريات الكبرى على فلسطين: 18

1- الحكم العراقي: 18

2- الحكم الفارسي: 19

3- الحكم الإغريقي: 24

4- الحكم الروماني: 26

ثالثاً: الحالة السياسيّة والاجتماعيّة: 26

خامساً: الطوائف اليهوديّة في عهد زكريّا (عليه السلام) وعند ظهور المسيح (عليه السلام).... 30

1- السامريّون: 31

2- الصدوقيّون: 32

3- الفريسيّون: 33

4- القمرانيّون (جماعة وادي قمران): 34

5- الأسانيون: 36

سادساً: الهيكل المزعوم: 37
سابعاً: حديث القرآن الكريم عن زكريّا ويحيى (عليهم السلام): 38

المبحث الثاني:

قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة آل عمران: 40

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا... وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. 41
1- قال ابن كثير رحمه الله: 42
2- وقال محمّد رشيد رضا رحمه الله: 42
3- قال السعدي رحمه الله: 42
4- من هم آل عمران؟..... 43
5- ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:..... 45
6- ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾: 45
7- ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: 45
ثانياً: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ...إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ 45
1- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾: 46
2- ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيۖ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: 47
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا ... وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ 48
1- ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾:..... 48
2- ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾: 48
3- ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾: 49
4- ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: 50
رابعاً: قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ...مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. 51
1- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾:..... 52

2- ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾: 53
3- ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾: 56
4- ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾: 57
5- ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: 58
خامساً: قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ... إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. 63
1- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾: 63
2- ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾: 63
3- ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾: 66
سادساً: قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ... وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ 68
1- ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾: 69
2- ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾: 69
3- ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾: 72
4- ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾: 72
5- ﴿وَسَيِّدًا﴾: 73
6- ﴿وَحَصُورًا﴾: 74
7- ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: 75
سابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ... كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ 76
1- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾: 76
2- ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾: 76
3- ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: 77
4- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾: 78
ثامناً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً... وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ 79

1- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾: 79
2- ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾: 79
3- ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾: 82
تاسعاً: قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ ... وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾. 83
1- ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾: 84
2- ﴿وَطَهَّرَكِ﴾: 85
3- ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾: 85
4- مريم (عليها السلام) أفضل نساء العالمين: 86
عاشراً: قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾..... 89
1- ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾: 89
2- ﴿وَاسْجُدِي﴾: 89
3- ﴿وَارْكَعِي﴾: 90
4- ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾: 90
الحادي عشر: قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ... وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾..... 90
1- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾: 90

المبحث الثالث:

قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة مريم:..... 94

أوّلاً: قال تعالى: ﴿كهيعص ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾. 96
1- ﴿كهيعص﴾: 96
2- ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾: 99
3- ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾: 100
ثانياً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي... وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾. 101

1- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾: 102
2- ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾: 102
3- ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾: 105
ثالثاً: قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي... فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾..... 106
1- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾:..... 106
2- ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾:..... 107
3- ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾: 107
رابعاً: قال تعالى: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. 108
1- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾: 108
2- ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾: 109
خامساً: قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾..... 110
1- قال العلّامة القرطبي: 111
2- ﴿اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾: 111
3- ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾:..... 112
4- تسمية المولود ووقتها: 113
سادساً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ... وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ 114
2- ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾: 115
سابعاً: قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ... وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾..... 116
1- ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾:..... 116
2- ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾:..... 117
ثامناً: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾.... 118
1- ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾: 118

2- ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾: 118
تاسعاً: قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ... سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾..... 120
1- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾: 120
2- ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: 120
عاشراً: قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ... وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. 123
1- ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾: 123
2- ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾: 125
3- ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا﴾: 125
4- ﴿وَزَكَاةً﴾: 126
5- ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: 127
6- ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾:..... 127
7- ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: 128
8- ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: 131

المبحث الرابع:

قصّة زكريّا ويحيى (عليهم السلام) في سورة الأنبياء:..... 133

أوّلاً: قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾. 134
1- ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ﴾:..... 134
2- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾:..... 135
3- ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾: 136
4- اسم الله (الوارث) من أسماء الله الحسنى: 136
ثانياً: قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ ... وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ 138
1- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾:..... 139

2- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ﴾: 139
3- ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾: 140
4- متى أصبحت امرأة زكريّا زوجاً؟ 141
5- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾: 143
6- ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾: 143
ثالثاً: زكريّا ويحيى (عليهما السلام) في موكب الأنبياء والمرسلين: 144
رابعاً: طرق الوحي: 147
1- طريق الوحي: 147
2- الفرق بين النبي والرسول: 149
3- أهمّ صفات الرسل ومنهم زكريّا ويحيى (عليهما السلام): 149
4- الإيمان بالأنبياء والمرسلين: 152
5- عدد الرسل: 153
6- التفاضل بين الأنبياء والرسل: 154
7- أولو العزم من الرسل: 155
8- حكمة إرسال الرسل عامّة: 156
9- وظائف الرسل: 158
10- أمور تفرّد بها الأنبياء: 159
خامساً: زكريّا (عليه السلام) على نهج الأنبياء والمرسلين (عليهم السلام): 163
1- أصول الإيمان: 164
2- أصول الشرائع: 166
3- أصول الأخلاق والفضائل: 167
سادساً: أهمّ صفات زكريّا (عليه السلام) ووفاته: 167

1- أهمّ صفات زكريّا (عليه السلام): 167
2- وفاة زكريّا (عليه السلام): 168
سابعا: يحيى (عليه السلام) في الأحاديث النبوّية: 171
1- من حديث عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): 171
2- وقال رسول الله ﷺ: 171
3- ومن حديث عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما): 171
4- عن مالك بن صعصعة: 171
ثامناً: وصيّة الله ليحيى بن زكريّا (عليهم السلام): 172
تاسعاً: الوجود التاريخيّ ليحيى (عليه السلام): 173
عاشراً: وفاة يحيى (عليه السلام) وما قيل فيها: 176
1- الشيخ عبد الوهّاب النجّار (رحمه الله) قال: 176
2- قال الدكتور عثمان الخميس: 176
3- محمّد أحمد جاد المولى: 177
4- وقال الأستاذ أحمد بهجت: 178
5- قال الدكتور محمّد عبده نور الدين: 179
6- قال الدكتور صلاح الخالدي (رحمه الله): 180
الخلاصة..... 181
المصادر والمراجع: 199
فهرس المحتويات 207
السيرة الذاتية للمؤلف..... 215
كتب صدرت للمؤلف 216

السيرة الذاتية للمؤلف

د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلَّابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ - 1963م.
- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.
- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.
- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.
- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.
- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفًا.

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.
18. عماد الدين زنكي.
19. نور الدين زنكي.
20. دولة السلاجقة.
21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22.الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23.الشيخ عمر المختار.

24.عبد الملك بن مروان وبنوه.

25.فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26.حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27.وسطية القرآن في العقائد.

28.السلطان عبد الحميد الثاني.

29.دولة المرابطين.

30.دولة الموحدين.

31.عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

32.الدولة الفاطمية.

33.حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

34.صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

35.استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

36.الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

37.الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

38.المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

39.سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

40.الشورى في الإسلام.

41.الإيمان بالله جل جلاله.

42.الإيمان باليوم الآخر.

43.الإيمان بالقدر.

44.الإيمان بالرسل والرسالات.

45.الإيمان بالملائكة.

46.الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

47.السلطان محمد الفاتح.

48.المعجزة الخالدة.

49.الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.

50.البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

51.التداول على السلطة التنفيذية.

52.الشورى فريضة إسلامية.

53.الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

54.العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.

55.المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

56.العدل في التصور الإسلامي.

57.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

58.الأمير عبد القادر الجزائري.

59.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

60.سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

61.كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

62.أعلام التصوف السُني: "ثمانية أجزاء".

63.المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

64.الجمهورية الطرابلسية (1918 – 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

65.الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

66.المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام): الحقيقة الكاملة.

67.قصة بدء الخلق وخلق آدم (عليه السلام)

68.نوح (عليه السلام) والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

69.إبراهيمُ خليل الله (عليه السلام): "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

70.موسى (عليه السلام) كليم الله.

71.موسى (عليه السلام) والخضر.

72.موسى (عليه السلام) في سورة طه.

73.موسى (عليه السلام) في سورة القصص.

74.موسى (عليه السلام) في سورة الشعراء.

75.مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

76.لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

77.سقوط الدولة العثمانية (الأسباب – التداعيات).

78.سقوط الدولة الأموية (الأسباب – التداعيات).

79.مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

80.النبي الوزير يوسف الصديق (عليه السلام) من الابتلاء إلى التمكين.

81.ذكريات لا تنسى.

82.الأنبياء الملوك داوود وسليمان (عليهما السلام)، وهيكل سليمان المزعوم.

83.لوط (عليه السلام) ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين.

84.تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان (عليه السلام) وقصة الهيكل المزعوم.

85.نبي الله هود (عليه السلام) وأسباب زوال حضارة قوم عاد.

86.نبي الله صالح (عليه السلام) وأسباب هلاك قوم ثمود.

87.الأبعاد الإنسانية والحضارية في شخصية النبي ﷺ.

88.نبي الله أيوب (عليه السلام) "طريق الشفاء ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾".

89.أنبياء الله إسحاق ويعقوب (عليهما السلام)

90.إسماعيل (عليه السّلام)